

الدكتور محمد تقي الدين

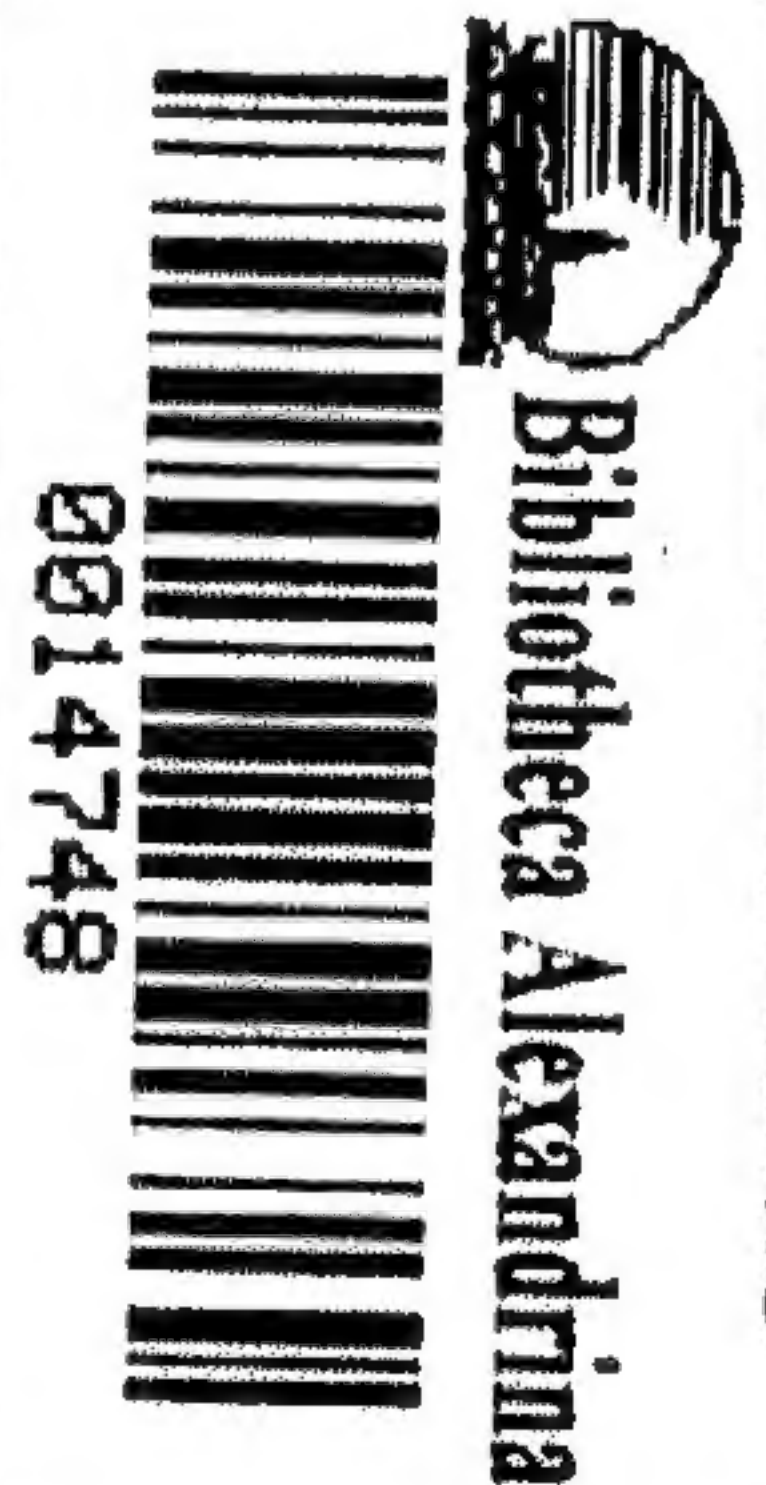
منازل المزيّن في عهد المماليك

٤٤٣-٤٨٤ هـ / ١٠٥١-١٠٩١ م



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العربية



ممالك المزيث
في عهد المعتصم بالله
٤٤٣ ~ ٤٨٤ هـ / ١٠٥١ ~ ١٠٩١ م

تأليف :
الدكتورة مريم قاسم طويل
دكتوره دولة في التاريخ الاندلسي
أستاذة اللغة الأيبانية بالجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

مكتبة الوحدة العربية
الدار البيضاء

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلکس: Le 41245 Nasher

هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢ - ٠٠/٩٦١١/٦٠٢١٣٣

إهداء

إلى روح أبي الذي وافاه الأجل
وهو في ريعان الشباب
مريم قاسم

في أرض أندلسٍ تُلْتَدُ نَعْمَاءُ
ولا يُفَارِقُ فيها القلبُ سَرَاءُ
أنهارُها فِضَّةٌ والمِسْكُ تُرْبَتُها
والخَزْرُ رَوْضَتُها والدُّرُّ حَصْبَاءُ

ابن سفر المريني
(نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٩)

مقدمة

حاولتُ في هذا البحث أن أتحدث عن ماضي مملكة المرية الأندلسية، هادفةً من وراء ذلك إبراز معالمها التاريخية والحضارية في ظلّ ملكها المعتصم ابن صمادح. فالسنوات الست التي أمضيتها في ربوع الأندلس من العام ١٩٧٣ حتى العام ١٩٧٩ أكبرُ باعثٍ حفَرنِي للاطلاع على تاريخ مملكة المرية وإنجازاتها الحضارية الضخمة التي حققتها المملكة في عهد المعتصم. لذا رأيتُ أن تكون المرية موضوع دراسة مستقلة، بل عملاً جديداً يُضافُ إلى المكتبات العربية وغير العربية.

وإلى جانب مشاهداتي للمملكة المرية وأطلاعي عن كثب على ما تبقى فيها من آثار العرب، فإنني اعتمدتُ على مصادرٍ ومراجعٍ عربية وإسبانية وفرنسية ناهزت المئة والستين كتاباً، أمدّني كلّها بمعلوماتٍ قيّمة بحيث أصبحت صورة المملكة كافيةً وافيةً.

ولقد اعتمدتُ طريقة واضحة قسّمتُ البحث بموجبها إلى بابين، باب جغرافي تاريخي سياسي، وباب حضاري يبحث في الاجتماع والاقتصاد والثقافة والعمران. فالباب الأول يشتمل على ثلاثة فصول، ففي الفصل الأول تحدثتُ عن موقع المرية الجغرافي. وفي الفصل الثاني عرضتُ لأوضاع المرية التاريخية والسياسية في عهد أمرائها ابتداءً بخيران العامري (٤٠٥ - ٤١٩ هـ / ١٠١٤ - ١٠٢٨ م) وانتهاءً بالمعتصم ابن صمادح (٤٤٣ - ٤٨٤ هـ / ١٠٥١ - ١٠٩١ م)، وتحدثتُ عن علاقة المعتصم بملوك الطوائف وملوك النصارى الإسبان وفي مقدمتهم ألفونسو السادس ملك قشتالة، ومصير المرية بعد المعتصم ومصير بقية ممالك الأندلس. وفي الفصل

الثالث قدّمت نبذة عن حياة المعتصم ابن صمادح، كونه الشخصية التي يتمحور حولها الموضوع.

أمّا الباب الثاني، فإنّه يشتمل على أربعة فصول، ففي الفصل الأول تحدّثت عن المظاهر الاجتماعية لمملكة المريّة بهدف إلقاء أضواء ساطعة على حياة الناس فيها، فعرضت بإيجاز لصفات وعادات وتقاليدها شعب المملكة، وبحثت في العناصر والطبقات التي كان يتكوّن منها مجتمع المريّة، ثمّ عرضت لدور المرأة في المجتمع المريّ سواء كانت حرة أو أمة. وفي الفصل الثاني درست أوضاع المريّة الاقتصادية في عهد المعتصم ابن صمادح، فتناولت ثلاثة جوانب هي الزراعة والصناعة والتجارة. وفي الفصل الثالث قدّمت صورة واضحة عن وضع المريّة الثقافي في عهد المعتصم ابن صمادح، فتناولت الحياة الأدبية واللغوية والعلمية، وسردت لطائفة من شعراء ولغويّ وعلماء المريّة الذين قصدوه. وفي الفصل الرابع بحثت في المنشآت الحربية والمدنية والدينية التي أقيمت في المريّة، كقصبتها، وقصرها المعروف بالصمادحية، ومسجدها الجامع، ومقابرها وأضرحتها، وقيساريّتها، وحمّتها العجيبة، وأسواقها وفنادقها ومتاجرها وحمّاماتها.

الباب الأول



دراسة جغرافية وتاريخية وسياسية
لمملكة ألمرية ونبذة عن حياة مليكها
المعتصم ابن صمادح

الموقع الجغرافي لمدينة ألمرية حاضرة المملكة في عهد المعتصم ابن صهاح

١ - موقع ألمرية الجغرافي :

ألمرية Almeria مدينة كبيرة من مشاهير مدن الأندلس، ومن أعمال كورة إلبيرة^(١) Elvira. تقع بين مدينتي مالقة ومرسية على حافة بحر الزقاق (البحر المتوسط)، مقابلة وادي آش^(٢) Guadix وهي ذاتها جبلان بينهما خندق^(٣) معمر، وعلى الجبل الواحد قصبته المشهورة بالحصانة، وعلى الجبل الآخر

(١) راجع معجم البلدان (ج ٥ ص ١١٩)، ووفيات الأعيان (ج ١ ص ٦٣)، والروض المعطار ص ٥٣٨، ونفع الطيب (ج ١ ص ١٦٢)، والمعجب ص ٢٤٧، وقطعة من كتاب فرحة الأنفس (مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ٢٨٣). و«كورة» لفظة يونانية الأصل، من (Curia) وقد ظهر أصطلاحها في الأندلس لأول مرة في عهد الوالي أبي الخطار حُسام بن ضرار الكلبي (١٢٥ - ١٢٨ هـ / ٧٤٢ - ٧٤٥ م) عندما وَرَعَ جُنْدَ الشَّامِ، الذين دخلوا الأندلس في سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م مع بلج بن بشر القشيري، على كُور الأندلس. راجع البيان المغرب (ج ٢ ص ٣٣ - ٣٤)، وتاريخ مدينة ألمرية الأندلسية ص ٧٧ حاشية ١، وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ٢٥، ١٧١. و48 - 47, Tome III, p. Histoire de l'Espagne Musulmane. وقد عَرَفَ ياقوت «الكورة» بقوله: «وأما الكورة، فقد ذكر حمزة الأصفهاني: الكورة اسم فارسي بَحَثَ، يقع على قسم من أقسام الإستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للإستان، كما استعارت الإقليم من اليونانيين فجعلته اسماً للكشخر، فالكورة والإستان واحد. قلت أنا: الكورة كلُّ صُقْعٍ يشتمل على عدة قُرى، ولا بُدَّ لتلك القرى من قسبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة». معجم البلدان (ج ١ ص ٣٦ - ٣٧).

(٢) تقويم البلدان ص ١٧٧، ووفيات الأعيان (ج ٢١ ص ٦٣)، ونفع الطيب (ج ١ ص ١٦٢) ووصف إفريقية والمغرب والأندلس ص ٤٥.

(٣) سُمِّيَ هذا الخندق بخندق باب موسى. تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١١٣.

المسمّى لِيَهُمْ^(١) أو لاهم Lahem رَبَضُهَا الشرقي^(٢). وهكذا فإنَّ المرية عبارة عن مرتفعات وحصون باستثناء الجهة الجنوبية الشرقية. وقد وصفها المقرئ بقوله: «وقد استدار بها من كلِّ جهة حصون مرتفعة، وأحجار أولية، وكأنما غُرِبَتْ أرضها من التراب^(٣)».

ومن المرية إلى بَجَانة خمسة أميال وسدس الميل، وقيل: ستة أميال. وبينها وبين وادي آش مرحلتان للمُجَدِّ، وبينها وبين غرناطة مسيرة ثلاثة أيام، وبينها وبين حصن مُنْكَب (بليدة صغيرة) أربع مراحل. ومنها إلى مرسية خمسة أيام، ومنها إلى قرطبة سبعة أيام^(٤). وجعل العُدري المسافة بين المرية وقرطبة ستة أميال^(٥).

٢ - أهميّة موقع المرية البحري:

طار صيت المرية البحري في الأفق؛ لانفرادها عن غيرها من مدن الأندلس بخليج تميّز بهدوء مياهه، وقلة أمواجه، وشدة اتساعه، وعمقه، بحيث كان يتسع لعدد كبير من السفن ويضمُّ معظم وحدات الأسطول الأموي في الأندلس^(٦). ففي الربع الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي بدأ ميناء المرية يتحوّل إلى قاعدة بحرية ينطلق منها أسطول عبد الرحمن الناصر. ذكر العُدري أن محمد بن رُمَاحس غزا في سنة ثمانٍ وعشرين وثلاثمائة للهجرة / تسعمائة وتسعة وثلاثون للميلاد من المرية إلى طرطوشة في مركبين حربيين، وفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة / ٩٤٢ م غزا من المرية إلى إفرنجة في ثلاثين مركباً حربياً^(٧). وأشار ابن خلدون إلى عدد سفن أسطول الناصر، وحركة مرفئها الدائمة، فقال: «وأنتهى

(١) أطلق عليه أيضاً اسم مرتفع العرقوب، ويُسمّى اليوم مرتفع سان كريستوبال San Cristobal.

انظر. Alameria Islámica, en Al-Andalus, XXII, p.434.

(٢) الروض المعطار ص ٥٣٨، ونفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣)، والحلل السدسية (ج ١ ص ١١٩، ٢٠٣).

(٣) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣). وانظر أيضاً الحلل السدسية (ج ١ ص ٢٠٣).

(٤) انظر نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار ص ٨٦، وصورة الأرض ص ١١١، ووصف إفريقية والمغرب والأندلس ص ٤٦، والمعجب ص ٢٤٧، والروض المعطار ص ٨٠.

(٥) نصوص عن الأندلس ص ٨٩.

(٦) انظر تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ٣٧، ٤٢، ٥٢.

(٧) نصوص عن الأندلس ص ٨١.

أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مركب أو نحوها، وأسطول إفريقية كذلك مثله أو قريباً منه، وكان قائد الأساطيل بالأندلس ابن رُمّاحس، ومرفأها للخطّ والإقلاع بجاية والمرية^(١). وذكر ابن الخطيب أن أسطول المرية كان في عهد عبد الرحمن الناصر ثلاثماية قطعة، ثم جدّده الحكم المستنصر في سنة ثلاث وخمسين وثلاثماية / ٩٦٤ م عندما وافى المرية وأشرف على أمورها^(٢). وأضاف في مكان آخر أن عدد سفن هذا الأسطول تضاعف في بداية عهد الحكم المستنصر إلى ستمائة قطعة. يقول: «وفي أيامه ظهرت المجوس المُجَلِّبة على المسلمين من بحر الجوف (أي من الشمال)، فتحرّك إلى المرية، وقد حصروا حصن القِبْطَة^(٣) من حصونها، فأوقع بهم، وأنشأ الأسطول لغزوهم، فكان عدده ستمائة جفن^(٤) بين غزوي وغيره. وفي سنة ٣٥٢ هـ غزا الروم، ففتح مدناً جليلة»^(٥).

وكانت معظم وحدات هذا الأسطول ترابط في القاعدة الرئيسية بالمرية لمواجهة الخطر الفاطمي، وهذا ما يؤكده ابن عذاري في قوله: «وفيها (أي في سنة ٣٥٣ هـ) تحرّك الحكم من قرطبة إلى المرية توقّعا لما يصدر من صاحب إفريقية المحادّ لأهل الأندلس، ولمعاينة ما استكمّله بها من الحصانة، ومطالعة حال رابطة القِبْطَة، ومشاركة حال الرعايا بتلك الجهة»^(٦).

وهكذا بدأت المرية منذ تأسيسها تتبوأ مركز الريادة البحرية الأندلسية، وقد أشار ابن غالب إلى ذلك بقوله: «وهي باب الشرق، ومفتاح التّجار والرّزق، وبألمرية دار

(١) تاريخ ابن خلدون (م ١ ص ٤٤٩). وانظر أيضاً تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس (ص ١٧٤ - ١٧٥).

(٢) الإحاطة تحقيق عنان (ج ١ ص ٤٧٨ - ٤٧٩).

(٣) يقع هذا الحصن إلى الجنوب الشرقي من خليج المرية. تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ٤١.

(٤) الجَفْنُ والحَفْنَة واحدة الأجفان، وهو سفينة حربية دائرية شبيهة بالقصعة، من سفن الغزو والحرب، اهتم بها المغرب الإسلامي وكثر استعمالها لها. وإذا أضيفت لفظة «جفن» هنا إلى صفة «غروي» فإنها تضاف أيضاً إلى صفتي «بحري» و«حربي»، فيقال: جفن بحري، وجفن حربي. كذلك استعمل الجفن، إلى جانب الحروب، في نقل المتاجر راجع السفن الإسلامية على حروف المعجم ص ٢٣ - ٢٧، وتكملة المعاجم العربية (ج ٢ ص ٢٣١).

(٥) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٤١ - ٤٢).

(٦) البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٣٦). وانظر أيضاً تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ٤٢ - ٤٣.

الصُّنعة، وسُوِّرها على ضِفَّة البحر، قد آسَتْقَرَّتْ فيها العُدَّة للسفن ولما يقوم به الأسطول»^(١). وصارت هي وبجَّانة على حدِّ قول ياقوت: «بابي الشرق، منها يركب التجار، وفيها تحلُّ مراكب التجار، وفيها مرفأٌ ومرسى للسفن والمراكب...»

وفيها يكون ترتيب الأسطول الذي للمسلمين، ومنها يخرج إلى غزو الإفرنج^(٢) ووصفها ابن سعيد، فقال نقلاً عن الرازي: «سُوِّرها على ضِفَّة البحر، وبها دار الصناعة، وهي باب الشرق ومفتاح الرزق»^(٣). وأضاف نقلاً عن المُسْهَب: «وأما المَريَّة، فلها على غيرها من نظرائها أظهرُ مزية، وبنهرها الفِضِّي، وبَحْرِها الزَّبَرْجَدِيّ، وساحِلُها التَّبْرِيّ... وأسوارها العالية الراسخة»^(٤). وقال مرّة أخرى: «مدينة المَريَّة المشهورة التي كانت لها دار صناعة الأندلس، وكان فيها ديوانها»^(٥). «وردّد أبو الفداء ما جاء به ياقوت وابن سعيد، فقال: «ومدينة المَريَّة مُسَوِّرة على حافة بحر الزقاق، وهي باب الشرق، ومفتاح الرزق، ولها بَرٌّ فِضِّي، وساحل تَبْرِي، وبَحْرُ زَبَرْجَدِيّ، وأسوارها عالية»^(٦).

وأضحَتِ المَريَّة، كما يقول الجُميري، أشهر مراسي الأندلس وأعمرها، تقصدها مراكب التُّجار من الإسكندرية والشام^(٧). ووصفها الشَّقْنُدي في رسالته فقال: «وساحلها أنظف السواحل، وأشرحها وأملحها منظرًا... وبها كان محطُّ مراكب النصاري، ومجتمع ديوانهم، ومنها كانت تُسَفَّرُ لسائر البلاد بضائعهم، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التي تصلح لهم»^(٨). وأشاد ابن فضل الله العمري بساحلها بقوله: «وهي ذات مرسى على البحر الشامي، وهي أول مراسي البلاد الإسلامية بالأندلس... وساحل المَريَّة أجمل السواحل... وبها دارُ صناعةٍ لإنشاء

(١) قطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٨٣.

(٢) معجم البلدان (ج ٥ ص ١١٩). وانظر أيضاً تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس (ص ١٧٨ - ١٧٩).

(٣) المغرب (ج ٢ ص ١٩٣).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) كتاب الجغرافيا ص ١٤٠.

(٦) تقويم البلدان ص ١٧٧.

(٧) الروض المعطار ص ٥٣٧ - ٥٣٨. وانظر أيضاً الحلل السندسية (ج ١ ص ١١٨ - ١١٩).

(٨) فضائل الأندلس وأهلها ص ٥٨، ونفع الطيب (ج ٣ ص ٢١٩ - ٢٢٠).

الحراريق لقتال العدو»^(١) . . ووصف العُذري دار الصناعة قائلاً: «ودار صناعتها القديمة المذكورة قبل هذا قد قُسمت على قسمين؛ فالقسم الواحد فيه المراكب الحربية والآلة والعدة، والقسم الثاني القيسارية»^(٢) ، قد رُتب كلُّ صناعةٍ منها حسب ما يُشكّل لها، قد أُنِمن فيها التُّجار بأموالهم، وقصد إليها الناسُ من أقطارهم»^(٣) .

وفي عهد المعتصم ابن صمّاح، وبالتحديد في بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، بدأت بجّانة تضعف لتصبح تابعة لألمرية . وقد أثبت ، العُذري هذه الحقيقة في قوله : «وخربت مدينة بجّانة بعمارة مدينة ألمرية، وذهب باقي عمارتها في سنة تسع وخمسين وأربعمائة»^(٤) . وأشار كلُّ من ياقوت وآبن فضل الله العمري إلى ذلك، فقال الأول: «خربت وقد أنتقل أهلها إلى ألمرية»^(٥) . وقال الآخر: «وكانت العمارة قبل لبجّانة، فانتقلت إلى الساحل (أي إلى ألمرية) لمنافع الناس»^(٦) . وأورد آبن حيان نصّاً يُفيد أنّ بجّانة كانت قرية في سنة ستين وثلاثمائة / ٩٧٠ م . «وفي عقب رمضان (من سنة ٣٦٠ هـ) ركب صاحب الشرطة العليا . . . رُمّاحس قائد الأسطول من قرية بجّانة . . . ليركب منها إلى البحر الشمالي»^(٧) . وقال الدكتور عبد العزيز سالم: «بازدهار ألمرية وتألقها اضمحلت بجّانة وأصبحت في طليعة القرن الخامس الهجري مجرد قرية، في الوقت الذي ارتفعت ألمرية إلى مصاف الحواضر»^(٨) .

وهكذا ظلّت ألمرية في عهد المعتصم تحتل المركز الأول بين القواعد البحرية في الأندلس، لأنّ هذا الملك كان يُولي عناية تامّة بأسطوله . وهذا ما أكّده آبن خاقان في قوله: «وأشتغل بترميم أساطيله، وتنميق أباطيله . . . ولم يزد على مراعاة أمرٍ

(١) وصف إفريقية والمغرب والأندلس ص ٤٥ - ٤٦ . وانظر أيضاً الحلل السندسية (ج ١ ص ٢٠٢) .
(٢) القيسارية عبارة عن مجموعة مباني عامة، وسوف نتحدث عنها بإسهاب في فصل «منشآت ألمرية المعمارية» ص ١٩١ .

(٣) بصوص عن الأندلس ص ٨٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ٨٧ .

(٥) معجم البلدان (ج ١ ص ٣٣٩) .

(٦) وصف إفريقية والمغرب والأندلس ص ٤٦ .

(٧) المقتبس تحقيق الحجي ص ٢٨ .

(٨) تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس (ص ١٧٩) .

جواريه وقُلُكِهِ»^(١). ولقد وصف ابن الحدّاد الأندلسي أسطول مليكه المعتصم بقوله^(٢) (الخفيف):

هَامَ صَرْفُ الرَّدَى بِهَامِ الْأَعَادِي	أَنْ سَمَتْ نَحْوَهُمْ لَهَا أَجْيَادُ ^(٣)
وَتَرَاءَتْ بِشَرْعِهَا كَعْيُونُ	دَأْبُهَا مِثْلُ خَائِفِيهَا سُهَادُ ^(٤)
ذَاتُ هُذْبٍ مِنَ الْمَجَادِيفِ حَاكِ	هُذْبَ بَاكِ لِذَمْعِهِ إِسْعَادُ ^(٥)
حُمَمٌ فَوْقَهَا مِنَ الْبَيْضِ نَارٌ	كُلُّ مَنْ أُرْسِلَتْ عَلَيْهِ رَمَادُ ^(٦)
وَمِنْ الْخَطِّ فِي يَدَي كُلِّ ذِمَرٍ	أَلْفُ خَطِّهَا عَلَى الْبَحْرِ صَادُ ^(٧)

(١) قلائد العقيان ص ٤٧. والجواري: جمع جارية وهي السفينة. والفلك، بضم الفاء وسكون اللام، السفينة أيضاً، يؤنث ويذكر، وهو للواحد والجمع.

(٢) الأبيات في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ١٨٧ - ١٨٩) والمقتضب من كتاب تحفة القادم ص ١٧٤، وفوات الوفيات (ج ٤ ص ٣٢٠)، ونفع الطيب (ج ٤ ص ٥٦).

(٣) الرَّدَى: الهلاك. والهَامُ: جمع هامة وهي الرأس. وسَمَتْ نحوهم: أي سَمَتْ سفنُ المعتصم بأشرعتها نحو الأعداء. والأجْيَاد: الأعناق، مفردا جَيْدٌ، والمراد أشعة السفن. ومعنى البيت: مَخَرَتْ سفن المعتصم في البحر لغزو الأعداء فكانت طوائر عائمة بين الماء والجو، وكان النصر حليف المعتصم، وكان الهلاك حليف أعاديه؛ لأنَّ الهلاك لا يهيم إلاَّ بهاماتهم، كونهم جبناء ضعفاء.

(٤) بشرعها: أي بشرعها الماء. يقال: شَرَعَتِ الدوابُّ في الماء تَشْرَعُ شَرْعاً إذا دخلت فيه. والسهاد: الأرق، والمراد هنا اليقظة. ويريد الشاعر أن يقول: إنَّ جنود المعتصم، وهم على جوانب السفينة، أيقاظ حَذِرُونَ لأي طارئ، أو إنَّ مَلَاخَ السفينة يَقْظَانُ، حَذِرٌ، يُلازِمُ صَارِيَهُ كما يلازم الرضيع ثُدْيَ أمِّه.

(٥) الهُذْبُ: شَعْرُ أَشْفَارِ الْعَيْنَيْنِ، والجمع أهداب. والمجاذيف: ج مجذاف وهو خشبة في رأسها لَوْحٌ عريضٌ تُدْفَعُ بِهَا السفينة، مشتقٌّ مِنْ جَذَفَ الطائر، ومجذافاً الطائر جناحاه، ومنه سُمِّيَ مجذاف السفينة، ومجذاف السفينة لغة في مجذافها، كلتاها فصيحة. وهنا يجعل لمجاذيف السفن هُذْباً كَهُذْبِ مُحِبٍّ سَالَ دَمْعُهُ لِمَلَاقَاةِ مَحْبُوبِهِ؛ فكما الأهداب تحمي العيون من القذى، فإنَّ المجاذيف تحمي السفن من الأذى.

(٦) الحُمَمُ: الرماد والفحم وكل ما احترق من النار، والواحدة حُمَمَةٌ. والبَيْضُ: ج أبيض وهو السيف. ومعنى البيت: إذا ما أَهْتَرَّتِ السيوفُ بِأَكْفَفِ جُنْدِ المعتصم سَلَّتْ أرواح أعدائه وإنَّ النَّفْطَ الذي كان يُرْمَى به الأعداء حَوَّلَهُمْ إِلَى رَمَادٍ. وهنا إشارة إلى آلات النفط التي كان يتزوّد بها أسطول المعتصم.

(٧) الْخَطُّ: مرفأ السفن بالبحرين، تنسب إليه الرِّمَاح التي تُحْمَلُ من بلاد الهند وتَقُومُ بِالْخَطِّ. لسان العرب ومختار الصحاح، مادة (خَطَط) ومعجم البلدان (ج ٢ ص ٣٧٨). والذَّمَرُ: الشجاع. والألف كناية عن طول مَتْنِ الرُّمَحِ الذي إذا ما أَسْتَعْمَلَهُ الرامي نفوس وصار أشبه بحرف الصاد

ولقد أُحرقَ معظمُ أسطول المعتصم على يَدَيْ ولده معز الدولة ابن المعتصم . ذكر ابن الخطيب أنَّ معز الدولة، لما وافاه اليقينُ بتغلُّب المرابطين على المعتد ابن عبَّاد وخروجه عن ملكه بإشبيلية، أمرَ رجاله بِثَقْبِ السُّورِ خارج باب موسى، فخرج منه إلى دار الصنعة حيث أَبْحَرَ بمن آخِطَصَ به في قِطْعة، وحمل المال والمتاع في اثنتين وأحرق باقي الأجفان^(١) خشية الاتباع، وَنَزَلَ بالجزائر إلى أن هلك بها^(٢). وقال ابن الأبار وابن الأثير إنَّه قصد بجاية بالجزائر، فأقام فيها تحت رعاية المنصور^(٣) بن الناصر بن علَّاس بن حمَّاد بن بُلُقَيْن بن زيري بن مناد الصُّنهاجي، وفي كنفه، وقيل: أنزله المنصور بِتِنِس^(٤) من أعماله الغربيَّة^(٥). وذكر ابن الخطيب أنَّ المنصور أنزله بِتَدْلَس ونظرها^(٦). وأورد ابن الكَرْدَبُوس نصًّا مُفادُهُ أنَّ معز الدولة، لَمَّا وَجَّهَ ابْنُ تاشفين جيشاً إلى المَرِيَّة، فرَّ منها في قطعة بحريَّة، وآوى إلى دولة بني حمَّاد، ومَلِكُها إذ ذاك المنصورُ بن الناصر، فَقَرَّبَهُ وَأَحْسَنَ إليه، وأَدْنَاهُ حتى كان أَحْطَى مِنْ وَلَدَيْهِ^(٧).

وما إن سقطت المَرِيَّة في أيدي المرابطين حتى شرع هؤلاء في استخدام دار صناعتها لبناء السفن، وصار بحوزتهم أسطول حربي كبير. ولقد ذكر الدكتور سالم أنَّه كان بالمَرِيَّة قسم كبير من أسطول المرابطين بقيادة أمير البحر أبي عبدالله محمد بن

(١) الأجفان: ج جَفْنَة وهي سفينة حربيَّة دائريَّة. وقد تقدم الحديث عنها في الصحيفة ١٣ حاشية ٤.

(٢) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩٢). وانظر أيضاً تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس (ص ٢٠٣).

(٣) كانت وفاة المنصور في شهر ربيع الآخر من سنة ثمانٍ وتسعين وأربعمائة / ١١٠٤ م. أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٩٧).

(٤) تِنِس Tenes: مرسى صغير غربي مدينة الجزائر، أسسه الفينيقيون والقرطاجيون كمستودع تجاري، ثم أقام به الرومان مستعمرة لم تلبث أن خربت على أيدي البربر، ثم أعاد بناءها مهاجرو الأندلس من مرسية وإلييرة. أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ١٥٦ حاشية ٣).

(٥) راجع الحلة السيرة (ج ٢ ص ٩٠)، والكامل في التاريخ (ج ١٠ ص ١٩٢ - ١٩٣).

(٦) أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٩٧). وتَدْلَس، بفتح التاء والذال واللام المشددة، مدينة بالجزائر على ساحل البحر المتوسط، كانت تابعة للدولة بني حمَّاد، وصارت بفضل الجالية الأندلسيَّة المهاجرة إليها مركزاً حضرياً مزدهراً. المصدر نفسه ص ٩٧ - ٩٨ حاشية ١.

(٧) تاريخ الأندلس ص ١٠٥.

ميمون، وأنَّ أسطول الأندلس تضخَّم في فترة الموحدين بسفنه المتعدّدة كالطرائد، والشواني، والأغربة^(١).

وفي عصر بني نصر بغرناطة استمرَّت دارُ الصناعة بالمرية بنشاط في إنتاج السفن والأجفان الحربية. وقد شاهد ابن الخطيب بأمّ عينه ازدهام مرسى المرية بالسفن أثناء استقبالها لسلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف بن نصر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة / ١٣٤٧ م، فقال يصف ذلك: «وطلّعت في سماء البحر أهلة

(١) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ٥٠ - ٥١، ٨٩. والطرائد: ج طريدة وطراد وطرادة وتريدة، وهي سفن صغيرة سريعة السير والجري، كانت تستعمل في نقل الخيول والفرسان، وقيل: كانت تصلح لنقل الناس مع أمتعتهم، مع احتمال أن تنقلب إلى نوع من المراكب الحربية المقاتلة وقت الحاجة، وقيل: الطريدة سفينة القائد الإسلامي في الأسطول الحربي في المغرب والأندلس، وكانت تمتاز برايتها البيضاء. وهذا الضرب من السفن عرّفته الأندلس والمغرب معاً، كما استعملته إسبانيا في العصور الوسطى وسمّته Taridas. وفي العصر الحديث تغير مدلول هذا النوع من السفن، فأصبح يعني نوعاً من السفن الحربية التي أشتمل عليها الأسطول العثماني في البحر المتوسط. السفن الإسلامية على حروف المعجم ص ٨٩ - ٩١، وتاج العروس (طرد). والشواني: ج الشيني والشاني والشينية والشونة، وهي سفن حربية كبيرة معدة للجهاد، كانت من أهم القطع الكبيرة التي كان يتكوّن منها الأسطول في الدول الإسلامية، وكانت توصف بشواني الغزو أو الشواني الغزوانية، وكانت تقام فيها الأبراج والقلاع للدفاع والهجوم. ولعظمها كانت تحتوي على أهراء لحزن القمح، وصهاريج لحزن الماء الحلو. وكانوا يرمون النار والنفط على العدو على حدّ قول ابن حمديس من قصيدة في مدح أبي يحيى الحسن بن علي بن يحيى (المتدارك):

أَنشأت شَوَانِي طَائِرَةً	وَبَنَيْتَ عَلَى مَاءٍ مُدُنًا
بِبُرُوجٍ قَتَالَ تَحْسِبُهَا	فِي شَمِّ شَوَاهِقِهَا قُنُنًا
تَرْمِي بِبُرُوجٍ، إِنَّ ظَهْرَتْ	لَعَدُوَّ مُحْرَقَةً، بَطْنًا
وَيَنْفُطُ أَبْيَضُ تَحْسَبُهُ	مَاءٌ وَبِهِ تُذَكِّي السُّكُنَا

وظل هذا النوع من السفن معروفاً في الملاحة حتى أيام العثمانيين، ثم انتهى أمره في أوائل القرن السابع عشر الميلادي. السفن الإسلامية لدرويش النخيلي ص ٨٣ - ٨٥، وديوان ابن حمديس ص ٥١٣، وتاريخ ابن خلدون (م ١ ص ٤٤٩ حاشية ١). والأغربة: جمع غراب وهو من المراكب الحربية شديدة البأس، صغير الحجم، يتكوّن من طبقة واحدة، وله صار أو صاريان، ويستعمل عادة في الأغراض العاجلة لسرعته. استعمله المسلمون في المشرق والمغرب، كما استعمله قراصنة الفرنج، في الغارة والغزو عن طريق البحر. واستعمل في فترة الموحدين بمعنى جفن. وربما استعمل في نقل البضائع. واستمر استعماله كأحد القطع الحربية حتى زمن العثمانيين. السفن الإسلامية ص ١٠٤ - ١١٢، وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ١٢٣ حاشية ٤.

الشواني، كأنها حواجب الغواني، حالكة الأديم، متسرلة بالليل البهيم، تتزاحم وفودها على الشط، كما تتدخل النونات في الخط، فيا له من منظر بديع الجمال! أخذ بعنان الكمال، بكر الزمان، وآية من آيات الرحمن، حتى إذا هالة القبة استدارت، وبالقمر السعد من وجه السلطان، أيده الله، أنارت، مثلوا فسلموا، وطافوا بركن مقامه وأستلموا»^(١). ثم وصف مدينة ألمرية بقوله: «ألمرية هنية مريّة، بحرّية بريّة، أصيلة سريّة، معقل الشموخ والإباحة، ومعدن المال وعنصر الجباية، وحبوة الأسطول (أي قاعدته)، غير المعلل بالنصر ولا الممطول، ومحطّ التجار، وكرم النجار... بحرّها مرفأ السفن الكبار»^(٢).

وذكر الدكتور سالم أن ألمرية أصبحت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين أهمّ ثغور مملكة غرناطة بعد مدينة مالقة، بحيث لم يبق من هذه الثغور سوى ألمرية والمنكّب، ومالقة، وطريف، والجزيرة الخضراء، وجبل طارق^(٣).

٣ - بناء مدينة ألمرية:

لم تكن ألمرية مدينة قائمة في بلاد الأندلس عندما أفتتحها العرب المسلمون، بل هي من المدن التي استجدثوها بعد الفتح على حدّ قول ابن حوقل: «وجميع مدنها (أي مدن الأندلس) قديمة أزلية لم يحدث بها في الإسلام غير مدينة بجّانة وهي ألمرية، هي على حدود رُستاق لبيرة»^(٤). وذكر الجُميري أن عبد الرحمن الناصر^(٥) (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م) هو الذي أمر ببنائها في سنة أربع وأربعين

(١) مشاهدات لسان الدين ص ٤٤. وأنظر أيضاً تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ٥٢.

(٢) مشاهدات لسان الدين ص ٨٢-٨٣.

(٣) تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٠٢.

(٤) صورة الأرض ص ١٠٥. ولييرة هنا هي لبيرة.

(٥) هو الذي قال هذه الأبيات ردّاً على قاضيه منذرين سعيد، الذي ظلّ يعظّمه ويُقرّعه لإسرافه في البناء (الكامل):

هَمُّ الْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا	مِنْ بَعْدِهِمْ فَيَأْلُسُنِ الْبُنْيَانِ
أَوْ مَا تَرَى الْهَرَمَيْنِ قَدْ بَقِيََا وَكَمْ	مَلِكٍ مَحَاهُ حَادِثُ الْأَزْمَانِ
إِنَّ الْبِنَاءَ إِذَا نَعَاظَمَ شَأْنَهُ	أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ

المغرب (ج ١ ص ١٧٩ - ١٨٠) ونفح الطيب (ج ١ ص ٥٧٥).

وثلاثماية^(١) / ٩٥٥ م. وفي نصّ العذري «وعليها سُورٌ»^(٢) صَخْرٍ منيعٌ بناه الناصرُ أمير المؤمنين عبد الرحمن سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة»^(٣)، تأويلان؛ إمّا أن يكون الناصر قد شرع في بناء السُّور قبل بناء المدينة نفسها، أو أنّه شرع في السنة المذكورة في بناء المدينة والسور معاً، وفي التأويل الثاني مخالفة لما جاء به الحميري. وإذا كان الحميري قد حدّد تاريخ بناء المريّة، فإنّه في قوله: «وعليها سورٌ حصينٌ منيعٌ بناه أمير المؤمنين عبد الرحمن»^(٤)، لم يحدّد تاريخ بناء السور وأعتد كريسّيان اورت لأمير الحميري في تحديده تاريخ تسوير المريّة، بقوله: «في سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م سور مدد الرحمن الثالث مدينة المريّة، وكانت آنذاك بمثابة ربض لمدينة بجّانة»^(٥).

وقبل بناء المريّة كان العرب المسلمون قد آتخذوا من موقعها القديم رباطاً للجهاد ينتجعونه ويرابطون فيه، وأصبح هذا الموقع مَرَأًى ومَحْرَساً بحريّاً لمدينة بجّانة^(٦) القريبة منها، وسمّي بمريّة بجّانة. وأصبحت مريّة بجّانة فرضة بجّانة، على

(١) الروض المعطار ص ٥٣٧.

(٢) ذكر المستشرق الإسباني بلّباس أنّه لم يتبقّ من هذا السور سوى المطلاع الذي يبدأ من البرج الأسطواني الكبير القائم في طرف القصبة الغربي، وينتهي ببرج مربع الشكل له غرفة عليا. وكان هذا السور الغربي يمتدّ من الطرف الغربي لقلعة القصبة باتجاه الجنوب، متبعاً خط سير وادي الرملة (لاشككا) La Chanca حتى يلتقي بسور المدينة القبلي. Almeria Islámica, p. 430. وانظر أيضاً تاريخ مدينة المريّة الإسلامية ص ١٤٢.

(٣) نصوص عن الأندلس ص ٨٦.

(٤) الروض المعطار ص ٥٣٧ - ٥٣٨.

(٥) El mihrāb de la mezquita mayor de Almeria, en Al-Andalus, XXXVI, p.393 - 394.

(٦) بجّانة Pechina: مدينة أندلسيّة مُحدّثة، بُنيت في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م) مكان قرية قديمة على هيئة مدينة قرطبة. وكان قوم من أوباش الأندلس، سَمّوا بالبحريين، قد بنوها. وهي من أعمال المريّة، وقيل: تتبع لكورة البيرة. وتبعد عن المريّة خمسة أميال وسدس الميل، وقيل ستة أميال، وتقع في سهل منبسط شمالي المريّة، على الضفة اليسرى لنهر أندرش Andarax، الذي كان يعرف بوادي بجّانة ويعمّ بالسقيّ بساتين المريّة. ولقد أمتدّ عمرانها، وطار صيتها، وظلت كرسى مملكة المريّة، ثم خربت بعمارة مدينة المريّة، وذهب باقي عمارتها في سنة تسع وخمسين وأربعمائة / ١٠٦٦ م. راجع معجم البلدان (ج ١ ص ٣٣٩)، ونصوص عن الأندلس ص ٨٦ - ٨٧ والروض المعطار ص ٧٩ - ٨٠، ٥٣٨، والمغرب (ج ٢ ص ١٨٩ - ١٩٠)، ومشاهدات لسان الدين ص ٤٧، وتقويم البلدان ص ١٧٧، ووصف إفريقية والمغرب والأندلس ص ٤٦، والمسالك والممالك للإصطخري ص ٣٥، ونفع الطيب (ج ٤ ص ١٧٠)، وقطعة من كتاب =

حدّ قول ابن حوقل: ومن قرطبة إلى ألمرية فرضة بجّانة سبعة أيام^(١)، ثم تحوّلت إلى ألمرية بعد أن تمصّرت^(٢). ولذلك يرى الدكتور عبد العزيز سالم أن أسم ألمرية مشتق من كلمة رأى: «وأسم ألمرية مشتق من وظيفتها أو من الغرض الذي أقيمت من أجله، إذ كانت تتخذ في الأصل مرأى بحرياً لمدينة بجّانة»^(٣). وذهب الأستاذ محمد عبدالله عنان إلى أن أسمها مشتق من كلمتين عربيتين هما: «مرآة البحر»^(٤). ويرى ياقوت أن أسمها يجوز أن يكون اشتق من فعل مرى: «ألمرية، بالفتح ثم الكسر، وتشديد الياء بنقطتين من تحتها، ويجوز أن يكون من مرى الدّم يمرى إذا جرى، والمرأة مرئية، ويجوز أن يكون من الشيء المرى فحذفوا الهمزة»^(٥).

وقد تحدّث جغرافيو الأندلس عن موقع ألمرية الجهادي قبل بنائها، فقال العذري: «وليست بأولى ألمرية العمارة، وإنّا آخذها العرب رباطاً، وأبتنت فيها محارس، وكان الناس ينتجعونها ويرابطون فيها، ولا عمارة فيها يومئذ ولا سكّنى»^(٦). وقال الحميري: «وكان المجوس^(٧) لما قدموا ألمرية وتطوفوا بساحل الأندلس

= فرحة الأنفس ص ٢٨٣، وتاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٩، ٢٧ - ٢٨، ٣١ - ٣٢.

(١) صورة الأرض ص ١١١.

(٢) تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٩، وتاريخ مدينة ألمرية الأندلسية ص ٣٠ - ٣١.

(٣) تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٩.

(٤) الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ص ١٩١.

(٥) معجم البلدان (ج ٥ ص ١١٩).

(٦) نصوص عن الأندلس ص ٨٦.

(٧) المجوس هم القراصنة النورمان، وقد ورد ذكرهم في المراجع العربية بأسم الأرذمانيين أو المحوس، وهم من أصل جرمانى، ويعرفون في اللغة الإسبانية بـ Normandes وفي الإنكليزية بـ Vikings والتسمية الأولى (Normandes) تعني سكان الشمال، نسبة إلى المنطقة الفرنسية المعروفة بأسم Normandie الواقعة غرب باريس، وكانوا قد دخلوها في نهاية القرن التاسع الميلادي. والتسمية الثانية (Vikings) تعني سكان الخلجان وهي مشتقة من الكلمة النرويجية Vik التي تعني ساكن الخليج، ثم أطلقت كلمة Vikings على سكان شبه الجزيرة الإسكندنافية (السويد والنرويج والدانمرك) سُموا بالمجوس لأنهم عندما غروا الأندلس راحوا يشعلون النار في كل مكان حلّوا فيه، فظنّ العرب أنهم يعدّون النار كالزرادشتية والنورمان الدانماركيون هم الذين كانوا يهاجمون سواحل المسلمين في الأندلس والمغرب وسواحل فرنسا وانكلترا. وقد تحدّث المؤرخون عن نزولهم بسواحل الأندلس أيام الأمير عبدالرحمن الثاني في عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م، وقيل: ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م. كما تحدّثوا عن هجومهم الثاني على العدو المغربي وسواحل الأندلس الغربية والشرقية أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن الثاني =

والعدوة، فأتخذها العرب مرابطاً وأبتنت بها محارس، وكان الناس ينتجعونها ويرابطون فيها»^(١).

ومنذ تأسيسها بدأ عمرانها يتسع على حساب جارتها بجّانة، فبنى فيها عبدالرحمن الناصر القصبة التي نسبت فيما بعد إلى خيران العامري عندما ولّاه عليها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر^(٢). وأغلب الظن أنها نسبت إلى خيران لإقدامه

= في سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م، وقيل: ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م. والهجوم الثاني هو الذي عني به الجُميري هنا. وباتصالهم بالفرنسيين تخلّوا عن ديانتهم الخاصّة، واعتنقوا الديانة المسيحيّة، واستبدلوا لغتهم بلغة الفرنسيين، وآتبوا الحياة الفرنسية. وفي القرن الحادي عشر الميلادي استطاعوا أن يشكّلوا إمبراطورية نورماندية في صقلية التي أخذوها من المسلمين، وفي جنوب إيطاليا، وإنكلترا، كانت من أقوى الممالك الأوروبية آنذاك. وعن طريق أنصهار شعوب تلك الإمبراطورية قامت حضارة من الفن والمعمار ما تزال نماذجها قائمة في جزيرة صقلية حتى يومنا هذا. راجع المقتبس تحقيق د. مكي ص ٣٠٧ - ٣٠٩ والحاشية رقم ٤٩٦ ص ٥٩٦، والمقتبس تحقيق الحجي ص ٢٣ و ٢٤٩ وما يليها (تعلق على صفحة ٢٣)، وتاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٣، والمغرب (ج ١ ص ٤٩)، والبيان المغرب (ج ٢ ص ٨٧، ٩٦ - ٩٧، ٢٤١)، والكامل في التاريخ (ج ١ ص ١٦)، والحلل الموشية ص ٥٤، وفي التاريخ العباسي والأندلسي ص ٣٤٨ - ٣٤٩، وتاريخ مدينة ألمرية الأندلسية ص ٥٠ - ٥١ حاشية ٥ و. Histoire de l'Espagne Musulmane, T. 1. p. 310 - 312. وموسوعة المعرفة (م ١ ص ٤٢ - ٤٣).

- (١) الروض المعطار ص ٥٣٧. وانظر أيضاً مقدمة ديوان ابن خاتمة الأنصاري ص ٢٩.
- (٢) تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ٣٢ - ٦٠. والحاجب المنصور هو أبو عامر محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبدالملك المعافري. أصله من الجزيرة الخضراء، قدم قرطبة شاباً فطلب بها العلم والأدب وتمهّر فيهما. كانت له همّة لم تزل ترتقي من شيء إلى شيء إلى أن اعتنت به صبح أم هشام المؤيد، فصارت له الحجابة. ولمّا توفي الحكم المستنصر وقلّد أبنته هشام الخلافة وهو صغير، ضمن ابن أبي عامر لصبح الاستقرار لابنها، فصار صاحب التدبير والتغلب على جميع الأمور بالأندلس، وصار الخليفة هشام لا يحل من الأمر غير الاسم. وكان أبو عامر غزّاء لأرض الروم؛ غزا بلادهم ستاً وخمسين غزاة لم ينهزم له فيها جيش فلّقب بالمنصور. اقتحم أرض جليقية وقشتالة وهو عليل، فقويت هنالك علته، فحمل على سرير خشب، فوصل إلى مدينة سالم حيث توفي، وكان ذلك في سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م، فدامت دولته ستاً وعشرين سنة. راجع جذوه المقتبس ص ٧٨ - ٧٩، ويغية الملمتس ص ١١٥ - ١١٧، والحلة السيرة (ج ١ ص ٢٦٨ - ٢٧٧)، والمغرب (ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٣)، والبيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥٦ - ٢٦١)، والأعلام (ج ٦ ص ٢٢٦). أما خيران العامري، فقد كان مولى المنصور بن أبي عامر، وأنتهت إليه الشهرة بعد أنقراض الدولة العامرية، وكان من خيرة الموالى العامرية، وممن تخرّج في الفتنة التي وقعت بقرطبة وعرفت بالفتنة البربرية. حكم مدينة ألمرية وأعمالها فدثر أمرها إلى أن هلك فيها سنة

آنذاك على تحصينها بالأسوار المنيعة التي ما تزال قائمة حتى يومنا هذا»^(١). وقد أشار ابن الخطيب والمقري إلى ذلك، فقال الأول: «وَعَوَّلَ (أي خيران) على المَرِيَّة فأحسن ضَبْطَهَا وَحَصَّنَ قَصْبَتَهَا»^(٢). وقال الثاني: «ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران، بناها عبدالرحمن الناصر، وعظمت في دولة المنصور بن أبي عامر، وولَّى عليها خيران، فنسبت القلعة إليه»^(٣). وقول ابن سعيد الأندلسي، نقلاً عن «مُشْهَب» الحِجَارِي: «وبنى فيها خيران العامريُّ قلعة العظيمة المنسوبة إليه»^(٤)، فيه نظر؛ لأنَّ خيران عندما دخل المَرِيَّة كانت قصبتها قائمة البنيان، بدليل أنَّه أنتزعها من أفْلَح الصَّقْلِي العامري الذي كان قد تحصَّن فيها^(٥). كذلك لا يمكننا أنْ نطمئنَّ إلى قول الأستاذ عنان: وترجع هذه القصة إلى بداية عهد الطوائف، وينسب إنشاؤها إلى خيران الفتى العامري، ولذا كانت تُسمَّى قلعة خيران^(٦)؛ لأنَّ هذا القول يعتريه غموض وعدم دقَّة في تعيين بانيها الحقيقي.

وأتَّخذت مدينة المَرِيَّة شكل مستطيل بلغ طوله حوالي خمسمائة وستين متراً، وبلغ عرضه حوالي ثلاثمائة وخمسين متراً، وكانت تمتدُّ ما بين القلعة المنسوبة إلى خيران العامري شمالاً والساحل جنوباً، وكان يحدها من الشرق والغرب واديان ضحلان، وأقيم في وسطها المسجد الجامع الذي توزَّعتْ حول ساحته الأسواق والحمامات والفنادق، وفي جنوبها القَيْسَارِيَّة، وفي جنوبها الشرقي دار الصناعة^(٧).

= ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م فكانت مدة ولايته بها أربع عشرة سنة. انظر المغرب (ج ٢ ص ١٩٤)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٠ - ٢١٥)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٦)، والكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٦٩، ٢٩١)، والصقالب في إسبانيا ص ١٧ - ١٨.

(١) تاريخ مدينة المَرِيَّة الإسلامية ص ١٢١ - ١٢٢.

(٢) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١١).

(٣) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٢).

(٤) المغرب (ج ٢ ص ١٩٣).

(٥) راجع نصوص عن الأندلس ص ٨٢ - ٨٣، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١١). وسيرد الحديث عن أفْلَح العامري في الصفحة ٢٩ من هذا البحث تحت عنوان: «المَرِيَّة مملكة مستقلة»، فأبطلها.

(٦) الآثار الأندلسية ص ١٩٢.

(٧) انظر تاريخ مدينة المَرِيَّة الإسلامية ص ١١٠، ١١٦، وتاريخ مدينة المَرِيَّة الأندلسية ص ١٦٩، و Almeria

. Islámica, p.430 - 436

٤ - ألمرية حاضرة المملكة :

تبوّأت ألمرية مركز العاصمة منذ سنة خمس وأربعمائة للهجرة / ١٠١٤ م على يد خيران العامري . ومنذ بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي والوفود ترد إليها من مدن الأندلس ، ولا سيما من قرطبة التي طحتها الفتنة البربرية ، ومن بجّانة التي بدأت تخرب بعمارة ألمرية . ومن بين الذين لجأوا من قرطبة الفقيه الأديب أبو محمد علي بن حزم ، وذلك في أول المحرم من سنة أربع وأربعمائة / ١٠١٣ م^(١) . وقد ذكر لنا هذا الأديب خبر لجوئه إلى ألمرية بقوله : «أَلَقْتُ الْفِتْنَةَ جِرَانَهَا ، وَأَرْخَتُ عَزَالِيَهَا ، وَوَقَعَ آتِنَاهُ جُنْدِ الْبَرْبَرِ مَنَازِلَنَا فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ بِقَرْطَبَةِ وَنَزَلَهُمْ فِيهَا . . . وَتَقَلَّبْتُ بِي الْأُمُورُ إِلَى الْخُرُوجِ عَنْ قَرْطَبَةِ وَسُكْنَى مَدِينَةِ الْمَرْيَةِ»^(٢) . وأشار العذري إلى انتقال أهل بجّانة إلى ألمرية في بداية القرن الخامس الهجري ، فقال : «وَأَنْتَقَلَ أَهْلُ بَجَّانَةَ إِلَى الْمَرْيَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِمِائَةَ»^(٣) . وبدوره يشير الحميري إلى هذا الأمر بقوله : «وَكَانَتْ بَجَّانَةُ فِي الْقَدِيمِ هِيَ الْمَدِينَةُ الْمَشْهُورَةُ قَبْلَ الْمَرْيَةِ ، فَأَنْتَقَلَ أَهْلُهَا إِلَى الْمَرْيَةِ فَعَمُرَتْ ، وَخَرِبَتْ بَجَّانَةُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا آثَارُ بَنِيَانِهَا ، وَمَسْجِدُ جَامِعِهَا قَائِمٌ بِذَاتِهِ»^(٤) . ويقول شيخ الربوة : «وَلَمَّا خَرِبَتْ بَجَّانَةَ انْتَقَلَ أَهْلُهَا إِلَى الْمَرْيَةِ»^(٥) .

وهكذا اختار هؤلاء القادمون ألمرية ملجأ لهم ؛ لأنّهم وجدوا فيها حياة هادئة لا تتوفّر في غيرها من مدن الأندلس . ولضيقتها عن الاتّساع لهذه الوفود كان من الطبيعي أن تتكوّن بُؤْرَاتٌ عمرانيّة على جانبيّتها الشرقي والغربي فيما وراء أسوارها ؛ إذ كان من المستحيل أن يمتدّ العمران لجهة الشمال لاعتراض جبل القصبة ، أو لجهة الجنوب لوجود البحر ، فأمتدّ العمران فيها شرقاً بامتداد فحصبها الفسيح وهو سهل ساحلي ، وغرباً في المناطق الواقعة بين وادي الرملة الذي يعرف اليوم بأسم «رملة لاشانكا» ، وبين جبل الكنيسة ، ليتكوّن بالتالي ربّضاً ألمرية الشرقي والغربي^(٦) .

(١) رسائل ابن حزم (ج ١ ص ٣٨) .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٠ - ٢٦١ ، وطرق الحمامة ص ٢٦١ .

(٣) نصوص عن الأندلس ص ٨٢ .

(٤) الروض المعطار ص ٨٠ .

(٥) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (ص ٢٤٣) .

(٦) انظر تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١١١ .

٥ - أعمالها :

تنحصر أعمال المريّة ببجّانة، وبرّجة، ودلّاية، وشنش، وطبرنش، وأندرش، ومرشان، ودوجر.

وبجّانة Pechina مدينة أندلسيّة مُحدّثة، بُنيت في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م) مكان قرية قديمة على هيئة مدينة قرطبة^(١). وقد جعلها ابن غالب تابعة لكورة البيرة^(٢).

وتقع مدينة برّجة إلى الجنوب الغربي من مدينة المريّة، على نهر بهيج يعرف بوادي عذراء، وكانت الجنّات تحديق بها^(٣).

ودلّاية Dalias بلدٌ ساحلي قريب من المريّة، وقيل: قرية^(٤). وجعلها أبو عبيد البكري تابعة لإقليم البُشرة^(٥) Alpujarras. وكانت برجة ودلاية عبارة عن مُتَنَزَّهَيْن يقصدهما المعتصم ابن صمّاح ويُقيم فيهما أياماً للراحة والهدوء، بعيداً عن صخب العاصمة وشؤون الحكم فيها. ولقد وصفهما ابن خاقان في ترجمته للمعتصم بقوله: «وخرج (أي المعتصم) إلى برّجة ودلّاية وهما نظران لم يُجل في مثلهما ناظر، ولم تدع حُسْنُهُما الخدود النواضر، غصون تُشّيه الرياح، ومياه لها أنسيّاح، وحدائق تهدي الأرج والعرف، ومنازل تُبهج النَّفس وتُمَتِّع الطَّرْف، فأقام فيها أياماً يتدرّج في مسارحها، ويتصرّف في منازلها ومسايحها، وكانت نزهة أربّت على نزهة هشام^(٦)

(١) سبق وتحدّثنا عن بجّانة ص ٢٠ حاشية ٦.

(٢) قطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٨٤.

(٣) انظر المغرب (ج ٢ ص ٢٢٨)، وقلائد العقيان ص ٥١، ومشاهدات لسان الدين ص ٨١-٨٢، ونفح الطيب (ج ١ ص ١٥٠-١٥١) وتاريخ المريّة الإسلامية ص ٤١.

(٤) راجع معجم البلدان (ج ٢ ص ٤٦٠)، والروض المعطار ص ٢٣٦، ومشاهدات لسان الدين ص ٨٢، والإحاطة بتحقيق عنان (ج ١ ص ٩٨)، وقطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٣٠٨، وقلائد العقيان ص ٥١، ونفح الطيب (ج ١ ص ١٤٠-١٤١).

(٥) جغرافية الأندلس ص ١٢٤-١٢٥.

(٦) هو الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك باني الرصافة على أربعة فراسخ من الرقة غرباً، وهي غـ. رُصَافَتِي بغداد والبصرة، وكان يسكنها صيفاً، وتوفي فيها سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م. انظر الكامل في التاريخ (ج ٥ ص ٢٦١)، والأعلام (ج ٨ ص ٨٦).

بدير الرصافة، وأنافت عليها أيّ إنافة»^(١).

أما حصن شنش، فهو على مرحلة من المرية، وله وادٍ يعرف بوادي طبرنش Tabernas^(٢). وطبرنش بلد كبير يقع شرقي المرية^(٣).

وأندرش Andrax مدينة مشهورة بهوائها النقي، وجناتها ذات المناظر الخلابة، ونهرها المنساب، وحصنها المنيع^(٤). وجعلها ياقوت من كورة إلبيرة^(٥). والمدينة غير موجودة الآن، ولكنه لا يزال اسم «أندرش» يطلق على نهر هناك ينبع من جبال شلير Sierra Nevada وينحدر شرقاً وجنوباً ثم يصب في البحر المتوسط عند المرية^(٦). وقد وصف والد ابن سعيد نهرها بقوله (المديد):

خَلَنِي فِي نَهْرٍ أَنْدَرَشٍ كَيْ أُرَوِّي عَنْدَهُ عَطْشِي
مَدَّ مِنْهُ مِغْصَمٌ نَضِرٌ فِي بَسِيطٍ بِالرِّيَاضِ وَشِي
عِنْدَمَا أَبْصَرْتُ بَهْجَتَهُ حِرْتُ مِنْ فِكْرٍ وَمِنْ دَهْشٍ^(٧)

ومرثانة حصن يبعد عن المرية ثمانية عشر ميلاً^(٨). وجعلها ياقوت من أعمال قرمونة^(٩). ودوجر حصن على وادي المرية، بينهما اثنا عشر ميلاً^(١٠).

وقد ذكر أبو الفداء فقط خمسة من أعمال المرية: «ومن أعمالها حصن بجانة على ستة أميال منها، وحصن برشانة، وحصن شنش، ومدينة برجة، ومدينة أندرش»^(١١). وذكر ابن سعيد، ضمن التقسيم الإداري لمملكة المرية، فقط ستة من أعمالها هي: بجانة، وبرجة، وشنش، وأندرش، ومرثانة، ودوجر^(١٢).

(١) قلائد العقيان ص ٥١. كذلك ورد النص في نفح الطيب (ج ١ ص ٦٦٧).

(٢) انظر المغرب (ج ٢ ص ٢٢٥) ونفح الطيب (ج ١ ص ١٦٤). ومعنى طبرنش Tabernas بالإسبانية: حانات وحمارات.

(٣) انظر مشاهدات لسان الدين ص ٨٤، واللحمة البدرية ص ١٩ والحلل السندسية (ج ١ ص ٢٠٤).

(٤) المغرب (ج ٢ ص ٢٣٥)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٩٦)، ومشاهدات لسان الدين ص ٨٨.

(٥) معجم البلدان (ج ١ ص ٢٦٠)

(٦) معجم البلدان (ج ٥ ص ١٠٧).

(٧) مشاهدات لسان الدين ص ٨٨ حاشية ١.

(٨) المغرب (ج ٢ ص ٢٢٧).

(٩) المغرب (ج ٢ ص ٢٣٥).

(١٠) تقويم البلدان ص ١٧٧.

(١١) المصدر نفسه ص ٢٢٣.

(١٢) المغرب (ج ٢ ص ١٨٩).

مملكة ألمرية في عهد استقلالها عن الخلافة

لمحة عامة:

في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة للهجرة / ١٠٣٠ م خلع المعتد هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر، آخر خلفاء بني أمية بالأندلس، فانتشر سيلك الخلافة، وأنحل عقد الجماعة، وأنقطعت الدولة الأموية من الأندلس، وانتزى أصحاب الأطراف والأمراء والرؤساء من العرب والبربر والموالي بالجهات، واقتسموا خطتها، وقامت في كل مدينة دويلة، فتكونت، بذلك ثلاث وعشرون دويلة سميت بدول الطوائف. وهكذا لم تعد الأندلس تخضع لشخص واحد، فاستقل بأمورها ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم، فغدروا ببعضهم البعض، وتغلب بعض على بعض، وأحالوا الأندلس إلى مسرح للتناحر العقيم الذي لم يكن وراءه إلا سفك دماء الرعية وانتهاك الحرم والأموال^(١).

وقد وصف لنا ابن الكردبوس حال ملوك الطوائف بقوله: وخلص الملوك للفنش بن فردلند، وأستبد به، وأستفحل أمره، وأستحكم في المسلمين طمعه... فبدلوا للفنش ما يُحبّه من الأموال ليعينهم على مناوئهم بإنجاد الرجال، واللّعين في أثناء ذلك، لما بينهم من الفتنة، مسرور، وهم مع ذلك مشغولون بشرب الخمر، واقتناء القيان، وركوب المعاصي، وسَماع العيدان، وكل واحدٍ منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرأت من المشرق كي يوجّهها إلى الفنش هدية ليتقرب بها

(١) انظر نفع الطيب (ج ١ ص ٣٠١، ٤٣٨)، والكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٨٤).

إليه . . . وصاروا للفنش عَمَّالاً يَجْبُونُ له الأموال، لا يخالف أَمْرُهُ أَحَدٌ، ولا يتجاوز له أحد»^(١).

ووصفهم الأمير عبدالله آخر ملوك بني زيري بغرناطة بقوله: «فتنافسوا على الدنيا، وطمع كل واحد في الآخر. وكذلك لا يصحُّ أمرٌ بين نفسين، فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة»^(٢).

كما أورد ابن الخطيب نبذةً عن أحوال هؤلاء الملوك بعد خلافهم، وقال: «وآقتسموا المدائن الكبار. . . وانتحلوا الألقاب. . . ومن معتمد، ومُرتضى، ومُوفق، ومُستكف، ومُستظهر، ومُستعين، ومنصور، وناصر، ومُتوكل، كما قال الشاعر (البيط):

مِمَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أُنْدَلُسٍ أَسْمَاءُ مُعْتَصِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدٍ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْقِعِهَا كَالِهَرِّ يَحْكِي أَنْتَفَاخاً صُورَةَ الْأَسَدِ^(٣)»

ويقدم لنا المَقْرِي صورة واضحة عن ملوك الطوائف، وذلك بقوله: «وصار ملوك الطوائف يتباهون في أحوال الملوك، حتى في الألقاب، فآل أمرهم إلى أن تلقبوا بنُعُوت الخلفاء. . . ولأجل توثبهم على النعوت العباسية قال ابن رشيق القيرواني: مِمَّا يُزْهَدُنِي. . . صَوْلَةُ الْأَسَدِ»^(٤)، وهما البيتان المذكوران آنفاً ويضيف: وكان المعتمد ابن عباد، ملك إشبيلية، أعظم هؤلاء الملوك، فَعَلَتْ يَدُهُ عَلَى عبد الله بن بُلُقَيْن الصنهاجي، ملك غرناطة، والمتوكل عمر بن محمد بن الأفطس، ملك بَطْلَيْوُس والمعتصم ابن صمادح، ملك ألمرية، فكانوا يخطبون

(١) تاريخ الأندلس ص ٧٦ - ٧٧.

(٢) مذكرات الأمير عبدالله ص ١٨.

(٣) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤٤). وقد ورد هذان البيتان في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٤٢٨) باختلاف يسير عما هنا، ونسبها ابن خُلِّكان إلى ابن عَمَّار وقال: كانا من أسباب قتله. وأستشهد بهما عبدالواحد المراكشي في المعجب ص ٤٧ بعد أن ذكر أحوال الأندلس بعد انقطاع الدعوة الأموية عنها واقتسام ملوكها ألقاب الخلافة، فنسبهما إلى أبي علي الحسن بن رشيق، ورواهما هكذا:

مِمَّا بُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أُنْدَلُسٍ سَمَاعُ مُقْتَدِرٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالِهَرِّ يَحْكِي أَنْتَفَاخاً صَوْلَةَ الْأَسَدِ

(٤) نفح الطيب (ج ١ ص ٢١٣ - ٢١٤).

سِلْمُهُ، فأصبح مُتَمَلِّكًا أكثر بلاد الأندلس، وكان مع ذلك يُؤدِّي الجزية إلى الأذفونش ملك الفرنج كل سنة، وذهب مذهبه في تأدية الجزى سائر ملوك الطوائف، فأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى قطع إليهم البحر ملكُ العُدوة المغربية يوسف بن تاشفين اللُّمْتُوني، فخلصهم وَفَّتَكَ فيهم، وأَخْلَى منهم الأرض^(١).

١ - المرية مملكة مستقلة:

بانتقال الأندلس من نظام الخلافة إلى نظام المملكة أو الإمارة يُوجِبُ علينا أن نتحدَّثَ عَمَّا صارت عليه المرية في ذلك الوضع السياسي الجديد، فنقول: إنَّ أول من آسَقل بالمرية هو خيران الفتى العامري^(٢) (٤٠٥ - ٤١٩ هـ / ١٠١٤ - ١٠٢٨ م)، ثم صار الأمر بعده إلى صاحبه زهير الفتى العامري (٤١٩ - ٤٢٩ هـ / ١٠٢٨ - ١٠٣٧ م)، ثم ملكها المنصور عبد العزيز بن عبدالرحمن بن المنصور العامري (٤٢٩ - ٤٣٣ هـ / ١٠٣٧ - ١٠٤١ م)، ثم معن بن صمادح (٤٣٣ - ٤٤٣ هـ / ١٠٤١ - ١٠٥١ م) ثم ابنه المعتصم (٤٤٣ - ٤٨٤ هـ / ١٠٥١ - ١٠٩١ م).

وقد روى لنا العُدري خبر آستيلاء خيران العامري على مدينة المرية، فقال: كانت بجانة والمرية وأعمالها بيد ابن صاعد، فولياها بعده عبدالرحمن بن رويش سنة أربعمائة / ١٠٠٩ م، وولياها معه أفلح العبد وشاركه في الولاية. ثم وقع خلاف بينهما فتقاتلا، وأفلح في قصبة المرية، وعبد الرحمن في مدينتها، فهرب عبد الرحمن من المرية ونزل في جامع بجانة، ودخل عليه في مقصورتها، وقُتِلَ هنالك، وآسْتُجِلِبَ رأسه وجثته إلى المرية. ودخل خيران مدينة المرية في المحرم سنة خمس وأربعمائة / ١٠١٤ م وقاتل أفلح وضيق عليه حتى قتله وأخذ القصبة، فتوطدت المرية وأعمالها عندئذٍ لخيران، وقام فيها مقاماً محموداً^(٣). وأضاف: «وزاد في قبلة جامع

(١) نفح الطيب (ج ١ ص ٤٣٨ - ٤٣٩) (ج ٢ ص ٣٥٦ - ٣٥٧). وانظر أيضاً الكامل في التاريخ (ج ١٠ ص ١٤٢)، ومذكرات الأمير عبدالله ص ١٢٤، ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٢٧ - ٢٨).

(٢) كان عدد الفتيان العامريين الكبار في عهد المنصور محمد بن أبي عامر سبعة، وأصبح عددهم في عهد عبد الملك ابن المنصور محمد بن أبي عامر ستة وعشرين فتى، عرفوا جميعاً بالخلفاء، وكان من مشاهيرهم مظفر ومجاهد وخيران وزهير، راجع أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٠٣ - ١٠٤).

(٣) نصوص عن الأندلس ص ٨٢ - ٨٣.

المرية سنة عشر وأربعمائة / ١٠١٩ م زيادة جميلة اتسع بها جامع المرية. وبني خيران الفتى السور الهابط من جبل ليهم إلى البحر، وجعل له أربعة أبواب. وتوفي خيران هذا في جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وأربعمائة^(١).

ويدوره يفصل ابن الخطيب خبر حصول خيران على المرية، فيقول: بعد أن بويع^(٢) المستعين سليمان بن الحكم خليفة على الأندلس دخل قرطبة وحارب المماليك العامريين، إذ كانوا غير راضين بخلافته، فانهزم أميرهم خيران، وفر عن الحاضرة قرطبة، وقصد شرق الأندلس حيث أصحابه ينتزون. ثم استقر بأريولة^(٣) سنة أربع وأربعمائة / ١٠١٣ م، إلى أن استولى على الجهة وتغلب على مرسية^(٤)، ثم صرف وجهه إلى طلب المرية، وكان بها أفلح الصقلي، فتعباً له خيران في جيشه من مرسية غرة المحرم سنة خمس وأربعمائة للهجرة / ١٠١٤ م، فنازله ودخل المرية، وتغلب على قصبتها، فقتل أفلح وولده. وأحسن خيران ضبط المدينة، وحصن قصبتها، وأخذها قاعدة لسلطانه، وأستوسع فيما يليها من الأعمال، وعدل في سيرته، وزفّق برعيته، واجتمع له إلى شجاعة النفس جودة الرأي وحسن التدبير، فوصف بالخليفة الفتى الكبير^(٥). وأضاف: جرت بين خيران وبين من يجاوره من أمراء صنهاجة بغرناطة حروب، فلم يفلوا من صرمة^(٦).

(١) المصدر نفسه ص ٨٣. وستذكر الأبواب الأربعة في الصحيفة ١٣٨ من هذا البحث عند دراسة أبواب المرية.

(٢) بويع خليفة في سنة تسع وتسعين وثلاثمائة للهجرة / ١٠٠٨ م، ودخل قرطبة في السنة التالية.

(٣) أريولة Orihuela: مدينة بشرق الأندلس من كورة تدمير. معجم البلدان (ج ١ ص ١٦٧)، ونصوص عن الأندلس ص ١٦، والآثار الأندلسية ص ١٢٨ - ١٣٠.

(٤) مرسية Murcia: مدينة بشرق الأندلس من كورة تدمير. تقع على نهر كبير، وقد بناها الأمير عبدالرحمن الأوسط سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م، فخلفت تدمير، وأصبحت كورة تدمير تسمى كلها بأسمها، وكانت القاعدة قبلها أريولة. وهي ذات أشجار وحدائق محدقة بها، وكان بها منزل ابن مَرْدَنِيْش Martinez، فأنعمرت في أيامه، حتى صارت قاعدة الأندلس. راجع معجم البلدان (ج ٥ ص ١٠٧)، والروض المعطار ص ٥٣٩، ووفيات الأعيان (ج ٣ ص ٣٣١)، ونفح الطيب (ج ١ ص ١٦٦ حاشية ٣)، وقطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٨٥، والآثار الأندلسية ص ٧٤ - ٧٦.

(٥) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٠ - ٢١٢).

(٦) المصدر نفسه ص ٢١٢.

وأوجز ابن الأثير خبر استيلاء خيران على المريّة بقوله: لَمَّا مَلَكَ سليمان المستعين قرطبة حارب خيران العامري؛ لأنه كان من أصحاب الخليفة هشام المؤيد، فانهزم خيران في جماعة كثيرة من الفتيان العامريين، وجرح عدة جراحات، وترك على أنه ميّت، فلمّا فارقه قام يمشي، فأخذه رجل من البربر إلى داره بقرطبة وعالجه فبرأ، وأعطاه مالاً، وخرج منها سراً إلى شرق الأندلس، فكثر جمعه، وقويت نفسه، وملك المريّة، فغلظ أمره وعظم شأنه^(١).

ثم اعتلّ خيران العامري بالمريّة شهراً إلى أن توفي بها سنة تسع عشرة^(٢) وأربعمائة / ١٠٢٨ م، فكانت مدة ولايته بها أربع عشرة سنة، وصار الأمر إلى أبي القاسم زهير الفتى العامري^(٣).

وكان خيران قد استقدم زهيراً^(٤) العامري، وزهير أمير بمرسية من قبله - ورشحه لمكانه، فتسلّم مقاليد الحكم يوم الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى سنة تسع عشرة وأربعمائة / ١٠٢٨ م، وقام بالأمر أحمد قيام^(٥)، فدامت مدّة عشرة أعوام ونصفاً^(٦)، امتدّت خلالها أطناب مملكته من المريّة إلى قرطبة ونواحيها، وإلى شاطبة وبياسة، وإلى الفج من أول طليطلة^(٧). وذكر ابن الخطيب أن زهيراً ملك قرطبة ودخل قصرها يوم الأحد لخمس بقين من شعبان سنة خمس وعشرين

(١) الكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٦٩).

(٢) قال ابن سعيد نقلاً عن الحجارى: «وتوفّي خيران سنة ثمانى عشرة وأربعمائة / ١٠٢٨ م، وصارت المريّة وجيان لصاحبه زهير العامري» المغرب (ج ٢ ص ١٩٤). وقال ابن الأثير: «وبقي (أي خيران) بها (أي بالمريّة) إلى سنة ثمانى عشرة وتوفي، وقيل: سنة تسع عشرة، وصارت المريّة بعده لصاحبه زهير العامري». الكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٧٨).

(٣) انظر أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٥)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٦) وتاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٤٩).

(٤) خصّص الدكتور أبو الفضل فصلاً عن زهير وخيران في كتابه تاريخ مدينة المريّة الأندلسية ص ٧٧ - ١١٨ بعنوان: «المريّة في عهد خيران وزهير العامريين». وانظر أيضاً ما كتبه عنهما الدكتور سالم في كتابه: تاريخ مدينة المريّة الإسلامية ص ٥٨ - ٧٤.

(٥) وصفه الأمير عبدالله، آخر ملوك بني زيري بغرناطة، بالغباوة والجهل. مذكرات الأمير عبدالله ص ٣٤.

(٦) في البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٦): عشرة أعوام.

(٧) انظر أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٦)، والإحاطة بتحقيق عنان (ج ١ ص ٥١٧ - ٥١٨)، والكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٩١)، ونصوص عن الإندلس ص ٨٣.

وأربعمئة / ١٠٣٣ م، ودام سلطانه عليها خمسة عشر شهراً ونصف الشهر^(١)، وذكر الأمير عبدالله في مذكراته أن الطمع أدرك زهيراً في غرناطة بعد موت أميرها حبّوس بن مأكسّن، فأقى حتى نزل على مقربة منها، بموضع يُعرف بالفونّت، محتقراً لأميرها الجديد باديس بن حبّوس، فكانت الدائرة على زهير، فانهزم وقتل جميع من كان معه من الخصيان، وخفي عن العسكر، فلم يوجد حياً ولا ميتاً، وكانت أول سعادة باديس^(٢). وعلّق ابن سعيد على نتائج هذه المعركة بقوله: «وعظم ملكه (أي ملك باديس) بهزيمة زهير ملك المرية، وقَتْلِهِ واستيلائه على خزائنه»^(٣). وذهب ابن بسام إلى أن مهلك زهير وأصحابه كان «على يدي أحمد بن عباس، وزيره المدبّر لسلطانه، إذ كان في باطنه فاسد الضمير عليه، حريصاً على إيراطه والحصول على المرية مكانه»^(٤). ولقد أوضح ابن عذاري دور هذا الوزير في مهلك أميره زهير فذهب إلى أنه هو الذي أشار على زهير بغزو باديس بغرناطة^(٥).

وخلّد زهير بالمرية آثاراً ذكرها العذري في قوله: «وبنى وزاد في جامع المرية من غربيّه وشرقيّه وجوفيّه بلاطاً من كل ناحية، وعظم المسجد، وحَبَسَ عليه الفنادق والحوانيت التي في قبليّ الجامع وفي شرقه وفي كثير من جوفيّه. وبني السقاية، وجلب الساقية إليها من النّطيّة، وكثر الماء بالمرية. وبني السُّور الذي في ساحل ربض المصلى. وقتل يوم الجمعة في آخر شوال سنة تسع وعشرين وأربعمئة، وأختلف فيمن قَتَلَهُ، ولم يوقف له على حقيقة ذلك»^(٦).

وأتصل خبر موت زهير بأهل المرية، فضبطوا بلدهم، وأسندوا أمرهم إلى شيخهم أبي بكر الرّميمي^(٧)، فضبط المدينة إلى أن كاتب أهلها أبا الحسن

(١) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٦)، والإحاطة تحقيق عنان (ج ١ ص ٥١٨). والجدير بالذكر أن أبا الحزم جهّور بن محمد بن جهور كان قد ملّك قرطبة سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة / ١٠٣٠ م، وهلك فيها في محرّم سنة خمس وثلاثين وأربعمئة / ١٠٤٣ م. تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٣٤٣).

(٢) مذكرات الأمير عبدالله ص ٣٤ - ٣٥. وانظر أيضاً البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٦ - ١٦٧)، وأعمال

الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٦ - ٢١٧)، وتاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٤٩).

(٣) المغرب (ج ٢ ص ١٠٧).

(٤) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٦٦١ - ٦٦٢).

(٥) البيان المغرب (ج ٣ ص ٢٩٣).

(٦) نصوص عن الأندلس ص ٨٣.

(٧) أصل بني الرّميمي من بني أمية حكام الأندلس، نُسبوا إلى رميمّة وهي قرية من أعمال قرطبة. نفح الطيب (ج ٣ ص ٥٣٤).

المنصور^(١) عبد العزيز بن عبدالرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر المعافري، صاحب بلنسية، فلاحق أبو الحسن بالمرية سنة تسع وعشرين وأربعمائة / ١٠٣٧ م، ودخل قصبتها، ووجد بيت مالها مملوءاً ذهباً وجواهر وغير ذلك، فنقل ذلك كله إلى مدينة بلنسية^(٢).

ولما ملك عبدالعزيز المنصور المرية حسده أبو الجيش مجاهد^(٣) بن عبدالله العامري، صاحب دانية Denia والجزائر الشرقية؛ فخرج غازياً بلاد عبد العزيز وهو بالمرية مشغولاً في تركة زهير العامري، فلما سمع عبد العزيز بخروج مجاهد خرج إليه من المرية، وقدم عليها أبنة عبيدالله وسماء الناصر، وأستوزر له صهره ووزيره أبا الأحوص معن بن أبي يحيى^(٤) محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي. وما إن وارى

(١) بايعه الموالي العامريون بشاطبة سنة إحدى عشرة وأربعمائة / ١٠٢٠ م، فاستبد بها، ثم ثار عليه أهل شاطبة فأفلت ولحق ببلنسية فملكها سنة اثنتي عشرة وأربعمائة / ١٠٢١ م. وفوض أمره للموالي العامريين، وطالت مدة ولايته فيها إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة / ١٠٦٠ م. انظر البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٤ - ١٦٥، ٣٠١ - ٣٠٢)، والكامل في التاريخ (ج ٨ ص ٢٨٩)، وأعمال الأعمال (القسم الثاني ص ١٩٤ - ١٩٥)، وتاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٤٨ - ٣٤٩) والحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٤).

(٢) راجع نصوص عن الأندلس ص ٨٤، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٧)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٧، ١٩١)، والذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٦٦٣) وفيه أن عبدالعزيز لحق بالمرية منسلخ ذي القعدة سنة سبع وعشرين وأربعمائة / ١٠٣٥ م.

(٣) مجاهد العامري رومي الأصل، قرطبي المولد، نُسب إلى المنصور بن أبي عامر، وقيل: إلى ولده عبدالرحمن بن المنصور بن أبي عامر. خرج من قرطبة إثر الفتنة البربرية، وانتقل إلى دانية فاستقل بها، ثم استولى على الجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة وبابسة. كان من أهل الشجاعة والأدب والعلم والمعرفة، اجتمع بداره أعلام كبار مثل ابن عبد البر وابن مبيد. دامت إمارته إلى أن توفي سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م، فقام بالأمر بعده ابنه علي بن مجاهد المسمى إقبال الدولة. انظر أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٧ - ٢٢٠)، وجذوة المقتبس ص ٣٥٢ - ٣٥٤، وبغية الملتبس ص ٤٧٢ - ٤٧٣، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٤٥، ١٥٥ - ١٥٦)، والمغرب (ج ٢ ص ٤٠١)، ومعجم البلدان (ج ٢ ص ٤٣٤)، والأعلام (ج ٥ ص ٢٧٨).

(٤) أبو يحيى هو جد المعتصم ابن صمادح، كان والياً على مدينة وشقة Huesca وأعمالها في أيام الخليفة المؤيد هشام بن الحكم الأموي، ثم تخلى عنها لابن عمه منذر بن يحيى التجيبي، ثم كان له بالخليفة سليمان المستعين اتصال فثنى له الوزارة وأمضاه على عمله. راجع التكملة (ج ١ ص ٣٨٢)، والذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٢٩ - ٧٣٠)، والحلة السيرة (ج ٢ ص ٨١)، ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٣٩)، =

عبد العزيز وجهه عن المريّة حتى غدر به معن، وخلع طاعته، ودعا لنفسه أميراً على المريّة في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة / ١٠٤١ م، ومَلَكَهَا، ودانت له لورقة وبياسة وجيآن وغيرها، فتمّ له الأمر واستتب^(١). وكان باديس من مؤيدي ابن صمادح في انقلابه هذا^(٢). وقد ذكر العُدري صفات معن، وملخص ما قاله إنّه كان من أهل الدهاء والفضل والعلم والآداب، محمود السيرة بين الناس بحيث كانوا معه في دعة وسكون، وإنّه سدّ باب البغي وحمل الناس على العدل والإنصاف، وإنّ الرّيع انتهى في أيامه منتهاه^(٣).

وهلك معن في شهر رمضان من سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة للهجرة^(٣) / ١٠٥١ م^(٤). واكتفى أبو الفداء وابن الوردي بالقول: أمّا المريّة، فمَلَكَهَا خيران العامريّ، ثم زهير العامريّ، ثم قُتل زهير وصارت مملكته إلى المنصور عبدالعزيز بن عبدالرحمن المنصور بن أبي عامر، ثم انتقلت حتى صارت للملثمين^(٥).

٢ - المعتصم ابن صمادح يتسلّم حكم المريّة :

بموت معن ينتقل الحكم إلى ولده أبي يحيى محمد بن معن في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة للهجرة^(٦) / ١٠٥١ م. وكان أبوه قد أخذ له البيعة في حياته بعد أن عرضها على أخيه^(٧) أبي عتبة صمادح بن أبي يحيى محمد بن صمادح فأبى

= والوافي بالوفيات (ج ٥ ص ٤٥)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٨٩)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٧٣).

(١) انظر الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٠ - ٧٣١)، ونصوص عن الأندلس (ص ٨٤)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٧، ١٧٤، ١٩٢، ٢٩٣) ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٠) والوافي بالوفيات (ج ٥ ص ٤٥)، والمغرب (ج ٢ ص ١٩٥)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩٠)، والكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٩١).

(٢) دول الطوائف (ص ١٦٢).

(٣) نصوص عن الأندلس ص ٨٤.

(٤) انظر البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٧)، والحلة السراء (ج ٢ ص ٨١).

(٥) المختصر في أخبار البشر (ج ٢ ص ١٤٨) وتتمّة المختصر في أخبار البشر (ج ١ ص ٤٩٩).

(٦) في نصوص عن الأندلس ص ٨٤: ولي المعتصم بالله ذوالرياستين سنة ست وأربعين وأربعمائة / ١٠٥٤ م

(٧) أي أخو محمد بن معن.

قبولها^(١) وأجلسه بنو عمّه التجيبون مكان أبيه وهو ابن أربع عشرة سنة^(٢). فتمّت له الإمارة ولقب نفسه بمعزّ الدولة^(٣). ولما تلقّيت الطوائف بالألقاب السلطانية تلقّب هو بلقبين من ألقابها فلقب نفسه بـ «المعتصم بالله» و«الواثق بفضل الله» - وهما لقبان من ألقاب خلفاء بني العباس - مناعاً لصاحب إشبيلية عبّاد بن محمد لما تلقّب بـ «المعتضد بالله»^(٤). وقيل: لقب بالرشيد^(٥). وقيل: لقب، وهو في الصّبأ، بسراج الدولة، وقد أشار ابن الحدّاد إلى هذا اللقب في قوله (الكامل):

واصل أخاك وإن أتاك بمنكر فخلوص شيء قلما يتمكّن
ولكل شيء آفة موجودة إن السراج على سناه يدخن^(٦)

وقد علّق المقرّي على هذين البيتين بقوله: «وأنشد أحد الأدباء هذين البيتين متمثلاً، فأعجباً المعتصم، وسأل عن قائلهما، فأخبر، فتبسّم وقال: أتعرف إلى من أشار بهذا المعنى؟ قال: ما أعرف إلا أنه مليح، فقال المعتصم: كنت في الصّبأ، وهو (ابن الحدّاد) معي، ألقّب بسراج الدولة، فقاتله الله ما أشعره! فسلوه، فلما باحثوه في ذلك أقرّ بحسن حدّس المعتصم. وأكتفته سعايات، وكان ممن يغلب لسانه على عقله، ففرّ من المريّة»^(٧).

٣ - سياسة المعتصم الخارجية وعلاقاته بملوك الطوائف:

أقام المعتصم ملكاً بمدينة المريّة وأعمالها مدّة تزيد على الأربعين سنة قطعها في حروبه مع جيرانه ملوك الطوائف الأندلسيين. فبدل أن يذكي نار الحرب مع

(١) انظر الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨١) والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٧).

(٢) في الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨١): أجلسه بنو عمّه وهو لم يستكمل ثمانين سنة.

(٣) انظر المغرب (ج ٢ ص ١٩٦) والكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٩١ - ٢٩٢)، والحلة السيرة (ج ٢ ص ٨١)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٧ - ١٦٨).

(٤) الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨١)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٨)، وتاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح ص ٩٨.

(٥) انظر أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩٠)، والذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣١)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ٥٠٤).

(٦) ديوان ابن الحدّاد الأندلسي (ص ٢٥٩).

(٧) نفح الطيب (ج ٣ ص ٥٠٤).

الملوك الإسبان الذين كانوا يهددون ممالك الأندلس بالسقوط، أذكاهما مع خاله المنصور عبدالعزيز بن أبي عامر^(١)، صاحب بلنسية ومرسية، وأبن خاله عبد الملك ابن المنصور عبدالعزيز بن أبي عامر^(٢)، صاحب بلنسية بعد أبيه المنصور، وباديس بن حبّوس بن زيري الصنهاجي البربري^(٣)، صاحب غرناطة، وعبد الله بن بلقين بن باديس بن حبّوس بن زيري الصنهاجي البربري^(٤)، صاحب غرناطة بعد جدّه باديس، والمعتمد ابن عباد^(٥) صاحب إشبيلية.

وكان سبب حروبه مع خاله المنصور هو حقد هذا الأخير على معن بن صمادح وأبنه المعتصم لانتزاعهما منه حكم ألمرية، فكان أن قدّم المنصورُ العونَ العسكريّ لابن شبيب الذي ثار على المعتصم بهدف الاستقلال بمدينة لورقة عن مملكة ألمرية^(٦).

وبالنسبة إلى حروبه مع ابن خاله عبد الملك، فإنّها تعود إلى الحقد الدفين الذي آكسبه الرجلان من والديهما اللذين تحاربا مدة، وإلى طمع المعتصم بأحد حصون تدمير^(٧)، التابع لمملكة مرسية. لذلك أقدم المعتصم على غزو حصن من

(١) ملك المنصور بلنسية من سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م حتى سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م. البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٤ - ١٦٥) والأعلام (ج ٤ ص ١٨ - ١٩).

(٢) تولّى عبد الملك حكم بلنسية بعد وفاة أبيه عبد العزيز من سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م حتى سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م. البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٥، ٢٦٦، ٣٠٣).

(٣) ولي باديس حكم غرناطة بعد أبيه من سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م حتى سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م. البيان المغرب (ج ٣ ص ١٩١) والأعلام (ج ١ ص ٤٠).

(٤) تولّى عبد الله بن بلقين غرناطة بعد جدّه باديس من سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م حتى سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م. الأعلام (ج ٤ ص ٧٥).

(٥) حكم المعتمد إشبيلية بعد أبيه المعتضد من سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م حتى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م. الأعلام (ج ٦ ص ١٨١).

(٦) انظر تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٥٠).

(٧) تدمير Todmir: كورة من كور الأندلس الشرقية، وقاعدتها مدينة لورقة، ولورقة باللطينية (اللاتينية) تعني الدرع الحصين. سميت كذلك نسبة إلى صاحبها القوطي تدمير Teodomir ابن غندرس، الذي صالح، والي الأندلس عبدالعزيز بن موسى بن نصير سنة ٩٤ هـ / ٧١٢ م، وكان اسمها أريولة Orihuela وتسمى أيضاً «البستان» لكثرة حنّاتها المحيطة بها. كما تسمى «مصر» لكثرة تسبها بها، إذ كان لها أرض يسبح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة، ثم ينضب عنها، فتزرع كما تزرع أرض مصر. تقع شرقي قرطبة، وتتصل بأحواز كورة جيّان، وفيها معادن كثيرة ولا سيما الفضة منها، ومعاقل =

حصون تدمير، مستعيناً في ذلك بحليفه باديس بن حبوس، صاحب غرناطة، إلا أن عامل الحصن لعبد الملك أحبط الهجوم، وأنقلب المعتصم خائب السعي^(١).

كذلك طمع المعتصم في مدينة غرناطة بعد أن كان متحالفاً مع مليكها باديس بن حبوس ضد ابن شبيب السابق الذكر، وأعتد في هذا الشأن على وزير غرناطة يوسف ابن نغالة اليهودي، وكانت النتيجة لغير صالحه. ولقد أورد ابن بسام هذا الخبر بدقة، وملخصه أن يوسف اليهودي كان قد استولى على دولة باديس، كما كان استولى عليها من قبل أبوه الوزير الكاتب ابن نغالة. وكان بلقين بن باديس، المرشح لولاية عهد أبيه، منحرفاً عن يوسف، منكرآ استيلاءه على الملك، فأعمل يوسف الحيلة على بلقين باستدعائه إلى مجلس شراب احتفله له، وسقاه كأس سم قضي منها نخبه. وصرف يوسف التهمة إلى طائفة من فتيان ولد باديس وجواريه وقرابته، فعاث فيهم باديس قتلاً وإبادة. وعظم استيلاء يوسف إلى أن كثرت فيه الأقوال، فأراد أن يثل عرش باديس بعرش المعتصم، وسعى إلى الإطاحة بباديس وتمكين المعتصم من الاستيلاء على غرناطة، فرمى بمداخلة المعتصم في تصيير ملك باديس إليه، فملكه أكثر حصون غرناطة، فأضافها المعتصم إلى بلده، وباديس لا يشعر بخروجها عن يده، ثم اكتشف باديس عمل وزيره اليهودي، فأخفى اليهودي نفسه في بيت ملآن فحمًا، وسود به وجهه وتنكر، فأخرجوه وهتكوا حرمة وقتلوه، وصلبوه على باب المدينة، وقتل في هذا اليوم آلاف من اليهود وكان ذلك في سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م، وقيل: ٤٦٥ هـ / (٢) ١٠٧٢ م، ورَجَعَ المعتصم إلى المريّة وقد صفرت يداها^(٣).

= ورسابق. ثم صارت مرسية القصة بعد تدمير. انظر نصوص عن الأندلس ص ١ - ١٦، ومعجم البلدان (ج ٢ ص ١٩)، والروض المعطار ص ١٣١ - ١٣٢، وقطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٨٤ - ٢٨٥، والكامل في التاريخ (ج ٤ ص ٥٦٣)، وفتح الطيب (ج ١ ص ١٦٤، ٢٣٧، ٢٦٤)، وفجر الأندلس ص ١١٢ - ١١٩.

(١) انظر الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣١ - ٧٣٣)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٧٤ - ١٧٥).

(٢) في مذكرات الأمير عبدالله ص ٥٤: كان ذلك في يوم السبت لعشر خلون من صفر من سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م.

(٣) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٦٦ - ٧٦٩)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠ - ٢٣٣). وانظر أيضا مذكرات الأمير عبدالله ص ٣٩ - ٥٥، وملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام ص ٥٢ - ٥٣ وجاء في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٤٦) أن إسماعيل ابن نغالة اليهودي، كاتب باديس وكاتب أبيه من قبل، كان قد استولى على سلطان باديس ثم نكبه هذا وقتله سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م.

ويذكر الأمير عبدالله في مذكراته أن باديس بن حبّوس قام بمحاصرة مدينة وادي آش لانتزاعها من أيدي المعتصم، وأن الحرب اشتدت على المدينة وقصبتها، وأن الانفاق كثر، بحيث انتهت النفقة عليها ستة بيوت من المال، البيت منها ألف ألف دينار^(١). ويضيف: ثم أرسل المعتصم إلى باديس يسأله العفو والإغضاء على ما كان منه، وأنه لا يتعرّض من ذلك شيء لولا اليهودي، فقبل باديس اعتذاره^(٢).

وتوترت العلاقات بين المعتصم وعبدالله بن بلقين بن باديس، صاحب غرناطة، لطمع المعتصم في مدينة غرناطة أو في بعض حصونها، ثم تصالح الرجلان مهادنةً وأنجزاراً للحال، وظلا متعاقدَيْن مُتَشَارِكَيْنِ في الحُلُوِّ والمُرِّ إلى انصرام الأجل^(٣).

كذلك اشتدّ الصراع بينه وبين المعتمد ابن عباد، صاحب إشبيلية، وقد حمّله عبد الواحد المراكشي مسؤولية ذلك، في قوله: «وكان المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد، كثير النفاسة عليه، لم يكن في ملوك الجزيرة من يناوئه غيره، وربما كانت بينهما في بعض الأوقات مراسلات قبيحة، وكان المعتصم يُعيّيه في مجالسه وينال منه، ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروءته ونزاهة نفسه، وطهارة سريرته، وشدة ملوكيته»^(٤).

وأضاف: كان المعتمد قبل عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس بيسير قد توجه إلى شرقي الأندلس يتطوّف على مملكته ويطلع على أحوال عمّاله ورعيّته، فلما داني أول بلاد المعتصم خرج إليه المعصم في وجوه أصحابه وتلقاه لقاء نبيلًا، وعزم عليه للدخول إلى المرية، فأبى المعتمد ذلك، ثم اتفقا على أن يجتمعا في أول حدود بلاد المعتصم وآخر حدود بلاد المعتمد، فكان ذلك، واصطالحا في الظاهر، واحتفل المعتصم في إكرامه، ثم افترقا بعد أن أقام المعتمد عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع^(٥)، واقترب الحميري من المراكشي، فذهب إلى أن العداة المستفحل بين الرجلين كان يُذكيه المعتصم وينفخ في رماده إلى درجة أنه كان في مجالسه يعرض بالمعتمد، وأنهما كانا يتبادلان الرسائل القبيحة، ممّا أدّى إلى صدام مسلّح بينهما عندما أقدم المعتمد على

(١) مذكرات الأمير عبدالله ص ٥٥ - ٥٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٧١ - ٧٢، ٨٨ - ٩٠.

(٤) المعجب ص ٨٥.

(٥) المصدر نفسه.

غزو المرية^(١). وأشار المقرري إلى تلك الخصومة حيث عزا تأخير المعتمد عز، دفع الضريبة للأذفونش إلى اشتغال المعتمد بغزو المعتصم^(٢). كذلك أشار بيريس إلى تلك الخصومة بقوله: لم تصبح المرية مدينة أندلسية هامة ومزدهرة إلا في عهد خيران وزهير العامريين، ثم في عهد أميرها المعتصم ابن صمادح، خصم المعتمد ابن عباد^(٣).

ويقدم لنا ابن بسام صورة موجزة عن علاقات المعتصم بملوك الطوائف، فيقول: «وقد كانت بينه وبين حلفائه من ملوك الطوائف في الجزيرة فتون مبيرة، غلبوه عليها وأخرجوه من سجنه مكرهاً إليها، لم يكن مكانه منها بمكين، ولا صبحه فيها بمبين»^(٤).

وخالف ابن خاقان هؤلاء فرأى أن المعتصم اقتصر على صمادحيته البديعة^(٥)، وقصبتها المنيع، وأن همته لم تمتد إلى مزاحمة ملك في ملكه^(٦).

٤ - ابن شبيب يتمرّد على المعتصم في بدء تسلّمه الحكم:

لم يكد المعتصم يظفر بالإمارة حتى تمرّد عليه ابن شبيب^(٧)، عامل أبيه شبيب على لورقة وهي من أعمال المرية، وانتزعها من دولته، فجهّز إليه المعتصم جيشاً، فالتمس ابن شبيب مساعدة المنصور عبدالعزیز بن أبي عامر، صاحب بلنسية ومرسية، فلم يتردّد المنصور بتقديم العون العسكري له، مدفوعاً في ذلك بحقد، على معن بن صمادح وأبنة المعتصم؛ لانتزاعهما منه حكم المرية وأنفرادهما بحكمها. ورأى

(١) الروض المعطار ص ٢٨٨ (مادة الزلافة).

(٢) نفح الطيب (ج ٤ ص ٣٥٧).

(٣) La poésie andalouse en arabe classique au XI^e siècle, p.142

(٤) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٣). وقد ورد النص في البيان المغرب (ج ٣ ص ١٧٥)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩١) باختلاف يسير عما هنا. كما ورد بعض منه في الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٢).

(٥) هي قصور المعتصم ابن صمادح. نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٦). وجاء في الوافي بالوفيات (ج ٥ ص ٤٥): «والصمادحية من بلاد الأندلس». وانظر أيضاً Los palacios del Taifa almeriense al-Mu'ta-

sim, en Cuadernos de la Alhambra, III, p 15-20

(٦) فلائد العقيان ص ٤٧.

(٧) ذكره دوزي بقوله: كان ابن شبيب أحد رؤساء الجنود ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام ص ٦٠.

المعتصم، بالمقابل، أن يجدد الحلف الذي كان قائماً في أيام أبيه بين المريّة وغرناطة، فتحالف مع باديس بن حبّوس بن زيري الصنهاجي البربري، صاحب غرناطة، فزوّده، هذا الأخير، بكلّ ما يحتاجه. ودارت معركة ضارية بين الطرفين، تمكّن المعتصم فيها من الاستيلاء على بعض حصون لورقة، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على المدينة. وأكّد ذلك ابن خلدون، فقال: «وثار عليه صاحب لورقة ابن شبيب، وكان أبوه معزولاً عليها، فجهز إليه المعتصم جيشاً، وأستمدّ ابن شبيب المنصور بن أبي عامر صاحب بلنسية ومرسيه بالعدوّ، وأستمدّ المعتصم بباديس، ونهض عمّه صمادح بن باديس بن صمادح، فقاتلوا حصوناً من حصون لورقة، وأستولوا عليها ورَجَعُوا...»^(١). وذهب ابن الأثير مذهباً آخر فأكّد أن المعتصم فقدّ بورقة نهائياً، وأنّ ملكه اقتصر على المريّة وما يجاورها. يقول: «وَلَيْ أَبْعَدُهُ (بعد معن) ابنه أبو يحيى محمد بن معن وهو ابن أربع عشرة سنة، فكفله عمّه أبو عتبة بن محمد إلى أن توفي سنة ست وأربعين، فبقي أبو يحيى مسضعفاً لصغره، وأُخِذَتْ بلاده البعيدة^(٢) عنه، ولم يبقَ له غير المريّة وما يجاورها»^(٣). وهذا ما ذهب إليه ابن بسام في قوله: «وبادر السَّيْرُ إثرَّ خاله عبدالعزيز بنفسه، طمعاً في مدينة لورقة، فصدّ عنها خائباً»^(٤).

٥ - معركة الزلاّقة ودور المعتصم فيها:

بعد أن استولى ألفونسو السادس بن فردلند، ملك قشتالة، على طليطلة وأعمالها في عام ثمانية وسبعين وأربعمائة^(٥) / ١٠٨٥ م، لم يعد يقنع من ملوك الطوائف بالجزية السنويّة، وصار يروم أخذ القواعد طمعاً في الاستيلاء على جزيرة

(١) تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٥٠). وانظر أيضاً تاريخ مدينة المريّة الأندلسية ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٢) المقصود بالبلاد البعيدة لورقة وبياسة وجيان وغيرها.

(٣) الكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٩١ - ٢٩٢).

(٤) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٢).

(٥) ذكر ابن الكردبوس، أنّ ملوك الأندلس، ولا سيما المعتمد ابن عبّاد، ملك إشبيلية، وابن هود ملك سرقسطة، طمعوا في تملك طليطلة. ولمّا تحقّق ملكها القادر بن ذي النون أنّه لا طاقة له على الدفاع كتب إلى ألفونسو السادس، وتخلّى له عن طليطلة، فتملّكها ألفونسو سنة ثمان وسبعين وأربعمائة / ١٠٨٥ م. تاريخ الأندلس ص ٨٥.

الأندلس كلّها، فبدأ في سنة تسع وسبعين وأربعمائة / ١٠٨٦ م يضغط على هؤلاء الملوك حتى هابوا أمره؛ لكون طليطلة نقطة دائرة الأندلس، وأستنجدوا بأمير المسلمين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين^(١)، وكان المعتمد ابن عباد أكثر المتحمسين لهذا الاستنجاد؛ ذلك إنّه كان قد تأخر في دفع الجزية لألفونسو؛ لاشتغاله بغزو المعتصم ابن صمادح، فأرسلها إليه بعد ذلك، فاستشاط الأذفونش غضباً، وسأله أن يتخلّى له، زيادةً على الجزية، عن معاقل كان الموت عنده أولى من إعطائها، وأمّعن في التجني، وسأل دخول امرأته إلى جامع قرطبة لتلد فيه، إذ كانت حاملاً، لما أشار عليه بذلك القساوسة والأساقفة^(٢).

وذكر صاحب الحلل الموشية أن المعتمد بعث بكتاب إلى يوسف بن تاشفين يطلب منه فيه الجواز إلى الأندلس، فردّ عليه يوسف بجواب يقول فيه: «لا يمكننا الجواز إلا أن تسلّم لنا الجزيرة الخضراء، تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فأشهد على نفسك بذلك وأبعث إلينا بعقودها، ونحن في أثر خطابك إن شاء الله^(٣)». وأضاف: فقبل المعتمد بذلك، وأجاز ابن تاشفين البحر إلى الجهاد سنة تسع وسبعين^(٤) وأربعمائة / ١٠٨٦ م، وهذا هو الجواز الأول، فأحتل الجزيرة الخضراء في شهر ربيع الأول من هذه السنة، ثم رحل من الجزيرة فاتّجه نحو إشبيلية فتلّقاء المعتمد على مرحلة^(٥) من الجزيرة، فقام بها ثلاثة أيام، ثم ارتحل والمعتمد إلى بطليوس، وكتب إلى سائر ملوك الأندلس يستنفرهم إلى الجهاد

(١) انظر أخباره في وفيات الأعيان (ج ٧ ص ١١٢ - ١٣٠)، والحلل الموشية ص ١٢ - ٦١، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٤١ - ٢٤٧) و(القسم الثالث ص ٢٣٣ - ٢٥٣)، والبيان المغرب (ج ٤ ص ٢١)، ومعجم البلدان (ج ٣ ص ١٤٦)، والروض المعطار (ص ٢٨٧ - ٢٩٢) (مادة الزلاقة)، والكامل في التاريخ وتاريخ ابن خلدون في صفحات متفرقة.

(٢) راجع مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠١ - ١٠٢، ونفع الطيب (ج ٤ ص ٣٥٧)، والروض المعطار ص ٢٨٨ (مادة الزلاقة).

(١)(٣) لل موشية ص ٣٣.

(٢)(٤) ب ابن الكردبوس إلى أن عبور ابن تاشفين البحر إلى الأندلس كان في سنة ثمانين وأربعمائة / ١٠٨٧ م تاريخ الأندلس ص ٩٠.

(٥) حُدّ الإدريسي المرحلة بخمسة وعشرين ميلاً، فقال: «ومن قرطبة إلى إغرناطة أربع مراحل وهي مائة ميل، وبين إغرناطة وجيان خمسون ميلاً وهي مرحلتان» نزهة المشتاق (ص ٥٨١).

ويحضُّهم على اللحاق به، فلاحق به عبدالله^(١) بن بُلقَيْن. صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة، وأبن الأفطس صاحب بطليوس، وأعتذر المعتصم ابن صمادح عن مجيئه بنفسه بسبب العدو الملاصق له بحصن لِيَّط^(٢). ولَمَّا دَنَا آبن تاشفين من بطليوس على مقربة من فحص الزلاّقة^(٣)، حيث يحتل ألفونسو ورجاله، بعث بكتاب إلى هذا الأخير يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو القتال، فلَمَّا قرأ ألفونسو الكتاب جاش غيظه وقال: بمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نُغْرَمُ الجزية لأهل ملّته منذ ثمانين سنة؟^(٤).

وذكر الأمير عبدالله أن المعتصم، عند حلول آبن تاشفين بإشبيلية، بقي متربّصاً ليرى كيفية الأمر ونُخْرَجَه مع الروم، وأعتذر بكبر السنّ مع الضعف، وأرسل إليه آبنه معتذراً^(٥).

ومجمل القول: إن معركة الزلاّقة دارت بين المسلمين والنصارى يوم الجمعة

(١) وصف هذا الأمير تهيّؤه للقتال وأشتراكه في معركة الزلاّقة بقوله: «وبادَرْنَا نحن إلى الخروج، وسُرَرْنَا بذلك، وأَعَدَدْنَا ما آسَظَعْنَا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا، وقَدَّمْنَا الهدية إلى أمير المسلمين، وأَمَرْنَا بضرب الطُّبُل وما يُسْتَعَدُّ به للفرح، عند مخاطبته لنا بدخول الجزيرة، وظَنَّنَا أن إقباله إلى الأندلس مِنَّة من الله عَظُمَتْ لدينا، لا سَيِّما خاصة من أجل القرابة... ولَقِينَا أمير المسلمين في طريقه إلى بَطْلَيُوس بِجَرِيْشَة». مذكرات الأمير عبدالله ص ١٠٤.

(٢) لِيَّط وأليط Aledo حصن حصين من عمل لورقة، على رأس جبل شاهق، بينه وبين لورقة نصف يوم. احتلّه غرسية خيمينت Garcia Jimenez أحد قواد ألفونسو السادس، ومنه أغار في ثمانين فارساً على نظر المريّة، فأخرج المعتصم ابن صمادح قائداً من قواده ومعه أربعمئة من خيار الجند، فلَمَّا آلتقوا بالعدوّ أنهزموا. ولما عظم أذى هذا الحصن للمسلمين، لتوسّطه في بلادهم، تردّدوا إلى يوسف بن تاشفين بالشكوى حتى وعدهم بالجواز إليهم، فجاز البحر في سنة إحدى وثمانين وأربعمئة / ١٠٨٨ م، وأطال حصار هذا الحصن، فأعجزه. تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ٨٩، والحلل الموشية ص ٣٤، ٤٨ - ٤٩، ٥١، وأعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٩ - ٢٥٠) وتاريخ مدينة المريّة الإسلامية ص ٨٢ حاشية ١.

(٣) يقع فحص الزلاّقة على بعد أربعة فراسخ من بطليوس. الحلل الموشية ص ٣٨. ومكان الزلاّقة اليوم قرية صغيرة على نهر Guerrero أحد فروع نهر وادي يانه على بعد ١٢ كلم إلى الشمال الشرقي من بطليوس. تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ٩٣ حاشية ١.

(٤) الحلل الموشية ص ٣٤ - ٣٥. وانظر أيضاً أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٣٧ - ٢٤٤) وملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام ص ٢٩٤.

(٥) مذكرات الأمير عبدالله ص ١٠٤.

الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة / ١٠٨٦ م، وكانت الهزيمة فيها على ألفونسو^(١). يذكر صاحب الحلل الموشية أن عدد رؤوس النصاري، التي قطعت وجمعت بين يدي المعتمد ابن عباد بلغت أربعة وعشرين ألف رأس^(٢). ويضيف لما قضى الله تعالى بهذا الفتح الجليل امتلات أيدي المسلمين بالغنائم الوافرة والسبي الكثير والأموال والذهب والفضة ما أغناهم، وأنصرف أهل الأندلس إلى بلادهم، وعاد ابن تاشفين إلى المغرب إثر نيا أفجعه بموت ابنه أبي بكر^(٣). وذكر ابن الخطيب أن ابن تاشفين، لما قضى هذه الغزاة، قفل إلى المغرب في سنة ثمانين وأربعمائة ١٠٨٧ م، وشيَّعه ابن عباد إلى الجزيرة^(٤). وقال ابن الكردبوس: «فبينما أمير المسلمين يدبر في الدخول إلى بلاد المشركين، إذ وافاه كتاب بوفاة ابنه الكبير، فطراً عليه من ذلك رُزء كبير، ولم يكن له بُدٌّ من العودة إلى العُدوة بسبب هذا المصائب الخطير، فترك عند المعتمد ثلاثة آلاف فارس وقدم عليهم القائد أبا عبد الله محمد بن الحاج، وأخذ في الانصراف»^(٥). وأكد الأمير عبد الله أن ابن تاشفين عقّد مجلس ملوك الطوائف بعد معركة الزلاقة، وأن الخلاف بدأ يظهر بين هؤلاء في ذلك المجلس. يقول: «ولما آنقضت غزوته تلك جمَعنا في مجلسه، أعني رؤساء الأندلس، وأمرنا بالاتفاق والاتلاف، وأن تكون الكلمة واحدة... وأمر الأمير بأنصرافنا، ولم يُعَد في ذلك بعدها مجلساً إلا في سفرة ليّط الملعونة. وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده، وهو قد أطلع عياناً وسماعاً من اختلاف كلمتنا ما

(١) هكذا في أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٢) ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٢٩). وفي الحلل الموشية ص ٤٠ - ٤١: الثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩ هـ. وفي تاريخ ابن الكردبوس ص ٩٥: «عاش رجب الفرد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة».

(٢) الحلل الموشية ص ٤٤. وفي أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٥): «وأمر ابن عباد بضم رؤوس القتلى فبلغت نحواً من تسعة آلاف رأس من الروم، وأتخذت منها صوامع أذن فوقها المؤذنون». وعن استنجد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين وعبره الأول إلى الأندلس وانتصاره على ألفونسو السادس في موقعة الزلاقة، راجع الكامل في التاريخ (ج ١٠ ص ١٥١ - ١٥٢)، والوافي بالوفيات (ج ٥ ص ٤٥)، والبيان المغرب (ج ٤ ص ١١٦ - ١٣٠ - ١٤٦)، والروض المعطار ص ٢٨٧ - ٢٩٢، ونفح الطيب (ج ٤ ص ٣٥٦ - ٣٧٧) وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ٩٠ - ٩٥.

(٣) الحلل الموشية ص ٤٦ - ٤٧.

(٤) أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٩).

(٥) تاريخ الأندلس ص ٩٥ - ٩٦.

لم يَرَوْجَهَا لبقائنا في الجزيرة»^(١). وذهب آخرون إلى أن ابن تاشفين، لما قضى من هذه الواقعة ما قضى، أمرَ عساكره بالمقام، وأن تُشنَّ الغاراتُ على بلاد الفرنج، وأمرَ عليهم سيِّر بن أبي بكر، أحد قواده المشاهير^(٢).

٦ - معركة حصن لييط ودور المعتصم فيها:

في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة / ١٠٨٨ م، أراد المعتمد ابن عباد أن يستعيد مرسية من خصمه ابن رشيق، فجاز البحر إلى يوسف بن تاشفين ليحكم معه ما شاء من مرسية وغيرها، وعظَّم له شأن لييط، وشكى له ما حلَّ بالمسلمين من شأن هذا الحصن، وعاقده على أن يأتي بنفسه ورجاله، فاستجاب ابن تاشفين لطلب المعتمد، وعبر البحر، وكان ذلك جوازه الثاني، فاستقرَّ بالجزيرة الخضراء حيث تلقاه المعتمد من التعظيم والتكريم. ثم أنفذ ابن تاشفين كتابه إلى ملوك الأندلس يستدعيهم للجهاد معه، والموعِد حصن لييط، فتلاحق به عبدالله بن بلقين، صاحب غرناطة، والمعتصم ابن صمادح، صاحب المرية. وكان بداخل هذا الحصن من الروم ألف فارس وأثنى عشر ألف راجل، واتَّصلت الحروب على الحصن ليلاً ونهاراً، وكلُّ أمير من أمراء الأندلس يقاتل في يومه بخيله ورجله مداولة بينهم، وتمادى ذلك شهراً، فعجز ابن تاشفين وملوك الطوائف عن احتلاله لحصانته ومنعته، وأقتضى الرأي الإقلاع عنه^(٣).

وقد ذكر ابن بسام أن المعتصم ابن صمادح خرج عن المرية إلى لييط يجرُّ جيشاً، فألفى بها يوسف بن تاشفين قد وضع قدمه على صلعتها، وتمكَّن من قيادها، فعرض المعتصم نفسه عليه، فتلقاه يوسف بجميل نظره، وبوأه جانباً من معسكره^(٤). وذهب ابن خلِّكان وعبد الواحد المراكشي إلى أن المعتصم كان ممَّن اختصَّ بمؤانسة ابن تاشفين عند عبوره الثاني إلى الأندلس، وأنه أقبل عليه أكثر من سائر ملوك

(١) مذكرات الأمير عبدالله ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) راجع وفيات الأعيان (ج ٧ ص ١١٩)، والبيان المغرب (ج ٤ ص ١١٨)، ونفع الطيب (ج ٤ ص ٣٧٠).

(٣) انظر مذكرات الأمير عبدالله ص ١٠٨، ١١٢ - ١١٣، والحلل الموشية ص ٤٧ - ٤٩، وأعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٩ - ٢٥٠).

(٤) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٣ - ٧٣٤) ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٤).

الطوائف بحيث حظي عنده وأشتدّ تقريبه له^(١). وذكر الأمير عبدالله أن المعتصم أتى في حصار ليّيط بفيلٍ أقامه، فأصابه من الحصن قوس نار فأحرقه^(٢).

٧ - الإطاحة بعرش المعتصم وعروش سائر ملوك الطوائف:

في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة / ١٠٩٠ م، جاز يوسف بن تاشفين إلى جزيرة الأندلس، وكان هدفه في هذا الجواز^(٣) الثالث هو استئصال شأفة ملوك الطوائف والإطاحة بعروشهم ليتسنى له بالتالي ضمّ الأندلس إلى المغرب، محتجاً في ذلك بأشتداد الخلاف فيما بينهم. ذكر الأمير عبدالله في حديثه عن النزاع بين المعتمد ابن عباد وابن رشيق أن هذا الأخير كان قد تعاون مع الروم أثناء حصار ابن تاشفين لـحصن ليّيط، فكان أن قيّده المعتمد ابن عباد في الحديد، وأراه هواناً عظيماً. يقول: «فكان أبداً يُمَيَّرُهُمْ وَيُقَوِّيَهُمْ بما يعجزون عنه، وإبقاء لِرَمَقِهِمْ، وخَوْفاً من الدّاخِلَةِ عليه بِفَقْدِهِمْ. وصَحَّ ذلك عند الأمير (يوسف بن تاشفين)، والمعتمد في هذا كله لا يَنَامُ عنه، وَيسْتَفْتِي فيه الفقهاء، لِإنْفَاقِهِ بعد دخوله في البيعة له أوّل أَخْذِهِ لمرسية. فَاتَّفَقَتْ عليه الأسباب، وصُنِعَ له مجلسُ أَقْتُوا فيه بإِزَاحَتِهِ عن المسلمين، وإسلامه لسلطانه... وأَمَرَ (يوسف بن تاشفين) بتثقيفه وإسلامه إلى المعتمد. وقِيّدَ في الحديد، ورأى هواناً عظيماً»^(٤). ويضيف: بعد رفع الحصار عن ليّيط وقعت بين المعتمد ابن عباد والمعتصم ابن صمادح مشاجرات وتباعات باردة في شأن بعض الحصون، فكان أن شكى كلُّ منهما أمره إلى ابن تاشفين، إلّا أن الرجلين انفصلا على غير موافقة^(٥).

يذكر صاحب الحلل الموشية أن ابن تاشفين أعمل النظر في خلع أمراء الطوائف، فعبر البحر وأحتلّ بالجزيرة الخضراء، فوافاه المعتمد ابن عباد وتلقاه كعادته

(١) وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٤) والمعجب ص ٨٥.

(٢) مذكرات الأمير عبدالله ص ١٠٩. وأغلب الظن أن الفيل كان من الحشب

(٣) كان ليوسف بن تاشفين جواز رابع إلى الأندلس، وذلك في سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م، وقيل. ٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م. راجع الحلل الموشية ص ٥٥، وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ١١٢.

(٤) مذكرات الأمير عبدالله ص ١١٢.

(٥) المصدر نفسه ص ١١٣.

من التعظيم والتضييف، فاستنزل المستنصر تميم بن بلقين صاحب مالقة، ثم توجه إلى غرناطة فلقية المظفر عبد الله بن بلقين خارج الحاضرة ودخل معه البلد فسلم إليه الأمر، وأخذ يوسف الأخوين تميماً وعبد الله إلى العدو المغربية وأسكنهما بأغمات^(١). ويضيف: عندئذ أدرك المعتمد ابن عباد الندم على استدعاء يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وقال: لا بُدَّ له أن يسقينا من الكأس التي أسقى بها عبد الله بن بلقين، ولما عاد إلى إشبيلية أخذ في بناء الأسوار وعمل القنطرة^(٢). ويضيف أيضاً: لما كان في سنة أربع وثمانين وأربعمائة / ١٠٩١ م تحرّك يوسف بن تاشفين إلى سبتة لجواز عساكره للمتونة إلى الأندلس لمنازلة باقي ملوك الطوائف وحصارهم في بلادهم، فقدم ابن عمه الأمير سيدي^(٣) ابن أبي بكر على عسكر وأمره بمحاصرة المعتمد ابن عباد بإشبيلية ثم محاصرة المتوكل ابن الأفطس ببطليوس، وقدم ابن عمه أبا عبد الله محمد بن الحاج على عسكر ثانٍ وأمره بمنازلة الفتح الملقب بالمأمون ابن المعتمد ابن عباد بقرطبة، وقدم أبا زكريا بن واسنو^(٤) على عسكر ثالث وأمره بمحاصرة المعتصم ابن صمادح بالمرية، فجوّز العساكر وأنصرف كل فريق إلى حيث أمره، وأقام هو بسبتة مترقباً لأنبائهم متشوقاً لما يحدث عنهم^(٥).

ذكر ابن الخطيب أن ابن تاشفين لم يستثن من ملوك الطوائف إلا المستعين بالله أحمد بن محمد بن سليمان بن هود بسرقسطة: «والمستعين هذا ممن لم يهجه أمير لمتونة، ولا نازعه في يده، ولا تطرق لخلعه، قبولاً منه للعفو، وإشراحاً فيما بينه وبين

(١) الحلل الموشية ص ٥٠ - ٥١. وفي أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٥٠): «فتحرّك (أي يوسف ابن تاشفين) الحركة الثالثة في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، وأجاز البحر، ويّمّ قرطبة فأحتلّها في جمادى الأولى من العام، فبدأ منهم بعبيد الله بن بلقين، صاحب غرناطة، فاستولى على ملكه وملك أخيه بمالقة في سنة أربع وثمانين». أي في سنة أربع وثمانين وأربعمائة / ١٠٩١ م.

(٢) الحلل الموشية ص ٥١ - ٥٢.

(٣) في وفيات الأعيان (ج ٧ ص ١٢٢)، والبيان المغرب (ج ٤ ص ١٢١) والكامل في التاريخ (ج ١٠ ص ١٩٢)، وأعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٥٠)، وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ١٠٤، ونفح الطيب (ج ٧ ص ٣٧٠): سير بن أبي بكر.

(٤) في أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٥١): يحيى بن واسيو.

(٥) الحلل الموشية ص ٥٢. وانظر أيضاً أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٥٠ - ٢٥١). وفي تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ١٠٧ «وقد كان تملك (أي الأمير سين) المرية ومرسية ودانية وشاطبة على يدني فائده محمد ابن عائشة، وأنصرف أمير المسلمين إلى العدو».

العدو لما تجدّه مضايقته من تصيير ما بيده إلى الروم، فكان يلاطفه. ووجه إليه ابن هود ولده عبد الملك، فقام بحقه وصرفه مكرماً، وأضحبه كتابه بما نصّه: من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المستعين بالله أحمد بن هود، أدام الله تأييده»^(١).

وذكر ابن خلكان أن سير بن أبي بكر كتب ليوسف بن تاشفين يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكايده العدو، وأن ملوك الأندلس في بلادهم في أرغد العيش وأطيبه، فكتب إليه ابن تاشفين يأمره بإخراج ملوك الأندلس من بلادهم وإلحاقهم بالعدوة المغربية، فمن استعصى عليه منهم قاتله، وليبدأ منهم بمجاوري الثغور، ولا يتعرض للمعتمد ابن عباد إلا بعد استيلائه على البلاد. فابتدأ سير بملوك بني هود بسرقسطة، ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس، ثم نازل بني صمادح بالمرية وكانت قلعتهم حصينة إلا أنهم كانوا يفتقرون إلى أجناد وأنجاد من الرجال، فزحف عليهم سير بجنوده وغلبهم، فلما علم المعتصم أنه مغلوب، دخل قصره فأدركه أسف قضى عليه فمات من ليلته، فاشتغل أهله به وسلموا المدينة^(٢). وأضاف: «لما تغيرت نية ابن تاشفين على المعتمد^(٣) وجاهره هذا بالعصيان شاركه في ذلك المعتصم ووافقه على الخروج عن طاعته وعدم الانقياد لأمره، فلما قصد ابن تاشفين بلاد الأندلس عزم على خلعهما وقبضهما^(٤). وقال الذهبي إن المعتصم داخل ابن تاشفين ونصره، ولما عزم هذا الأخير على أخذ البلاد من المعتصم أظهر العصيان له^(٥). وقال ابن الأثير: لما فرغ سير بن أبي بكر من إشبيلية^(٦) سار إلى المرية فنازلها، ولما سمع المعتصم بمُلكهم لألمرية وما جرى للمعتمد مات في تلك الأيام غمّاً وكمداً^(٧). وروى أبو الفداء أن عساكر سير سارت إلى ألمرية بعد أن فرغت من إشبيلية، ولما بلغ

(١) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٧٣).

(٢) وفيات الأعيان (ج ٧ ص ١٢٢ - ١٢٣). وانظر أيضاً البيان المغرب (ج ٤ ص ١٢١ - ١٢٢، ١٤٤)، ونصح الطبيب (ج ٤ ص ٣٧٠) حيث ينقل صاحباها عن وفيات الأعيان.

(٣) قال ابن الأثير. لما تحرك ابن تاشفين من العدوة بعد وقعة الزلاقة، وأجاز البحر إلى الأندلس، لم يخرج إليه المعتمد ابن عباد لبطالة كان فيها منغمساً، فكانت أول وحشة وقعت بينهما. الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٥).

(٤) وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٤).

(٥) سير أعلام النبلاء (ج ١٨ ص ٥٩٣).

(٦) دخل المرابطون إشبيلية يوم الأحد في الثاني والعشرين من شهر رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة ١٠٩١ م، وذلك بعد أنقضاء عام كامل على سقوط غرناطة بيدهم. مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧٠.

(٧) الكامل في التاريخ (ح ١٠ ص ١٩٢).

المعتصم أخذُ إشبيلية ومسير العسكر إليه مات غماً وكمداً^(١). وذهب آخرون إلى القول: بينما كان عسكر ابن تاشفين يحاصر المعتصم وهو في مقامه في قصبة ألمرية ينازع حُشاشة نفسه، سمع اختلاط الأصوات فقال: لا إله إلا الله، نُغْصَ علينا كلُّ شيء حتى الموت! فبكت إحدى حظاياها، فَرَمَقَهَا بِطَرْفه الكليل، وقال وهو يتنفس الصعداء من حرِّ العليل (المتقارب):

تَرْفُقُ بِدَمْعِكَ لَا تُفْنِيهِ فَبَيْنَ يَدَيْكَ بَكَاءٌ طَوِيلٌ^(٢).

٨ - ألمرية بعد المعتصم:

ب وفاة المعتصم في سنة أربع وثمانين وأربعمائة / ١٠٩١ م، ولي الأمر بعده وَلِيُّ عهده مُعِزُّ^(٣) الدولة أحمد ابن المعتصم، فبقي بعده ستة أشهر حيث بلغه خلع المعتمد، فعمل عندئذٍ بوصية أبيه^(٤). ذكر ابن خاقان أنَّ عَزَّ الدولة^(٥) بقي طيلة فترة

(١) المختصر في أخبار البشر (ص ٢٠٠).

(٢) راجع الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٤)، ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٤)، والوافي بالوفيات (ج ٥ ص ٤٦)، والمغرب (ج ٢ ص ١٩٦)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٨)، والكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٩٢)، والحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٣ - ٨٤)، وقلائد العقيان (ص ٤٧ - ٤٨)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩١) وسير أعلام النبلاء (ج ١٨ ص ٥٩٤).

(٣) لقبه في قلائد العقيان ص ٤٨، وأعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٩٧): «عَزَّ الدولة» وفي المغرب (ج ٢ ص ٢٠١) ونفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٧ - ٣٦٨): «الواثق عَزَّ الدولة أبو محمد عبدالله». وفي نفح الطيب (ج ٣ ص ٤١٢): «الواثق يحيى». وفي الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٥): «الواثق بالله» وأغلب الظنُّ أنَّ لقب ولد المعتصم، المرشَّح للملك بعد أبيه المعتصم، ليس «عَزَّ الدولة»، بل هو «معزُّ الدولة الواثق بالله»، وهو لقب كان أبوه المعتصم قد تسمَّى به من قبل. ويؤيد رأينا هذا ما جاء به الأمير عبدالله في مذكراته ص ١٦٧: «ولي بعده (أي بعد المعتصم) أبنه مُعِزُّ الدولة الناهض إلى قلعة حماد»، وما ذكره ابن الأبار في الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٨ - ٩٠) من أنَّ عَزَّ الدولة أبا مروان عبيدالله ابن المعتصم هو الذي أنفذه أبوه المعتصم في آخر دولته رسولاً إلى يوسف بن تاشفين - عند كونه بغرناطة - فَأَعْتِقْلَ وَقَيَّدَ، ولم يزل المعتصم يتحِيلُ في تخليصه حتى أَجَدَ مِنْ حَرَّاسِهِ وَهَرَبَ بِهِ عَلَى الْبَحْرِ، فَوَافَى الْمَرِيَّةَ، وَهْنِيءَ أَبُوهُ بِخِلَاصِهِ، ثُمَّ فَرَّ عَزَّ الدولة إلى أحد المرابطين لِأَذِمَّةٍ كَانَتْ بَيْنَهُمَا، وذلك بعد فرار أخيه معز الدولة إلى بَجَاية

(٤) انظر البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٨).

(٥) الصواب: معز الدولة كما أشرنا سابقاً.

حكمه «مختبل التلفت، مرتقباً للتلفت، لا يُحكّم تدبيراً، ولا يملك من أمره قليلاً ولا كثيراً... إلى أن ركب في البحر طريقاً غير يسر وساعدته الريح بنفس... فأزجاه إلى بجاية^(١) سكانه، وحيّاه منها موضعاً ومكانه، فاستقرّ فيها تحت رعاية المنصور ابن الناصر^(٢). «وذهب ابن الأبار إلى أن المعتصم أوصى ابنه معز الدولة أن يلحق ببلاد ابن حمّاد بالجزائر إذا سمع بخلع المعتمد ابن عباد، فأمثل ذلك لأشهر من وفاة أبيه، وبقي بالمرية إلى وقت القبض على المعتمد، ثم ركب البحر في قطع أعدّها لفراره، وأسلم المرية وأعمالها، وذلك في رمضان من سنة أربع وثمانين وأربعمائة / ١٠٩١ م، وقيل: في شعبان، وقصد بجاية فأقام فيها تحت رعاية المنصور ابن الناصر ابن علّناس أو علّناس ابن حمّاد بن بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي، وفي كنفه، ويقال: إن المنصور أنزله يتيس من أعماله الغربية^(٣).

ولقد أورد الأمير عبدالله وصية المعتصم لابنه هكذا: «امتسك في هذه القصة طول مقام ابن عباد في ملكه بإشبيلية ما استطعت، فإن رأيت ابن عباد قد خرج فلا تربّض ساعة واحدة، وأنج بنفسك إلى القلعة، وأدخل البحر بما قدرته عليه من ذخائر، إذ لا مطمع لك في البقاء بعده^(٤). وأضاف: فحفظ معز الدولة وصية أبيه، وتخير قطعة من أسطوله أشحن فيها جميع ما قدر عليه من ذخائره، وقدم الجزائر، فأكرمه صاحب القلعة، وأمنه في ذخائره، وأكرم ضيافته، وخيره حيث يحب السكنى، فأختار تدلّس لأنها على البحر^(٥).

كما أورد ابن بسام وصية المعتصم بقوله: «يا بُنيّ إن ابن عباد معنى السريرة، وشيخ هذه الجزيرة، فساعة يبلغك عنه شيء فأخف صوتك وأنج وليّتك^(٦).

(١) بجاية: مدينة بالجزائر من عمل قسنطينة، وستحدث عنها فيما بعد ص ١٣٩ حاشية ٧.

(٢) قلائد العقيان ص ٤٨. وانظر أيضاً تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ١٠٥. والمعروف أن الناصر ابن

علّناس حكم ما بين سنتي ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م و ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م، وحكم ابنه المنصور ابن

الناصر ابن علّناس بين سنتي ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م. و ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م. تاريخ ابن الكردبوس ص

١٠٢ حاشية ٣

(٣) الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٩ - ٩٠).

(٤) مذكرات الأمير عبدالله ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٥) المصدر نفسه ص ١٦٨.

(٦) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٥).

وأضاف: لما سقط على معز الدولة خبر المعتمد ركب البحر ونجا بنفسه^(١).

وأوردها ابن عذاري هكذا: «إذا بلغك أن ابن عباد جرى عليه شيء من قبل هؤلاء أصحاب اللثام فأركب هذا البحر إلى بلاد بني حماد»^(٢). وأضاف: ثم عمل بوصية أبيه، فكاتب المنصور بن الناصر، صاحب قلعة^(٣) حماد من عمل بجاية، وأستأذنه في الوصول إلى بلاده، فأذن له قائلًا: أقصد إلى مدينة تينس، فلم يزل بها إلى آخر عهده^(٤). وأشار المقرئ إلى هذه الوصية بقوله: «وفارق (المعز) الملك كما أوصاه المعتصم والده»^(٥). وأورد ابن الخطيب رواية مفادها أن معز الدولة أقام بعد وفاة أبيه يعمل النظر في أمثال وصيته، فجعل يبيد غرضه في نقل زوجته بنت مجاهد العامري إلى دانية لتكون أقرب إلى الإيساق في البحر، ولما كمل ما أراده من ذلك وافاه اليقين بتغلب المرابطين على المعتمد ابن عباد، فأمر رجاله بنقب السور خارج باب موسى إلى دار الصنعة، وركب بمن اختص به في قطعة، وحمل المال والمتاع في اثنتين، وأحرق باقي السفن خشية الاتباع، ونزل بالجزائر إلى أن هلك بها، وبذلك أنقضت أيام بني صمادح^(٦).

وأشار ابن سعيد إلى فرار أولاد المعتصم بعد موت أبيهم، فقال: فرّوا بما لهم في البحر إلى سلطان بجاية، وملك المثلثون المرية^(٧). وأضاف: آل أمر عز^(٨) الدولة، المرشح للملك بعد أبيه المعتصم، إلى أن حل بجاية في دولة بني حماد مستوحشاً^(٩). وذكر ابن الأثير أن أولاد المعتصم فرّوا في البحر في مركب واحد إلى بجاية قاعدة مملكة بني حماد من إفريقية^(١٠). وقال في مكان آخر، وشاطره الرأي ابن

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢) البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٨).

(٣) نسبت هذه القلعة إلى حماد بن بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي؛ لأنه هو الذي بناها. أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٨٥).

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥) نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٧).

(٦) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩٢).

(٧) المغرب (ج ٢ ص ١٩٦).

(٨) الصواب: معز الدولة، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً.

(٩) المغرب (ج ٢ ص ٢٠١).

(١٠) الكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٩٢).

خلدون، إنَّ ولد المعتصم، بعد أن خلعه يوسف بن تاشفين، سار وأهله في مراكب إلى العُدوة، ومعهم كلُّ ما لهم، وَنَزَلُوا على آل حمّاد بالقلعة، فأحسنوا إليهم^(١). وروى أبو الفداء أنَّ الحاجب أحمد ابن المعتصم سار بأهله وماله عند المريّة في البحر، بعد موت أبيه المعتصم، إلى بلاد بني حماد المتاخمين لإفريقية، فأحسنوا إليهم^(٢).

وبأنقضاء أيام بني صمادح تصبح المريّة تابعة للمرابطين، ومن بعد هؤلاء أصبحت خاضعة للموحّدين. ذكر ابن غالب أنَّ النصارى مَلَكْتُهَا سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة / ١١٤٧ م، ومكثت فيها عشرة أعوام، ثم أسترجمها عثمان بن عبد المؤمن سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة^(٣) / ١١٥٧ م. وذكر غيره أنَّ زعيم الروم المعروف بالسُّلَيْطِين^(٤) هو الذي استولى على المريّة وقلعتها، ودخلها عَنوةً يوم الجمعة السابع عشر من جُمَادَى الأولى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة / ١١٤٧ م، ثم أسترجمها السيد أبو سعيد الموحّدي في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة / ١١٥٧ م بعد حصار دام سبعة شهور^(٥).

وذكر أشباخ أنَّ القيصر ألفونسو، نزولاً على اقتراح الجنويين، وجّه حملته إلى المريّة، فأرسل أسقف أسترقة إلى الكونت ريموند برنجار الرابع أمير برشلونة، والكونت جيّوم صاحب مونييلي، يطلب إليهما الاشتراك في الحملة البحرية. وكان الجنويون والبيزيون، بعد أن تقاضوا من القيصر ثلاثين ألف قطعة من الذهب لتجهيز السفن، قد حدّدوا يوم أول أغسطس سنة ١١٤٧ م موعداً لمقدمهم إلى المريّة، فلم يتردّد الأميران ريموند وجيّوم في التعهد بإرسال الإمدادات في الموعد المضروب.

(١) الكامل في التاريخ (ج ١٠ ص ١٩٢-١٩٣) وتاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٥٠).

(٢) المختصر في أخبار البشر (ج ٢ ص ٢٠٠).

(٣) قطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٨٤.

(٤) هو ألفونسو السابع ابن دويلا أورাকা Doña Urraca التي خَلَفَتْ ألفونسو السادس في حكم قشتالة وليون وجليقة حتى وفاتها في سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م، وقد خَلَفَ أمّه وهو صغير السنّ، فَسَمَّته المراجعُ العربيّة بالسُّلَيْطِين أو السَّلْطِين (تصغير سلطان)، وظلَّ يحكم حتى وفاته سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م.

تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ١١٥-١١٦.

(٥) انظر نفع الطيب (ج ٤ ص ٤٦١-٤٦٣)، ومعجم البلدان (ج ٥ ص ١١٩)، والإحاطة بتحقيق عنان (ج ١ ص ٢٨١).

وكان الجيش مكوناً من قوات جليقية وأشتوريش وقشتالة وقطلونية وأراجون ونافاراً، وكل منها يقوده أمير أو كبير منهم، ويتولّى القيصر نفسه قيادة الجيش العليا. ثم أُخِذَت المرية عَنوة، وأستولى الظافرون على غنائم عظيمة، ودخل القيصر المرية في قوة كبيرة. وفي الوقت الذي أفتتحت فيه المرية سقطت أشبونة في يد النصارى^(١).

وقد أشار الجيميري إلى ما آلت إليه مدينة المرية على أيدي الروم آنذاك، فقال: «وكان الرُّومُ مَلَكُوهَا فغَيَّرُوا محاسنها وسَبَّوْا أهلها وخربُوا ديارها»^(٢). وقال المقري: «ودخل الموحدون المدينة، وقد خربت وضعت، إلى أن أحيَا رَمَقَهَا الرئيس أبو العباس أحمد بن كمال»^(٣). وهنا إشارة إلى أعمال الترميم التي قام بها الموحدون آنذاك من جرّاء الأضرار التي لحقت ببنيان المرية.

وبأنحسار الموحدين أصبح المرية في عهد بني نصر ولاية من ولايات مملكة غرناطة الثلاث؛ ولاية المرية، وولاية مالقة، وولاية غرناطة^(٤). ثم سقطت هي ومدينة بسطة في أيدي القشتالين الإسبان في يوم الجمعة عاشر محرّم سنة خمس وتسعين وثمانمائة / ١٤٨٩ م بعد سقوط معظم قواعد مملكة غرناطة، وقبل سقوط الحاضرة غرناطة بستين^(٥).

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ج ١ ص ٢٣٣ - ٢٣٥)

(٢) الروض المعطار ص ٥٣٨.

(٣) نفح الطيب (ج ٤ ص ٤٦٣).

(٤) انظر كناسة الدكان ص ١٦ - ١٧.

(٥) انظر نفح الطيب (ج ٤ ص ٥٢٢)، والآثار الأندلسية الناقية في إسبانيا والبرتغال ص ١٩٢، وتاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٠٥، ١٦٤، وتاريخ مدينة المرية الأندلسية ص ١٨١.

سيرة المعتصم ابن صمادح ملك المروية

١ - اسمه وكنيته وألقابه :

هو محمد بن أبي الأخوص مَعْن بن أبي يُحَيَّى محمد بن صُمادح^(١) بن أحمد ابن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر بن عَمِيرَة - الداخِل إلى الأندلس - ابن المهاجر بن نَجْدَة بن شُرَيْح بن حَرْمَلَة بن يزيد بن عبد ربّه بن يزيد بن سعد بن عامر بن عَدِيّ وهو تُجَيْب^(٢) بن أشرس بن شَبَث بن السُّكُون بن أشرس بن شَيْث بن كِنْدَة وهو ثور بن مَرْتَع بن معاوية بن كِنْدِي بن عُفَيْر ابن عَدِيّ بن الحارث بن مُرّة بن أَدَد بن يزيد بن مَهْصَع بن عمرو بن عَرِيب بن يَشْجُب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان^(٣). ونَسَبُهُ الأصفهاني إلى بني الفَهْرِي^(٤). وَيُكْنَى أبا يحيى^(٥). وتلقب بخمسة ألقاب، معزّ

(١) في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٨٩). «كان جدّهم محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر». وفي وفيات الأعيان (ج ٥) ص ٤٥: «صُمادح، بضم الصاد المهملة وفتح الميم، ودال مكسورة، وتعني في اللغة: الشديد. وفي التكملة (ج ١ ص ٤٠١): «محمد بن معن بن محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي».

(٢) ذكر ابن حزم أنّ «تُجَيْب» امرأة عُرِفَ بنو صمادح بها فَنُسِبُوا إليها، وهي تُجَيْب بنت ثوبان بن سُلَيْم بن رُهاء، من مَذْجَح وهي أمُّ عَدِيّ وسَعْدِ ابني أَشْرَس بن شَيْب بن السُّكُون بن أَشْرَس بن كِنْدَة. جمهرة أنساب العرب ص ٤٢٩. وعن تجيب انظر أيضاً المطرب ص ٣٤، ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٤٣١).

(٣) نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار ص ٨٤ وانظر أيضاً الحلة السراء (ج ٢ ص ٧٨)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٨٩).

(٤) الخريدة (ج ٢ ص ٢٧١) طبعة الدار التونسية، وطبعة دار نهضة مصر ص ١٧٧.

(٥) انظر نصوص عن الأندلس ص ٨٤، والتكملة (ج ١ ص ٤٠١)، ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٣٩)،

الدولة، والمعتصم بالله، والواثق بفضل الله، والرشيد وسراج الدولة^(١).

٢ - ولادته وأصله:

كانت ولادته في سنة تسع وعشرين وأربعمائة^(٢) / ١٠٣٧ م، وأمه من بيت عزّ وجاه، وهي بُرَيْهَة بنت الناصر عبد الرحمن ابن المنصور محمد بن أبي عامر المعافري، أخت أبي الحسن المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن محمد بن أبي عامر المعافري، صاحب بلنسية^(٣). وهكذا يكون محمد بن معن من أصل عربي من جهة الأب والأم معاً. وتزوَّج إحدى بنات ابن مجاهد العامري، وقد ورد ذلك في فصل من رقعة كتبها الوزير الكاتب أبو محمد عبدالله بن أبي عمر بن عبد البر النُميري عن ابن مجاهد وقد زفَّ أبنته إلى محمد بن معن بن صمادح^(٤).

وكان جَدُّه أبو يحيى محمد بن صمادح والياً على مدينة وشيعة Huesca وأعمالها في أيام الخليفة المؤيد هشام بن الحكم الأموي^(٥). ثم كان له اتصال بالخليفة سليمان المستعين فثنى له الوزارة وأمضاه على عمله^(٦). وكان أول أمره مجاملاً لابن عمّه منذر بن يحيى التجيبي^(٧)، الذي كان أول من آستقل بسرقسطة والثغر الأعلى

= والمطرب ص ١٢١، ١٢٦، وسير أعلام النبلاء (ج ١٨ ص ٥٩٢) وتاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح ص ٩٨.

(١) تحدّثنا بإسهاب عن هذه الألقاب ص ٣٥ فانظرها.

(٢) البيان المغرب (ج ٣ ص ١٩٢).

(٣) الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨١).

(٤) الذخيرة (ق ٣ م ١ ص ١٢٧)، والمغرب (ج ٢ ص ٤٠٢).

(٥) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٢٩ - ٧٣٠) والحلة السيرة (ج ٢ ص ٨١)، ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٣٩)، والوافي بالوفيات (ج ٥ ص ٤٥)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٨٩)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٧٣) وفيه أسماء ابن عذاري: يحيى بن أحمد بن صمادح، والتكملة (ج ١ ص ٣٨٢) وفيه أسماء ابن الأبار: محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح التجيبي، وسير أعلام النبلاء (ج ١٨ ص ٥٩٣).

(٦) انظر الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٨٩)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٧٣).

(٧) كان منذر بن يحيى يُكنى أبا الحكم ويلقب بالحاجب المنصور، وكان في بداية أمره رجلاً من عُرض الحُند، وترقى إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر، وتناهى أمره في الفتنة إلى نيل الإمارة، فأعطاه سليمان المستعين سرقسطة سنة ثلاث وأربعمائة / ١٠١٢ م، فأحسن تنظيمها مات قتلاً على يدي =

بعد أن حلال عَقْد الجماعة بالأندلس، ثم حاربه منذر طمعاً في مُلْك وشِقة، فعجز أبو يحيى عن منذر لكثرة رجاله، وترك له المدينة، وفر بنفسه، فلم يَبْقَ له بالثغر متعلق، وكان أول ساقط من الثَّوار^(١). وانتقل عندئذٍ إلى بلنسية، وكان صاحبها آنذاك أبو الحسن المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر المعافري^(٢)، فأكرمه المنصور وأوطنه بلده، وصاهرَ ابْنَيْه مَعْنَاً أبا الأحوص وصُمادحاً أبا عْتَبَة، أي زَوْجَهُمَا أُخْتَيْه^(٣)، ثم رأى اللُّحاق بالمشرق فهلك غرقاً في البحر^(٤). وقد أجمل ابن بسام خِصال أبي يحيى بقوله: «وكان أبو يحيى هذا رجل الثَّغر رأياً ومعرفة، ودَهيّاً ولساناً وعارضة، ولم يكن في أصحاب السيوف مَنْ يَعدِلُهُ في خلاله هذه؛ مِنْ رجلٍ محرومٍ يقارنه الشُّوم، ويقعد به النُّكْد واللُّوم»^(٥). . . . وقال فيه الصَّفدي: «وكان دَاهِيَةً لم يَعدِلُهُ أحد من أصحاب السيوف في الدهاء»^(٦).

أمّا والده أبو الأحوص معن، فقد بقي في كنف عبد العزيز ببلنسية وزيراً له. وعندما وَثَبَ عبدُ العزيز على المَريّة وَمَلَكَهَا سنة تسع وعشرين وأربعمائة^(٧) / ١٠٣٧ م، مُلَبِّياً دعوة أهلها إثر موت صاحبها زهير العامري، حَسَدَهُ أبو الجيش مجاهد العامري صاحب دانية Denia وخرج غازياً ببلاده، فتأهَّب عندئذٍ عبد العزيز وخرج إليه من المَريّة، وأستخلف فيها مَعْنَاً، فغدر به معن، وخان أمانته، وخلع طاعته، وطرده

= عبدالله بن الحكم، أحد قَوّاده، في سنة ثلاثين وأربعمائة / ١٠٣٨ م. انظر الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ١٨٠ - ١٩١)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١١٩، ١٩٦ - ٢٠١) وفيه: توفي منذر سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١١٣، ١٧٥ - ١٨١)، والمغرب (ج ٢ ص ٤٣٥)، والكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٨٩)، ونفح الطيب (ح ١ ص ٤٨٤)، والأعلام (ج ٧ ص ٢٩٥ - ٢٩٦).

(١) انظر الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٠)، ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٠)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٧٣)، والوافي بالوفيات (ج ٥ ص ٤٥)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٨٩) وسير أعلام النبلاء (ج ١٨ ص ٥٩٣).

(٢) تقدمت ترجمة المنصور عبد العزيز ص ٣٣ حاشية ١.

(٣) أي إن وَلَدَيْ أبي يحيى تَزَوَّجَا أُخْتَيْ المنصور.

(٤) الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨١).

(٥) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٠). ورد هذا النّص في البيان المغرب (ج ٣ ص ١٧٣) باختلاف يسير عما هنا.

(٦) الوافي بالوفيات (ج ٥ ص ٤٥).

(٧) في الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٦٦٣): منسلخ ذي القعدة سنة سبع وعشرين وأربعمائة / ١٠٣٥ م.

عن الإمارة، ودعا لنفسه ملكاً على المرية وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة / ١٠٤١ م، ولم يبق من أمراء الطوائف أحد إلا ذمه، إلا أنه تم له الأمر وأستتب، ودانت له لورقة وبياسة وجيان وغيرها^(١). وكان من كبراء العرب، حارب من جاوره من سائر ملوك الطوائف إلى أن هلك في شهر رمضان من سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة / ١٠٥١ م^(٢). وترجم له ابن الأبار بقوله: «كان مرضي السيرة، باسطاً للحق، ذا حظ من العلم. توفي بالمرية سنة ٤٤٣ هـ^(٣).

٣ - خصاله :

كان المعتصم حسن السيرة في رعيته وجنده وقرابته، وقد أثبت ذلك ابن الأبار في قوله: «وكان حسن السيرة في رعيته وجنده وقرابته، فانتظمت أيامه، واتصلت دولته، واستقامت أموره... كان المعتصم ساكن الطائر، مأمون الجانب، حصيف العقل، طاهراً^(٤). وأيده في ذلك ابن عذاري فقال: «فجری هذا الفتى أبو يحيى مع رجاله مجراه على أحسن سيرة في جنده ورعيته، فحسنت أيامه، وأطردت دولته، وكان من أهل الأدب والمعارف، فاضلاً عاقلاً^(٥). ووصفه الحجازي بقوله: «ملك تملكه الإحسان، وأطلعته الفضل غرة في وجه الزمان^(٦).

وكان المعتصم يدمن على الشراب، ولما أعرض عنه زمناً قال فيه وزيره وشاعره أبو حفص عمر بن الشهيد التجيبي (المتقارب):

عسى دهرنا أن يكف الخطوباً ويجعل منك لكأس نصيباً
وشت حادث الليالي بها فأعرضت عنها وكانت حبيباً^(٧)

(١) راجع الدخيرة (ق ١ م ٢ ص ٦٦٣، ٧٣٠ - ٧٣١)، والحلة السراء (ج ٢ ص ٨١)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٧، ١٧٤، ١٩١ - ١٩٢، ٢٩٣)، ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٠)، والوافي بالوفيات (ج ٥ ص ٤٥)، والمغرب (ج ٢ ص ١٩٥)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩٠، ٢١٧) والكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٩١) وسير أعلام النبلاء (ج ١٨ ص ٥٩٣).

(٢) انظر البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٧)، والكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٩١).

(٣) التكملة لكتاب الصلة (ص ٧٢٩).

(٤) الحلة السراء (ج ٢ ص ٨٢).

(٥) البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٨).

(٦) انظر المغرب (ج ٢ ص ١٩٦).

(٧) الدخيرة (ق ١ م ٢ ص ٦٨٧).

وقال أيضاً (الكامل):

هَجَرَ الْمُدَّامَ وَكَانَ يَأْلَفُ وَصْلَهَا مَلِكٌ جَلِيلٌ فِي الْمُلُوكِ عَظِيمٌ
فَاصْفَرَّتِ الْأَقْدَاخُ مِنْ جَزَعٍ وَلَوْ يَسْطَعْنَ لَمْ يَأْرَجْ لَهُنَّ نَسِيمٌ
وَتَطَّلَعَ السَّاقِي يَوْمَلْ عَوْدَةً لِيَعُودَ عَهْدٌ بِالْكَرَامِ كَرِيمٌ^(١)

وهكذا أخذ المعتصم إلى الدعة، وأكتفى بالضيق من السعة، وأقتصر على قصر يَبْنِيهِ وَعِلْقِي يَفْتَنِيهِ، وميدانٍ من اللذة يستولي عليه ويبرز فيه...»^(٢).

كذلك كان المعتصم يُعْنَى بالدين وإقامة الشرع، فيعقد المجالس في قصره للمذاكرة، ويجلس يوماً في كل جمعة للفقهاء والخوَّاص، فيتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث^(٣). وقال فيه الذهبي: «فكان حليماً، جواداً، مُمدِّحاً... وكان فيه خير ودين وعدل وتواضع وعقل تام»^(٤).

وكان ورعاً عادلاً، له حكايات في التورع والعدل، أورد المقرئ إحداها بقوله: من حكايات أهل الأندلس في العدل أن المعتصم لما بنى قصوره المعروفة بالصُمَادِحِيَّةَ اغتصب المشتغلون ببنائها جَنَّةً لأحد الصالحين وألحقوها بالصُمَادِحِيَّةَ، وزعم ذلك الصالح أنها لأيتام من أقاربه، فبينما المعتصم يوماً يشرب على الساقية الداخلة إلى الصُمَادِحِيَّةَ وقعت عَيْنُهُ على أنبوبِ قَصَبَةٍ مُشْمَعٍ، فأمر مَنْ يَأْتِيهِ بِهِ. فلما أزال عنه الشَّمْعَ وجد فيه ورقة فيها: «إِذَا وَقَفْتَ أَيُّهَا الْغَاصِبُ، عَلَى هَذِهِ الْوَرَقَةِ فَادْكُرْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِيَّ نَعَجَةٍ وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾»^(٥)، ولا إله إلا الله، أَنْتَ مَلِكٌ قَدْ وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ، وَمَكَّنْ لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَيَحْمِلُكَ الْجَرُّصُ عَلَى مَا يَفْنَى أَنْ تَضُمَّ إِلَى جَنَّتِكَ الْوَاسِعَةِ الْعَظِيمَةِ قِطْعَةً أَرْضٍ لِأَيْتَامٍ حَرَمْتَ بِهَا حِلَالَهَا وَخَبَشْتَ طَيْبَهَا، وَلَيْتَنِي تَحَجَّجْتَ عَنِّي بِسُلْطَانِكَ،

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٢). وانظر أيضاً البيان المغرب (ج ٣ ص ١٧٥)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩٠) والحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٢).

(٣) انظر الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (ج ١٨ ص ٥٩٣).

(٥) سورة ص ٣٨، الآية ٢٣.

وَأَقْتَدَرْتُ عَلَيَّ بِعَظَمِ شَأْنِكَ، فَتَجَمَّعُ غَدًا بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ لَا يَحْجُبُ عَنْ حَقِّ^(١)، وَلَا تَضِيعُ عِنْدَهُ شَكْوَى». فَلَمَّا اسْتَوْعَبَ الْمُعْتَصِمُ قِرَاءَتَهَا دَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ: عَلَيَّ بِالْمُسْتَغْلِينَ بِنَاءَ الصَّمَادِ حَيَّةً، فَأُحْضِرُوا، فَاسْتَفْسَرَهُمْ عَمَّا زَعَمَ الرَّجُلُ، فَلَمْ يَسْعَهُمْ إِلَّا صَدَقَهُ، وَاعْتَذَرُوا بِأَنْ نَقَصَهَا مِنَ الصَّمَادِ حَيَّةً يَعْيبُهَا فِي عَيْنِ النَّاضِرِ، فَاسْتَشَارَ الْمُعْتَصِمُ غَضِبًا وَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ عَيْبَهَا فِي عَيْنِ الْخَالِقِ أَقْبَحُ مِنْ عَيْبِهَا فِي عَيْنِ الْمَخْلُوقِ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ تُصَرَّفَ عَلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّ وَزِيرَهُ أَبْنَ أَرْقَمَ^(٢) لَمْ يَزَلْ يَلَاظِفُ الشَّيْخَ وَالْأَيَّامَ حَتَّى بَاعَوْهَا عَنْ رِضَى بِمَا اشْتَهَوْا مِنَ الثَّمَنِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ، فَاسْتَقَامَ بِهَا بِنَاءُ الصُّمَادِ حَيَّةً، وَحَصَلَ لِلْمُعْتَصِمِ حَسَنُ السَّمْعَةِ فِي النَّاسِ^(٣). وَأَشَارَ أَبْنُ سَعِيدٍ إِلَى وَرْعِ الْمُعْتَصِمِ وَعَدْلِهِ بِقَوْلِهِ: «وَأَمَّا تَوَرُّعُهُ وَعَدْلُهُ فَلَهُ فِيهِمَا حِكَايَاتٌ»^(٤). وَقَالَ أَشْبَاخُ: «وَكَانَ مِنْذُ أَرْبَعِينَ عَامًا قَوَامَ حُكُومَةِ رَشِيدَةٍ عَادِلَةٍ يَغْمُرُهَا الشَّعْبُ بِحُبِّهِ وَتَقْدِيرِهِ»^(٥).

وَكَانَ مَتَسَامِحًا يُؤَثِّرُ الْعَفْوُ، مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْمُقَرِّي بِقَوْلِهِ: وَمِنْ حِكَايَاتِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي الْعَفْوِ أَنَّ الْمُعْتَصِمَ كَانَ قَدْ أَحْسَنَ إِلَى النَّحْلِيِّ الْبَطْلَيْوْسِيِّ، وَكَانَ النَّحْلِيُّ قَدْ سَارَ عَنْهُ إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ فَمَدَحَ مَلِيكُهَا الْمُعْتَصِمَ ابْنَ عَبَادَ بِشَعْرِ قَالَ فِيهِ (الْمُتْقَارِبُ):

أَبَادَ أَبْنُ عَبَادٍ الْبَرْبَرَا وَأَفْنَى أَبْنُ مَعْنٍ دَجَاجُ الْقِرَى

ثُمَّ نَسِيَ مَا قَالَهُ، فَلَمَّا حَلَّ بِالْمَرْيَةِ أَحْضَرَهُ الْمُعْتَصِمُ لِمَنَادِمَتِهِ، وَأَحْضَرَ لِلْعِشَاءِ مَوَائِدَ لَيْسَ فِيهَا غَيْرُ دَجَاجٍ، فَقَالَ النَّحْلِيُّ: يَا مَوْلَايَ، مَا عِنْدَكُمْ فِي الْمَرْيَةِ لَحْمٌ غَيْرَ الدَّجَاجِ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ تَكْذِيبَكَ فِيمَا قُلْتَ:

وَأَفْنَى أَبْنُ مَعْنٍ دَجَاجُ الْقِرَى

فَطَارَ سُكْرُ النَّحْلِيِّ، وَجَعَلَ يَعْتَذِرُ، فَعَفَا عَنْهُ الْمُعْتَصِمُ، وَلَكِنَّهُ خَافَ فَفَرَّ مِنَ الْمَرْيَةِ، ثُمَّ نَدِمَ فَكَتَبَ إِلَى الْمُعْتَصِمِ (الْمُتْقَارِبُ):

(١) أي عند حساب الآخرة بين يدي الخالق الكريم.

(٢) ستحدث عنه بالتفصيل في باب «شعراء المريّة في عهد المعتصم» ص ١٠٩.

(٣) نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٦ - ٣٦٧).

(٤) المغرب (ج ٢ ص ١٩٦).

(٥) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٩٨).

رَضَى ابْنُ صَمَادِحَ فَارَقْتُهُ فَلَمْ يُرْضِنِي بَعْدَهُ الْعَالَمُ
وَكَانَتْ مَرِيئَتُهُ جَنَّةً فَجِئْتُ بِمَا جَاءَهُ آدَمُ^(١)

وقد أورد ابن بسام هذين البيتين منسوبين إلى أبي عامر بن الأصيلي هكذا:

جَنَابُ ابْنِ مَعْنٍ تَجَنَّبْتُهُ فَلَمْ يُرْضِنِي بَعْدَهُ الْعَالَمُ
وَكَانَتْ مَرِيئَتُهُ جَنَّتِي فَجِئْتُ بِمَا جَاءَهُ آدَمُ^(٢)

وكان المعتصم أديباً ذا شاعرية فذة ستحدث عنها بإسهاب فيما بعد^(٣).

وكان يتزياً بحمل العِمَامَةِ ولبس البرُّنس؛ ذكر ابن الأبار أنَّ المعتصم ابن عباد، ملك إشبيلية، كتب إلى ذي الوزارتين أبي الحسن بن اليسع شعراً عرض فيه بالمعتصم ابن صمادح فقال (الكامل):

وَلَقَدْ ذَكَرْتُ فَرَادَ عَيْنِي قُرَّةً هُوَ السَّبَالِ وَخَزِي رَبِّ الْبُرْنُسِ^(٤)

وأخيراً نورد هذين البيتين لأبي طالب عبد الجبار المعروف بمتنبي الأندلس، من أرجوزته التي بلغت ثلاثة وخمسين وأربعمائة بيت، يوجز فيهما سيرة المعتصم وآله:

وَأَلْ مَعْنٍ مَلَكُوا الْمَرِيَّةَ بِسِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ مَرْضِيَّةٍ
ذَكَرَهُمْ فِي غَيْرِ مَا قَصِيدٍ يُشْرِقُ مِثْلَ النَّحْرِ بِالْفَرِيدِ^(٥)

٤ - وفاته ومدة إمارته:

فيما يتعلّق بتاريخ وفاة المعتصم فقد أنقسم المؤرّخون فريقين؛ فريق يرى أنّه توفي على فراشه إثرّ رحيل عساكر المرابطين عنه، وفريق يرى أنّه توفي على فراشه

(١) نفح الطيب (ج ٤ ص ٩).

(٢) الذخيرة (ق ٣ م ٢ ص ٦٧٣).

(٣) انظر «دور المعتصم في النشاط الأدبي» ص ١٠٥ وما بعدها.

(٤) الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٦ - ٨٧).

(٥) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٩٤٣) وخريدة القصر (ق ٤ ج ٢ ص ٩٥).

والمرابطون يحاصرونه . ولقد انسحب هذا التباين في الرأي على تحديد اليوم والشهر اللذين توفي فيهما الرجل ، فذهب بعضهم إلى أنه توفي عند طلوع الشمس يوم الخميس لثمانٍ بَقِيْنٍ من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة / ١٠٩١ م ، ودفن في تربة له عند باب الخوخة^(١) . وذهب البعض الآخر إلى أنه هلك في شهر ربيع الآخر سنة أربع وثمانين وأربعمائة^(٢) / ١٠٩١ م . وعلّق المعتمد ابن عباد على موته بقوله : «رجلٌ استصحب حال سَعْدِهِ ، من قصره إلى قبره ! كان الموت كأساً بيده ، فحين استطابها تَجَرَّعَهَا»^(٣) .

وكانت مدّة إمارة المعتصم بالمرية إحدى وأربعين سنة ، استناداً إلى قول الحجازي : «وكانت مدّة المملكة الصّمّادِيَّة نحو خمسين سنة ونيف ، ملّك المعتصم منها إحدى وأربعين وهو ابن أربع عشرة سنة»^(٤) ، وقول ابن عذاري : «فكانت مدّته إحدى وأربعين سنة»^(٥) . وخالفهما ابن الأبار الرأي فقال : «فكانت مدّة إمارته بالمرية أربعين سنة ، أشبه في ذلك خالهُ عبد العزيز بن المنصور ، صاحب بلنسية ، فإنّه وُلِّي سنة اثنتي عشرة وأربعمائة / ١٠٢١ م ، وتوفي سنة اثنتين وخمسين»^(٦) . أمّا ابن خلدون ، فقد خالف الجميع الرأي فذهب إلى أنّ المعتصم وَلِي المَريّة وأستبدّ بها أربعاً وأربعين سنة ، ولم يزل بها أميراً إلى أن هلك سنة ثمانين وأربعمائة / ١٠٨٧ م ، وولي أبْنُهُ ، وخلعه يوسف بن تاشفين سنة أربع وثمانين وأربعمائة / ١٠٩١ م^(٧) . ونحن بدورنا لا نوافق ابن خلدون رأيه ؛ لأنّه مغايرٌ للتاريخ ومخالفٌ لِمَا جاء به جميع الذين ترجموا للمعتصم ، ونُقِرُّ بما ذهب إليه الحجازي وابن عذاري .

(١) انظر وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٤) ، والكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٩٢) ، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٩٢) .

(٢) انظر الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٤) ، والتكملة (ج ٢ ص ٤٠١) ، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩١) .

(٣) انظر أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩١) .

(٤) انظر المغرب (ج ٢ ص ١٩٦) .

(٥) البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٨) .

(٦) الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٤) .

(٧) تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٥٠) .

الباب الثاني

دراسة اجتماعية واقتصادية وثقافية وعمرانية
لمملكة ألمرية في عهد
المعتصم ابن صمادح

مجتمع المرية في عهد المعتصم ابن صمادح

مبلغ الجهد في هذا الفصل أن ندرس المظاهر الاجتماعية لمملكة المرية، بهدف إلقاء أضواء مباشرة على حياة الناس فيها، ولكن الالتزام بما يمكن أن تُسرّه المصادر يجعل الكلام في هذه المظاهر ملاحظات عامة؛ إذ ليس لدينا من المصادر المتصلة بعصر المعتصم ما نستنتج منها صورة واضحة للحياة الاجتماعية بالمرية. وإذا كان هناك من ملاحظات، تكون في الغالب متصلة بحياة الطبقة الحاكمة. ورغم ذلك، فقد استطعنا أن ندلل الكثير من الصعوبات بحيث كونا فكرة عامة عن طبقات مجتمع المرية، والعناصر التي كان يتكون منها.

أولاً - سكان مجتمع المرية:

يتكون مجتمع المرية من عناصر مسلمة وأخرى غير مسلمة؛ فالمسلمة تنحصر في العرب، والبربر، والصقالبة، والمسالمة، والمولدين، وتنحصر العناصر غير المسلمة في المُستَغَرَبِينَ Los Mozarabes واليهود.

١ - العرب: هم أبرز العناصر التي يتكون منها مجتمع المرية. دخلوا الأندلس فاتحين، قادمين من المشرق ولا سيما من الشام، وأختاروا منذ البداية أخصب الأراضي وأفضلها للسكن. ويفضل دينهم ولغتهم تغلبوا على البلاد وأقاموا فيها حضارة عريقة في الفكر والفن والعمران والتنظيم والإدارة.

ولقد متنا علاقاتهم مع عناصر مجتمع المرية، فأختلطوا بهم عن طريق الزواج أو السكنى والمعاملة، فكان أن تزوج قسم كبير منهم من إسبانيات مما أسهم في توطيد علاقات الجوار بين مملكة المرية وممالك إسبانيا النصرانية.

وكانت اللغة العربية الفصحى اللغة الرسمية في مملكة المرية، بل لغة التفاهم بين أهلها، وقد سيطرت على مجتمع المرية وانتشرت بين عناصره برغم أنها اختصت بالأرستقراطيين والمثقفين. فالأرستقراطية احتلت مركز الصدارة في الحياة الثقافية: لأنها أكثر الطبقات تهيؤاً لتبني اللغة العربية وتعلمها وأستيعاب تاريخ أدبها، ومن خلال سيطرتها على مقاليد الحكم أمسكت باللغة العربية بشدة كما كانت الحال من قبل في عصر الدولة الأموية، فكان أن ظلت هذه اللغة لغة المملكة ولغة الأدب معاً^(١).

كذلك كانت اللغة العربية العامية مجالاً للتفاهم بين عناصر مجتمع المرية، ومجالاً للانتشار في كثير من خرجات الموشحات.

وفي الحقيقة أثر عرب المرية في حياة النصارى الإسبان تأثيراً كبيراً؛ لأن اختلاط العرب بالنصارى من شأنه أن يدفع هؤلاء إلى تقليد الآخرين، وأن تشيع الثقافة العربية في أوساطهم^(٢). وبذلك يكون النصارى قد مارسوا عادات العرب وتقاليدهم كختن صغارهم والامتناع عن أكل لحم الخنزير، وتعلموا لغتهم وأتقنوها^(٣). وما احتواء اللغة الإسبانية اليوم على ما يزيد على الأربعة آلاف كلمة عربية، وعلى كثير من تركيبات وتعابير لغوية عربية، إضافة إلى أنفرادها بين لغات أوروبا اللاتينية بامتلاكها أداة التعريف العربية وحرّفي الخاء (j, ge, gi) والشاء (ce, ci, z) إلا دليلاً على مدى هذا التأثير^(٤). وإليك بعضاً مما ذكرنا:

alferez	الزعفران	azafrán	الفارس (رتبة ملازم)
atalaya	الزيتون	aceituna	الطليلة
albañil	الزيت	aceite	البناء
adobe	ياسمين	jazmin	الطوب (الأجر)
alcalde	القطن	algodon	القاضي
alcazaba	المخدة	almohada	القصة
alcazar	شراب	jarabe	القصر

(١) راجع قصة الأدب في الأندلس (ج ١ ص ٢٢٦ وما بعدها).

(٢) انظر فصول في الأدب الأندلسي ص ١٥٢.

(٣) راجع في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٣٧٤، وأندلسيات ص ١٦٠، وفجر الأندلس ص ٤٢٥ وما بعدها.

(٤) انظر فصول في الأدب الأندلسي ص ١٤٧ - ١٤٩، وحضارة العرب في الأندلس ص ٨١ - ٨٤.

وهكذا عَرَفَتِ الثقافةُ العربيَّةُ في الأندلس كيف تستقي من حضارة المشرق وكيف تفرض نفسها فيما بَعْدُ خارجَ الحدود الإسلاميَّة. ولكن يجب ألا ننسى أنَّ التأثيرات كانت متبادلة بين عرب المريَّة والنصارى الإسبان. وبرغم رُجْحان كُفَّة ميزان العرب الكبير في التأثير، فإنَّ الإسبان آسَطَعُوا إلى حدٍّ ما أنَّ يُوَثِّرُوا في الثقافة العربيَّة وفي حياة عرب المريَّة الاجتماعيَّة. ودليل تأثرهم بالنصارى التزامهم يوم الأحد من كلِّ أسبوع عطلةً رسميَّة، مشاركين في ذلك نصارى بلدهم من جهة، ومخالفين مسلمي المشرق من جهة ثانية. وقد تمَّ ذلك في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م)، وظلَّ معمولاً به على الأقلِّ حتى أواخر القرن الخامس الهجري / أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، استناداً إلى نصِّ ابن حيَّان القرطبي المتوفَّى سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م: «وكان أوَّل مَنْ سَنَّ لِكُتَّابِ السُلْطَانِ وأهلِ الخِدمة تعطيلَ الخدمة في يوم الأحد من الأسبوع والتخلُّف عن حضور قصره (أي قصر الأمير محمد) قومُسُ بن أنتينان كاتبُ الرسائل للأمير محمد، وكان نصرانياً، دعا إلى ذلك لنسكه فيه، فَتَبِعَهُ جميعُ الكُتَّابِ طَلَبَ الاستراحة مِنْ تعبهم والنظر في أمورهم، فانتحوا ذلك، ومضى إلى اليوم عليه»^(١). وأيَّده المقرِّي في ذلك، فقال عند حديثه عن المنصور العامري: «أصبح المنصورُ صبيحةً أحدٍ، وكان يومَ راحةِ الخِدمة، الذي أَعْفُوا فيه من قصد الخِدمة»^(٢).

كذلك شارك عرب الأندلس المُسْتَعَرَبِينَ في أعيادهم مثل عيد ميلاد السيد المسيح، وعيد رأس السنة الميلاديَّة، وعيد العنصرة وهو عيد سان خوان San Juan الواقع في ستِّ بَقِيْنٍ من شهر حزيران، وخميس نيسان أو خميس العهد الذي يسبق عيد الفصح المسيحي بثلاثة أيام. وكانوا في هذه الأعياد يبتاعون الفواكه والحلوى كما كان يفعل النصارى تماماً^(٣). تجدر الإشارة هنا إلى أنَّه كان لمسلمي المريَّة أعيادٌ ومواسمٌ دينيَّةٌ على نسق ما كان يعرفه المشرق، كعيدي الفِطْرِ والأضحى، وعيد المولد النبوي، وموسم عاشوراء. كذلك عَرَفُوا أعياداً قوميَّةً كعيد العصير الذي كان، على ما اعتقد، مشتركاً لجميع عناصر مجتمع المريَّة. وكان هذا العيد، حسبما يذكر الدكتور

(١) المقتبس، تحقيق مكِّي. ص ١٣٨.

(٢) نفح الطيب (ج ١ ص ٤١٧).

(٣) انظر مجلة عالم الفكر (المجلد العاشر، العدد الثاني، ص ١٠٧).

أحمد مختار العبادي، يُقام عند جني محصول العنب وعصره، وهو المحصول الرئيسي هناك، بحيث كانوا ينتقلون إلى حقول الكرم عدة أيام يجمعون خلالها محصولهم في جو يسوده الغناء والرقص، وهي عادة ما تزال مستمرة في المرية وسائر مدن إسبانيا حتى اليوم^(١). ويضيف العبادي: كذلك كانوا يحتفلون في مناسبات أخرى كالانتصارات والزواج والإعذار (ختن الأبناء)، وذلك بوسائل مختلفة كالغناء والموسيقى والرقص وألعاب الفروسية وسباق الخيل وحفلات الصيد والقنص^(٢).

وإلى جانب ما ذكرناه، هناك التأثير الثقافي، حيث انتشرت الرومنشية، لغة النصارى، بين عرب المرية. والرومنشية هي الإسبانية القديمة المتولدة من اللاتينية والتي تطورت منها الإسبانية المكتوبة والمحكية اليوم في إسبانيا ودول أميركا اللاتينية، وقد عرفت عند المؤلفين الأندلسيين بأسم العجمية أو اللطينية، وعاشت بين أوساط المسلمين العرب بحيث أصبحت قبائل عربية كثيرة تُجيدُها^(٣). وكانت تلك اللغة عامية، لأن لغة الإسبان الفصحى والمكتوبة آنذاك كانت اللغة اللاتينية، وبالتالي فإن الخرجات الأعجمية في الموشحات الأندلسية كان يأخذها الوشاحون عن أفواه الناس وليس عن الكتب والأساتذة^(٤). ودليل انتشار هذه اللغة نص لابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م يستغرب فيه كيف أن قبيلة عربية، هي قبيلة بلي بن عمرو بن قضاة، لم تكن تُحسنُ التحدث باللطينية: «وإدار بلي بالأندلس، الموضع المعروف بأسمهم بشمالي قرطبة، وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم، لا يُحسنون الكلام باللطينية، ولكن بالعربية فقط، نساؤهم ورجالهم»^(٥). ويُستدل من كلامه أن سائر القبائل العربية كانت تُجيدُ اللغة اللطينية إلى جانب لغتها العربية، باستثناء هذه القبيلة التي كانت تعرف اللطينية ولكن لم تكن تُجيدُها إجادة غيرها.

وهناك نص آخر للخشني المتوفى سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م، يشير فيه إلى أن

(١) المصدر نفسه ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٨.

(٣) انظر في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٣٧١، ومجلة عالم الفكر (المجلد الثامن، العدد الأول ص ٨٣، ١٦٩ - ١٧٠) و(المجلد ١٠، العدد الثاني، ص ٦٦).

(٤) انظر الرجل في الأندلس ص ٤٧.

(٥) جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣.

بعض قضاة قرطبة كانوا أثناء المحاكمة يناقشون المتهمين باللغة الرومنشية: «قضى سعيد بن سليمان يوماً في المسجد (أي مسجد قرطبة) إلى أن مضى صدر النهار، ثم قام منصرفاً إلى داره، فلما هم بدخول الدار، فإذا بوالد نصر الفتى مُقبلاً وأعوانه يَبْنِ يَدَيْهِ، وكان أعجمي اللسان، فصاح على البعد بالعجمية: كَلِّمُوا الْقَاضِي يُثَبِّتْ عَلَيَّ أَكْلَمَهُ، فقال القاضي: قولوا له بالعجمية: إِنَّ الْقَاضِي قَدْ أَذْرَكَتْهُ الْمَلَالَةُ وَالسَّامَةُ مِنْ طَوْلِ الْجُلُوسِ لِلْقَضَاءِ.. ثم دخل القاضي داره ولم يقف عليه»^(١). وله نصان آخران يُشِيرُ في أحدهما إلى أَنَّ الْقَاضِي يُخَامِرُ بَنَ عَثْمَانَ الشُّعْبَانِي كَانَ يُجِيدُ الْعَجْمِيَّةَ^(٢). وَيُشِيرُ فِي النَّصِّ الْآخَرِ إِلَى أَنَّ الْقَاضِي سُلَيْمَانَ بْنَ أَسْوَدَ الْغَافِقِي تَحَدَّثَ فِي مَجْلَسِ حُكْمِهِ مَعَ امْرَأَةٍ بِالْعَجْمِيَّةِ^(٣).

وإذا نحن لم نَحْظْ بنصوص تبين مدى تأثير اللغة اللطينية على أهل المرية، فليس معنى ذلك أن هذه اللغة انحصرت في قرطبة وحدها.

وهكذا ظلت الحياة المشتركة بين عرب المرية ومسيحييها سائدة سنين طويلة.

٢ - البربر: أصل كلمة «بربر» هو اسم صوت غير مفهوم كان يُحْدِثُهُ هَوْلَاءُ الْقَوْمِ حِينَ يَتَكَلَّمُونَ، أي أنهم كانوا يبربرون في كلامهم. ذكر ابن حزم أَنَّ الْبَرْبَرِ مِنْ بَقَايَا وَلَدِ حَامِ بْنِ نُوحٍ، أَخِي سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَأَنَّهُمْ اخْتَلَطُوا مِنْذُ الْقَدَمِ بِأَصُولِ سَامِيَّةٍ، وَأَنَّ أَهْلَ بِيُوتَاتِهِمْ بِالْأَنْدَلُسِ مِكنَاسَةٌ، وَزَنَانَةٌ، وَمَضْمُودَةٌ، وَصِنَهَاجَةٌ^(٤).

ولقد تدفق البربر من المغرب على جزيرة الأندلس حتى ازداد عددهم وانتشروا في كافة المدن الأندلسية، وبرزوا في جميع حقول العمل والمعرفة. جُلُّهُمْ صُنَّاعٌ وَعَمَّالٌ وَفَلَاحُونَ اتَّخَذُوا الْمَنَاطِقَ الْجَبَلِيَّةَ الْوَعْرَةَ سَكَنًا لَهُمْ - لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا قَدْ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْأَرْضِي السَّهْلَةَ الْخَصْبَةَ - فَأَنْدَمَجُوا فِيهَا وَأَخَذُوا يُصَلِّحُونَهَا وَيَغْرِسُونَ فِيهَا كُلَّ أَنْوَاعِ الشَّجَرِ، وَيَرْبُونَ فِي أَدْغَالِهَا الْمَوَاشِيَ حَتَّى أَصْبَحُوا مَهَرَّةً فِي الزَّرَاعَةِ وَالْفَلَاحَةِ وَتَرْبِيَةِ الْحَيَوَانَاتِ الدَّاجِنَةِ. وَأَنْصَهَرُوا فِي الْمَجْتَمَعِ الْأَنْدَلُسِيِّ عَنْ طَرِيقِ الزَّوْاجِ، وَاتَّقَنُوا اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ إِتْقَانًا كَامِلًا إِلَى جَانِبِ تَعَلُّمِهِمُ اللُّغَةَ الرُّومَنِيَّةَ؛

(١) قضاة قرطبة ص ١٣٩.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٣.

(٣) قضاة قرطبة (ص ١٦٦ - ١٦٧).

(٤) جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٥، ٤٩٩ - ٥٠١.

ذلك أن لغتهم البربرية لم تكن مكتوبة عندهم، فزالت مع الوقت ولم تعد تصمد أمام اللغتين العربية والرومسية.

٣ - الصقالبة: هم أولئك الأرقاء الذين يُتسبون إلى جنسيات أوروبية مختلفة، وكان النّخاسون يحملونهم من شمالي أوروبا ويبيعونهم إلى عرب الأندلس عن طريق فرنسا. والنّخاسون هم من القبائل الجرمانية، الذين دأبوا على سبي رجال ونساء الشعوب السلافية (سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأدرياتي غرباً، وهي البلاد التي كانت آنذاك تحمل اسم بلغاريا)، ويبيعهم إلى عرب الأندلس. لذلك سُموا بالسّلاف esclavo بمعنى الرقيق أو العبيد بالإسبانية. وقد عرب عرب الأندلس اسم السّلاف إلى صقلب، ومنها «صقلي» و«صقالبة»، وتوسّعوا في هذا الاسم فأطلقوا اسم «صقلي» على كل عبد جلب من أية أمة مسيحية، وأصبح هذا اللفظ عندهم يستعمل للرقيق الأبيض على الإجمال. وكانوا يسمّونهم الخرس لعجمة ألسنتهم^(١).

وذكر النويري أن الصقالبة أجناس متعدّدة؛ منهم من كان على دين النصرانية، ومنهم من لا شريعة له^(٢).

وكان معظم الصقالبة يُجلبون أطفالاً إلى الأندلس، فنشأوا على اعتناق الدين الإسلامي، وتعلّموا اللغة العربية، واكتسبوا الكثير من عادات مؤدّبهم. واستعمل الذكور منهم للخدمة أو الحرب، والإناث للتسري، والخصيان لحراسة الحريم؛ إذ كان الثّجار اليهود يخصّصونهم ويقدمونهم إلى الحكّام^(٣).

ولقد بدأ الأندلسيون يستخدمونهم منذ عهد الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٨ م)، ولكن دون أن يستكثروا منهم؛ لأن الأمير المذكور قلّما كان يرغب فيهم. وأول من استكثر منهم هو حفيده الحكم بن هشام^(٤) (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢١ م).

(١) انظر تاريخ التمدن الإسلامي (ج ٢ ص ٤٩٤ - ٤٩٥)، ومجلة عالم الفكر (المجلد العاشر العدد الثاني، ص ٩١).

(٢) نهاية الأرب (ج ٥ ص ٢٨٤).

(٣) انظر تاريخ التمدن الإسلامي (ج ٢ ص ٤٩٥)، ومجلة عالم الفكر (المجلد العاشر، العدد الثاني، ص ٦٠، ٩٢).

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي (ج ٢ ص ٤٩٥).

وعن دورهم في الحياة الاجتماعية نستشهد بقول الأستاذ أحمد أمين: «إن بيوت الأمراء والوزراء حتى والأوساط كانت مملوءة بالرقيق، وهذا الرقيق منه الإسباني والفرنسي وأسرى الحرب من أمم مختلفة، وهم يُسمَّون كل ذلك الصقالبة.. وهؤلاء الأرقاء من رجال ونساء لعبوا دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية الأندلسية؛ فقد كانوا ينقلون أفكار الأوروبيين، إذ كان بعضهم من الخاصة، وكانوا ينقلون عادات أممهم وتقاليدهم، ومن تعلم اللغة العربية منهم كان ينقل الأفكار والأقاصيص الأوروبية باللغة العربية»^(١).

٤ - المُسالمة أو الأسالمة: إنهم أولئك النصارى الإسبان الذين أسلموا وتدينوا بالإسلام. ولقد بدأوا يُقدِّمون على اعتناق الدين الإسلامي من لدن الفتح العربي للأندلس؛ وذلك بدافع تحسين وضعهم المُزري وحُب الخلاص من البؤس الذي كان يُعْمَهُم في أواخر الحكم القوطي، أو بدافع الاقتناع بأن الإسلام هو الدين الحق وأن الإسلام حامي المظلوم ومساعد الجائع، أو بدافع التخلص من دفع الجزية التي كانوا يؤدونها كونهم من أهل الكتاب. وأُطلق اسم المولدين Los Muladies على أبناء هؤلاء الأسالمة^(٢).

وذهب الدكتور أحمد مختار العبادي إلى أن المولدي هو من كانت أمه إسبانية ووالده مسلماً، وأن كل مولدي مسلم^(٣). وذهب الدكتور أحمد أبو زيد مذهبه فقال: عن طريق زواج العرب بالإسبانيات برز عنصر المولدين الذين أصبحوا فيما بعد يشكّلون معظم سكان المجتمع الأندلسي، وهؤلاء تعلموا لغة أمهاتهم وعاداتهن، بحيث أنتشرت اللغة الرومشتية إلى جانب العربية^(٤).

ومنذ بداية القرن الرابع الهجري / القرن العاشر الميلادي والمولدون يشكّلون نواة هامة من مجموع أهالي البلاد، لهم دورهم البارز في الزراعة والصناعة والإدارة والجيش^(٥).

(١) ظهر الإسلام (ج ٣ ص ٣٠٣).

(٢) انظر فصول في الأدب الأندلسي ص ٢٩.

(٣) مجلة عالم الفكر (المجلد الثامن، العدد الأول ص ٤٢).

(٤) مجلة عالم الفكر (المجلد الثاني عشر، ص ٦-٧).

(٥) راجع حضارة العرب في الأندلس ص ١٣، و p.20.

ولقد اختلطوا بالعرب عن طريق التزاوج والولاء، واتخذ بعضهم الأنساب العربية ليثبتوا أنهم قديمو العهد بالإسلام، ومنهم من نسي أصله، ومنهم من ظل على نسبه القديم مثل بني مرتين Martin، وبني بشكوال Pascual، وبني غرسية Garcia، وبني غومس Gomez. . . ومنهم من أضاف إلى اسمه العربي المقطع الإسباني «أون On» فأصبح حزم «حزمون»، وزيد «زيدون»، وحفص «حفصون». . . وهكذا ظل قسم منهم يتعصب لأصله العجمي^(١).

كما أتقنوا اللغة العربية وتمكنوا من الكتابة، فبرز منهم الأدباء والشعراء، حتى كان دورهم في نقل الحضارة العربية إلى إسبانيا المسيحية كبيراً؛ إذ عملوا على تطور التداخل الذي حصل بين لغتهم العربية التي اكتسبوا وبين الرومنشية لغة أمهاتهم وأجدادهم.

٥ - المُستعربون Los Mozarabes إنهم أولئك النصارى المعاهدون الذين عاشوا بين عرب المرية. وكان العرب قد أطلقوا عليهم في بادئ الأمر اسم «عجم الأندلس». وقد سُموا بالمُستعربين، بفتح الراء؛ لأنهم استعربوا لغةً وزياً، أي إنهم ارتدوا بإرادتهم الزي العربي، وأتخذوا بإرادتهم العربية لغةً، فأقبلوا على قراءة شعر العرب وأدبهم^(٢). وذهب الدكتور سعيد عاشور إلى أنهم تعلموا العربية لمسايرة الوضع الجديد^(٣).

ومهما يكن الأمر، فقد أتقنوا اللغة العربية إلى جانب لغتهم الرومنشية، وأتخذوا أسماء عربية إلى جانب أسمائهم المسيحية. وبحكم معرفتهم هاتين اللغتين، فإنهم لعبوا دوراً هاماً في نقل الحضارة الإسلامية إلى الممالك الإسبانية حيث أنتشرت ثقافة العرب المسلمين وعاداتهم^(٤).

ولقد عاش هؤلاء النصارى في المرية بسلام، كما في سائر مدن الأندلس، يزاولون شعائرهم الدينية بحرية تامة مقابل دفع الجزية للمسلمين تمشياً مع الشريعة الإسلامية، كونهم من أهل الكتاب. وهكذا أحترمهم العرب وعاملوهم معاملة حسنة،

(١) انظر مجلة عالم الفكر (المجلد العاشر، العدد الثاني، ص ٦٥ - ٦٦).

(٢) انظر فجر الأندلس ص ٤٢٥ - ٤٢٩، وأندلسيات ص ١٦٠.

(٣) مجلة عالم الفكر (المجلد العاشر، العدد الثاني، ص ١٨٨).

(٤) انظر في التاريخ العباسي والأندلسي، ص ٣٧٤، ومجلة عالم الفكر (مجلد ١٢، ص ١٧).

فأَبْقُوا لَهُمْ أَمَاكِنَ الْعِبَادَةِ، يَقرَعُونَ فِيهَا نَوَاقِيسَهُمْ بِحَرِّيَّةٍ^(١). وقد تجلَّى ذلك في قول
أَبْنِ حَزْم (البسيط):

أَتَيْتَنِي وَهَلَالُ الْجَوِّ مُطْلَعٌ قُبَيْلَ قَرَعِ النَّصَارَى لِلنَّوَاقِيسِ^(٢)

وهكذا كانت العلاقة بين المسلمين والنصارى طبيعية، فشاعت المصاهرة بين
الفريقين، ولكن زواج المسلمين بإسبانيات فاق بكثير زواج الإسبان من مُسلمات.
وتلك ظاهرة اجتماعية تبين مدى التأثير الإسباني على عقول وعواطف عرب الأندلس
ومسلميها^(٣).

ويقدِّم لنا أَبْنُ الْحَدَاد صورة موجزة عن ذلك التعايش، في شعره الذي أستفرغ
معظمه في نونية النصرانية فيقول^(٤) (السريع):

فإِنَّ بِي لِلرُّومِ رُؤْيِيَّةٌ تَكْنِسُ مَا بَيْنَ الْكَنِيسَاتِ^(٥)
أَهِيْمُ فِيهَا، وَالْهَوَى ضَلَّةٌ بَيْنَ صَوَامِيعَ وَبَيْعَاتِ^(٦)

ويقول (الطويل)^(٧):

وَلَا بُدَّ مِنْ قَصِيٍّ عَلَى الْقَسِّ قِصَّتِي عَسَاهُ مُغِيثُ الْمُذْنَفِ الْمُتَغَوِّثِ^(٨)

(١) انظر مجلة عالم الفكر (المجلد العاشر، العدد الثاني، ص ٦٠).

(٢) رسائل ابن حزم (ج ١ ص ٢٨٢) وطوق الحمامة ص ٢٨٧.

(٣) راجع مجلة عالم الفكر (المجلد العاشر، العدد الثاني، ص ٦٢ - ٦٤).

(٤) ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ١٥٧) والذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٠٥) والمحمدون من الشعراء (ص ٩٩).

(٥) المقصود بالروم النصارى الإسبان. والرومية هي نونية المُستَغْرِبة. وتكنس: تقيم. والكنيسات: الكنائس،
وقد وقع الشاعر في خطأ لغوي، لأن الكنيسة تجمع على كنائس وليس على كنيسات.

(٦) الضَّلَّة بفتح الضاد: الخيرة والصواميع. أصلها صوامع وهي جمع صومعة، والصومعة بيتٌ لعبادة
النصارى، وقد زيدت الياء وهي أحد حروف الإشباع. ولو قال: «صوامع» لما أنكسر الوزن.
والبيعات: جمع بيعة وهي الكنيسة ومُتَغَوِّثُ النصارى.

(٧) ورد البيتان في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ١٧١)، والذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٠٦)، والإحاطة
(ج ٢ ص ٣٣٥) بتحقيق عنان، وفي الإحاطة التي لا تحمل أسم المحقق (ج ٢ ص ٢٥٢).

(٨) القَس: رئيس من رؤساء النصارى في الدِّين والعلم، وهودون الأسقف. والمُذْنَف: مَنْ بَرَأهُ المَرَضُ
حتى أَشْفَى على الموت. وفي قوله «المُتَغَوِّثُ» يخرج عن المؤلف فيشتق ما لا يسمح به الاشتقاق؛ إذ
ليس في كتب اللغة فعل «تَغَوِّثُ» بل «غَوِّثُ»، فيقال: غَوِّثَ الرَّجُلُ وَأَسْتَغَاثَ إِذَا صَاحَ: وَاعْثَوْنَاهُ! لسان
العرب والقاموس المحيط، مادة (غوث).

فَلَمْ يَأْتِهِمْ عِيسَى بِدِينٍ قَسَاوَةٍ فَيَقْسُوا عَلَى مُضْنَى وَيَلْهُو بِمُكَرَّتٍ^(١)

ويقول أيضاً (مجزوء الوافر):

عَسَاكَ بِحَقِّ عَيْسَاكَ مُرِيحَةَ قَلْبِي الشَّاكِي
فَإِنَّ الْحُسْنَ قَدْ وَلَا لِكَ إِحْيَائِي وَإِهْلَاكِي
وَأَوْلَعَنِي بِضُلْبَانٍ وَرُهْبَانٍ وَنُسَاكَ
وَلَمْ آتِ الْكِنَاسَ عَنْ هَوَى فِيهِنَّ لَوْلَاكَ^(٢)

٦ - اليهود: يعود تاريخ دخولهم بلاد الأندلس إلى ما قبل الفتح العربي بمئات السنين وأغلب الظن أنهم قدموا الأندلس في عهد الرومان في سنة ٧٠ م بعد هدم اورشليم. ولما تعرضوا للمضايقات في عهد القوط، بحيث فرض عليهم هؤلاء شروط اعتناق الدين المسيحي أو الهجرة، هبوا أنفسهم للثأر من تلك المعاملة السيئة، فاستقبلوا الفاتحين العرب وساعدوهم بكل قدراتهم السياسية والعسكرية. وبالمقابل، كانت ثقة العرب بهم كبيرة، فأعتمدوا عليهم في حماية المدن المفتوحة؛ فكان لهم، كالمُستعربين، مؤسساتهم الإدارية والقضائية، وكان لهم مدرسة دينية خاصة بهم. وهكذا ترك لهم العرب حرية العقيدة وحق مزاوله شعائرهم الدينية وحرية التنظيم الداخلي لجماعاتهم^(٣).

وبفضل هذا التسامح العربي، بدأ عدد اليهود يتزايد مع الزمن، ولكن عددهم في المرية كان قليلاً إذا ما قيس بقرطبة، وطليطلة، وغرناطة التي كانت تدعى مدينة اليهود. ورغم ذلك، تحسن وضعهم الاجتماعي في المرية، ولم يلقوا مضايقة إلا في غرناطة^(٤).

واعتنق كثير منهم الدين الإسلامي، ومارسوا عادات المسلمين وتقاليدهم، وأتقنوا اللغة العربية إلى جانب لغتهم العبرية واللغتين الرومانيّة واللاتينية اللتين تعلّموهما منذ أيام الرومان والقوط. وتعلّم اللغات ساعدتهم في عملهم الذي

(١) المُضْنَى: مَنْ أَضْنَاهُ الْمَرَضُ أَيْ أَثْقَلَهُ. وَالْمُكَرَّتُ: مَنْ أَشْتَدَّ عَلَيْهِ النَّم.

(٢) الأبيات في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ٢٤١) وفي الذخيرة (ق ١ ص ٧٠٧).

(٣) انظر Garnata al-Yahud, p. 19, 37, 47.

(٤) Ibidem (p. 69, 74).

أنحصر، إلى حدٍّ كبير، في تجارة العبيد والجواري والخُصيان والحرير والفرو. كما شاركوا في تقدّم المريّة من الناحيتين الاجتماعية والسياسيّة. نذكر بالمناسبة أنّ الوزير اليهودي يوسف ابن نغراثة، المستولي على دولة باديس بن حَبّوس بغرناطة، أراد أن يُثَلَّ عرش باديس بعرش المعتصم، فسعى إلى الإطاحة بباديس وتمكين المعتصم من الاستيلاء على غرناطة^(١). وهذه الحادثة دليل على مدى العلاقة الوطيدة بين المعتصم واليهود. والمجتمع الذي هو خليط من عناصرٍ عديدةٍ وهُويّاتٍ عُرقيّة، من شأنه أن يفتقر إلى العيش المشترك، إلّا أن مجتمع المريّة عُرِفَ بعيشٍ مشتركٍ تراءى من خلال التعايش الذي كان قائماً بين المسلمين العرب وسائر العناصر ولا سيما النصارى منهم.

ثانياً - صفات أهل المريّة :

تنحصر صفات أهل الأندلس بكثرة التدين، والبعد عن التعصّب الديني، وكثرة النظافة، والبعد عن الإسراف والتبذير مع كرم النفس والجود، وحب الموسيقى والغناء واللهو والجد والهزل معاً.

وإذا كانت تلك هي صفات وطباع وعادات وتقاليدهم شعب الأندلس، فإن أهل المريّة جزء من هذا الشعب، وبالتالي فإن ما يقال في أهل الأندلس عامة يمكن أن يقال في أهل المريّة، وإن ما يتصف به أهل الأندلس يمكن أن ينطبق على أهل المريّة.

والأغلب عند الأندلسيين إقامة الحدود وإنكار التهاون بتعطيلها؛ فالرجم بالحجر كان يجري كل يوم حتى بات المنفلتون في الأندلس قلة. وكان عالم الدين كثير الجلال والتقدير، وكانت قراءة القرآن ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة، وسمة الفقيه عندهم جليّة، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي «فقيه»؛ لأنّها عندهم أرفع السّمات. وعلم الأصول عندهم متوسط الحال^(٢). أمّا مذهبهم الديني فكان مذهب مالك بن أنس، وقد أنتقل هذا المذهب إلى الأندلس

(١) ورد ذلك في الصحيفة ٣٧ عند الحديث عن سياسة المعتصم الخارجية.

(٢) انظر نفح الطيب (ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٢١).

بسبب رحلة علمائها إلى المدينة وأخذهم الكثير من فضائل مالك، وذلك في دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، المعروف بالحكم الرّبيضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢١ م)، إذ كانوا من قَبْلُ على مذهب الأوزاعي الشامي، لتأثرهم آنذاك بالشاميين الداخلين مع الجُند أيام الفتح^(١). ورأى الدكتور أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد عبدالله عنان أن هذا المذهب غلب على أهل الأندلس في فترة إمارة هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ - ١٨٠ / ٧٨٩ - ٧٩٦ هـ)^(٢). تجدر الإشارة هنا إلى أن عبد الملك بن حبيب، المتوفى سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م، هو الذي درس الفقه على مذهب مالك في المدينة المنورة، وكان من أكبر العاملين على تحويل الأندلس إلى المالكية^(٣).

وإذا كان أهل المرية شديدي التعصب لمدينتهم، فإنهم آبتعدوا عن التعصب الديني، ويتجلى ذلك في تسامحهم لأهل الكتاب مُستغربين ويهوداً، في أن يُمارسوا شعائرهم الدينية بحرية تامة.

وكان أهل المرية، كغيرهم من شعوب الأندلس، أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، فأشتهر عنهم شدة العناية بها. وكانوا أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوفٌ ذل السؤال، فلذلك قد يُنسبون إلى البخل^(٤). وكانوا يتعدون عن الكذبة بحيث لا تكاد تجد سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر^(٥). كذلك كان فضلهم ظاهراً في اللّهُو والحبّ؛ فلم يدعوا وحلاوة في محاوراتهم، وحكايتهم في الجِدّ والهزل مشهورة^(٦).

وقد أجمل المقرئ ما ذكره ابن غالب في كتابه «فرحة الأنفس» من صفات أهل الأندلس بقوله: لأهل الأندلس حُسنُ الهمة في الملبس والمطعم، والنظافة والطهارة، والحبّ للهو والغناء، والحرص على طلب العلم. إنهم عرب في الأنفة وعلو الهمة وفصاحة الألسن وقلة احتمال الذلّ، هندیون في إفراط عنايتهم بالعلوم، بغداديون في

(١) انظر نفع الطيب (ج ٣ ص ٢٣٠).

(٢) في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٣٢٤ ونهاية الأندلس ص ٦٥.

(٣) انظر مجلة عالم الفكر (المجلد الثالث عشر، العدد الثاني، ص ٢٩٢).

(٤) انظر نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٣.

(٥) المصدر نفسه ص ٢٢٠.

(٦) المصدر نفسه (ج ٣ ص ٣٨١).

ظرفهم ونظافتهم ورقّة أخلاقهم، يونانيّون في استنباطهم للمياه واختيارهم لأجناس الفواكه وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر، صينيّون في إتقان الصنائع العمليّة، تركيّون في معاناة الحروب^(١).

وقول ابن حوقل: «ومن أعجب ما في هذه الجزيرة (الأندلس) بقاؤها على مَنْ هي في يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبُعدهم من اليأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومِراس الأنجاد والأبطال»^(٢)، مردود؛ لأنّه قول رجلٍ أنطلق من تعصّب للمغرب وكراهية للأندلس، خاصّة إذا عَرَفْنَا أَنَّ الخليفة الفاطميّ المُعِزَّ لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٥ م) أرسله جاسوساً له إلى الأندلس. وقد ردّ عليه ابن سعيد الأندلسي بقوله: «وليت شعري إذ سلّب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة فَمَنِ الذين دَبَّروها بأرائهم وعقولهم مع مُراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف»^(٣)؟.

وأخيراً نشير إلى أهمّ ما أمتاز به أهل المريّة بقول الشُّقْندي: «وأما المريّة، فإنّها البلد المشهور الذِّكر، العظيم القدر، الذي خُصَّ أهلُه بآعتدال المزاج، ورونق الدِّياج ورقّة البشرة، وحُسن الوجوه والأخلاق، وكرم المعاشرة والصحبة»^(٤)، وقول ابن سعيد الأندلسي: «وَمِمَّا تَفْضُلُ به (أي المريّة) آعتدالُ الهواء، وحُسنُ مزاج أهلها، وطيبُ أخلاقهم، ولطفُ أذهانهم»^(٥).

ثالثاً: زي أهل المريّة:

غلب على أهل المريّة، كما غلب على أهل شرق الأندلس، ترك العمائم؛ إذ إنّ أهل غرب الأندلس لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلّا وهو بِعِمَامَةٍ. وقليل من الأجناد وسائر الناس مَنْ تراه بِعِمّة، سواءً في المريّة أو في غيرها من شرق الأندلس وغربها، ولا سبيل إلى يهوديّ أن يتعمّم البتّة. وكان معظم عوامّهم

(١) نفح الطيب (ج ٣ ص ١٥٠ - ١٥١).

(٢) نفح الطيب (ج ١ ص ٢١١).

(٣) المصدر نفسه ص ٢١٢.

(٤) فضائل الأندلس وأهلها ص ٥٨، ونفح الطيب (ج ٣ ص ٢١٩).

(٥) المغرب في حلى المغرب (ج ٢ ص ١٩٣).

يستعملون الطِّلَسَان^(١)، ولكن دون أن يُغَطُّوا به رؤوسهم، والذين كانوا يضعونه على رؤوسهم هم الأشياخ المعظَّمون. وكثيراً ما كانوا يَلْبَسُونَ غفائر^(٢) الصوف الأحمر والخضر، والصُّفْرُ مخصوصة لليهود. وكان العالم فقط يُرْخِي ذِوَابَةً وَيُسْدِلُهَا من تحت الأذن اليسرى^(٣).

كذلك كان لبس البياض عاداتهم في الحزن على موتاهم، مخالفين في ذلك أهل المشرق الذين كانوا يَلْبَسُونَ فيه السواد. وفي ذلك يقول أحد الشعراء (الوافر):

أَلَا يَا أَهْلَ أُنْدَلُسٍ فَطِئْتُمْ بِلُطْفِكُمْ إِلَى أَمْرِ عَجِيبٍ
لَبِئْسْتُمْ فِي مَاتِمِكُمْ بِيَاضاً فَجِئْتُمْ مِنْهُ فِي زِيٍّ غَرِيبٍ
صَدَقْتُمْ فَالْبِياضُ لِبَاسُ حُزْنٍ وَلَا حُزْنٌ أَشَدُّ مِنَ الْمَشِيبِ^(٤)

ولا ننسى أثر أبي الحسن علي بن نافع، الملقب بزرياب^(٥)، في الزي الأندلسي، فقد علَّم الأندلسيين كيفية ارتداء الملابس في أوقاتها المناسبة، بحيث جعل لكل فصل من فصول السنة ملابس خاصة به، فرأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم للملّون من يوم مهرجان أهل البلد، المُسمَّى عندهم بالعنصرة^(٦)، الواقع في ستِّ بَقِيْنٍ من شهر حزيران من شهورهم الروميّة، وذلك مدة ثلاثة أشهر متوالية حتى أول شهر تشرين الأول. ورأى أن يلبسوا في فصل الربيع جباب الخَزْ، وأن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف الثياب الملّونة ذوات البطائن الكثيفة. كما علّمهم طريقة تصفيف الشعر، وضرورة ترتيب الأطعمة، وسنّ لهم أكل الهليون، ولم يكونوا يعرفونها قبله. كذلك أخذوا عنه تفضيله آنية الزجاج

(١) هو ثوب أخضر موصول به غطاء الرأس.

(٢) الغفائر: جمع غفيرة وهي لباس يغطي العنق والقفار.

(٣) راجع نفح الطيب (ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٣).

(٤) نفح الطيب (ج ٣ ص ٤٤٠ - ٤٤١).

(٥) عن شخصية زرياب انظر: زرياب أبو الحسن علي بن نافع موسيقار الأندلس «للدكتور محمود أحمد الجفّي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة. و«أثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والإيقاع» للدكتور عباس الجراري في مجلته عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، ص ٢١ وما بعدها.

(٦) هو عيد سان خوان San Juan عند الإسبان. راجع عالم الفكر (المجلد ١٠ العدد ١، ص ١٠٧).

الرفيع على آنية الذهب والفضة، مُحدثاً بذلك انقلاباً في حياة الأندلسيين الاجتماعية^(١).

رابعاً - الموسيقى والغناء في المرية:

نشطت حركة الموسيقى والغناء في عصر المعتصم ابن صمادح، وكان النخاسون يقومون بتعليم الجواري الروميات الغناء ليكسبوا في بيعهن الأموال الوفيرة، فأقتنى ملوك الطوائف المغنيات المشهورات، وأقبل أهل الأندلس من مختلف طبقاتهم على الفن الغنائي، حتى إن الفقهاء كانوا يستحسنونه، وأصبحت الموسيقى العربية ذات أثر في أذواق غير العرب في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا^(٢).

وكان أهل المرية، كغيرهم من شعوب الأندلس، مشغوفين بسماع الموسيقى والغناء. وكانت المرية، كغيرها من مدن الأندلس، تعتمد إلى حد كبير على حركة الموسيقى والغناء التي شاعت في الأندلس منذ قدوم زرياب من المشرق إلى قرطبة. وكان المعتصم ابن صمادح كثير الاهتمام بالغناء؛ ذكر ابن عبد الملك أن ابن الحداد، شاعر المعتصم ابن صمادح ألف كتاباً مشهوراً في العروض هو كتاب «الامتعاظ للخليل»، مَزَجَ فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية^(٣). وأشار ابن بسام إلى هذه الناحية، ولكن دون أن يُسمي الكتاب^(٤). وعن هذه الأنحاء الموسيقية لا يمكننا أن نتصور طبيعتها؛ لأن كتاب ابن الحداد من الكتب التي لم تصلنا. ولكننا نقدر أن الأصول التلحينية التي وضعها زرياب ظلت أساساً للغناء الأندلسي، وربما جددت تفريعات في شؤون الألحان آقتضتها طبيعة الموشحات والأزجال. كما إن المصادر لم تُشر بوضوح إلى ما كانت عليه الموسيقى في الأندلس في عصر ابن الحداد، وظلت

(١) راجع نفح الطيب (ج ٣ ص ١٢٧ - ١٢٨)، والمطرب ص ١٤٧، وشمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٩٠، وحضارة العرب في الأندلس ص ٥٠ - ٥١.

(٢) انظر أخبار الغناء والمعنيين في الأندلس (١٣٨ - ٥٣٩ هـ) للدكتور إحسان عباس، مجلة الأبحاث، السنة ١٦، الجزء الأول، ص ١٢ - ١٨.

(٣) الذيل والتكملة (السفر السادس، ص ١٠).

(٤) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٦٩٢).

الناحية الموسيقية قبل ظهور ابن باجة إمام الأندلس في الألحان في فترة المرابطين غير واضحة المعالم^(١).

ولم تقتصر الموسيقى في الأندلس على طبقة خاصة كما في المشرق، وإنما عَمَّت الشعب كله^(٢). وهكذا أهتم مجتمع المرية بالغناء والموسيقى؛ لأن الغناء كما يقول ابن عبد ربّه: «مراد السمع، ومرتع النفس، وريع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد، وزاد الراكب؛ لعظم موقع الصوت الحسن من القلب، وأخذ به بمجامع النفس»^(٣). وذهب الدكتور أحمد مختار العبادي إلى أن الغناء والموسيقى كانا في الأندلس أكثر انتشاراً مما كانا عليه في المشرق؛ لأن أهل الأندلس كانوا كثيري التعلّق بهما، بحيث أنتشرا في القصور والحقول، وفي الأسواق والخوانيت والبيوت والمنتزهات^(٤). وذكر المستشرق الإسباني إميليو غرسيّة غومس أن الفيض من الأنغام المشرقية، التي حملها معه زرياب إلى إسبانيا الإسلامية والتي ترجع في منشأها البعيدة إلى أصول يونانية وفارسية، أصبح الأصل النغمي للموسيقى الإسبانية^(٥). وذكر الدكتور إحسان عباس أن الغناء كان وسيلة من وسائل نقل التلاحين العربية إلى ما وراء الحدود الإسلامية بالأندلس وطريقاً إلى التأثير العربي عامة^(٦). وأشارت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه إلى ذلك بقولها: بدأت النظريات الموسيقية العربية تظهر في الموسيقى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين عن طريق المغنين الدائمي الترحال، والسبايا من نساء الأندلس، وظلّت أوروبا مدينة لعرب الأندلس بالكثير من الآلات الموسيقية^(٧).

وأخيراً نقول: كان الغناء عاملاً مساعداً في رفع مستوى الحياة الاجتماعية في المرية وفي غيرها من المدن الأندلسية.

(١) راجع المغرب في حلى المغرب (ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٠) وتاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ص ٥٠ - ٥١.

(٢) انظر تاريخ الموسيقى العربية ص ٢٢١.

(٣) العقد الفريد (ج ٦ ص ٣).

(٤) انظر مجلة عالم الفكر (المجلد العاشر، العدد الثاني، ص ١١٠).

(٥) Poemas arábigoandaluces, p. 27.

(٦) تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ص ٥٣.

(٧) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٩٢.

خامساً: نساء ألمرية:

أكثرُ نساء ألمرية جَوَارٍ، مما يدلُّ على أنَّ الرقيق كان كثيراً. وكانت الجواري متفاوتاتٍ في المنزلة الاجتماعية؛ فمنهنَّ اللواتي يُتَّخَذْنَ للخدمة، ومنهنَّ اللواتي يُتَّخَذْنَ للذة والنسل، والفريق الثاني بطبيعة الحال أرفع منزلةً من الأول^(١). حكى المقري أنَّ المعتصم ابن صمادح كان ينتقي جارياته من بين اللواتي كُنَّ يَقْلُنَّ الشعر، فقال: «غاية المنى، وهي جارية أندلسية متأدبة، قَدِمَتْ إلى المعتصم ابن صمادح، فأراد اختبارها فقال لها: ما أسمك؟ فقالت: غاية المنى، فقال لها: أجيزي (مجزوء الخفيف):

اسألوا غَايَةَ الْمُنَى

فقالت:

من كَسَا جِسْمِي الضَّنَا

قال:

وأراني مولهاً

فقالت:

سَيَقُولُ الْهَوَى أَنَا

وأضاف: اشتراها المعتصم لما علم أنها تقول الشعر وتُحَسِّنُ المحاضرة^(٣).

وكانت حرّية الحركة، يقول الدكتور إحسان عباس، مفصورة على هؤلاء الجواري، وإنَّ المرأة الحرة كانت مقصورة تعيش خلف حجاب غليظ ولعلها تُشبه في ذلك أختها في المشرق^(٤).

والحقيقة أنَّ نساء ألمرية كُنَّ، كغيرهنَّ من نساء مدن الأندلس، أكثر تحرراً من نساء المشرق. يذكر ابن الخطيب أنهنَّ كُنَّ في المناسبات يَخْرُجْنَ في جماعات كبيرة ويختلطن بالرجال، وقد وصف ذلك في مناسبة استقبال سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف بن نصر بقوله: «وآختلط النساء بالرجال، وآلتف أربابُ الحِجَابِ برَبَّاتِ الحِجَالِ، فلم نُفَرِّقْ بين السُّلَّاحِ والعيون المِلاحِ، ولا بَيْنَ حُمُرِ البُنُودِ وَحُمُرِ الخدود»^(٥). وعند حديثه عن مدينة رنده Ronda يُشير إلى زِيِّ نساؤها: «يَلْبَسُ نساؤها

(١) راجع رسائل ابن حزم الأندلسي (ج ١ ص ٦٨ - ٦٩).

(٢) نفح الطيب (ج ٤ ص ٢٨٦).

(٣) المصدر نفسه (ص ٢٨٦ - ٢٨٧).

(٤) رسائل ابن حزم (ج ١ ص ٧٠).

(٥) مشاهدات لسان الدين ص ٥٠.

المُوق^(١)، على الأملد المرموق، ويُسْفِرُنْ عن الخدَّ المعشوق، ويُعِشْنَ قلبَ
المشوق، بالطَّيبِ المنشوق. .^(٢)

وحرائر المريّة كان لهنَّ اليدُ الطَّوْلَى في البلاغة، فنظَّمْنَ الشَّعْرَ والموشَّحات،
ومنهنَّ أمُّ الكرم أو الكرام بنت المعتصم ابن صمادح ملك المريّة، القائلة في فتى من
فُتيان قصر أبيها، وكان من دانية Denia، وشهر بالجمال، وعُرفَ بالسَّمسار (السريع):

يا مَعْشَرَ النَّاسِ، أَلَا فَاعْجَبُوا مِمَّا جَنَّتُهُ لَوَعَةُ الْحُبِّ
لَوْلَاهُ لَمْ يَنْزِلْ يَذِرُ الدُّجَى مِنْ أَفْقِهِ الْعُلُويِّ لِلتُّرْبِ
حَسْبِي بِمَنْ أَهْوَاءُ، لَوْ أَنَّهُ فَارَقَنِي تَابَعَهُ قَلْبِي^(٣)

وعلق الدكتور مصطفى الشكعة على هذه الأبيات بقوله: «هذا غزل رقيق وشعر
لطيف، لكنه جريءٌ مِنْ أَثْنَى تقوله في فتى»^(٤).

وذكر الأستاذ لوبون أَنَّ النِّسْوة الأندلسيّات أَشْتَهَرْنَ بالمعرفة العلميّة والأدبيّة،
وأنَّهُنَّ مُجَبَّاتٌ للدرس^(٥). وذكر ابن حزم أَنَّ الفرق بين النساء والرجال هو في العمل
 وأنواع النشاط؛ فالنساء متفرَّغاتُ البالِ من كلّ شيءٍ إلّا من الحبِّ، والرجالُ
مُقْتَسِمُونَ في صحبة السلطان، وطلب العلم، وحيطة العيال، وكسب المال، ومكابدة
الأسفار، والصَّيْد، وضروب الصناعات، ومباشرة الحروب^(٦). ثم عدَّد وظائف النساء
بقوله: منهنَّ الطبيبة، والحجّامة، والماشطة، والنائحة، والمغنيّة، والكاهنة،
والمعلّمة، والمستخدمة، والعاملة في المغزل والنسيج، وما أشبه ذلك^(٧).

سادساً: طبقات مجتمع المريّة:

كان مجتمع المريّة يعاني من تناقض رهيب؛ فالثروة فيه لم تكن تُوزَّعُ توزيعاً عادلاً،

(١) المُوق: خُفّ غليظ يلس فوق خُفّ أدقّ منه، وجمعه أمواق، فارسي، معرّب

(٢) مشاهدات لسان الدين ص ٩٦.

(٣) نفح الطيب (ج ٤ ص ١٧٠) والمغرب في حلى المغرب (ج ٢ ص ٢٠٢-٢٠٣).

(٤) صور من الأدب الأندلسي ص ١١٩.

(٥) حضارة العرب ص ٤٨٩.

(٦) رسائل ابن حزم (ح ١ ص ١٦٥).

(٧) المصدر نفسه ص ١٤٢.

مما أتاح وجود ثلاث طبقات ؛ طبقة فقيرة تعيش في بؤس دائم ، وأخرى أرستقراطية تعيش حياة ترف ونعيم ، وثالثة تعيش وسطاً بين الاثنين .

أ - طبقة الخاصة الأرستقراطية : تعتبر هذه الطبقة أغنى طبقات مجتمع الميرية وأكثرها ثراء . وتتكوّن من أفراد الأسرة الحاكمة ، وكبار الملاكين ، وكبار الأغنياء ، وتكاد تنحصر بالعنصر العربي وحده . وهكذا انفردت الأرستقراطية العربية بأقتسام أرض الميرية ، وسيطرت على معظمها عن طريق السلطة ؛ فالمعتصم ابن صمادح مثلاً ، كان يمثّل قِمة الثراء والملكيّة بحيث لم يكن يوجد حدود فاصلة بين خزانته الخاصة ، وبين بيت المال العام أي خزانة الدولة .

وكان معظم أفراد هذه الطبقة يميلون إلى الترف والاسترخاء والعبث وينغمسون في حياة اللهو والغناء والصيّد ، ولم يكن أمامهم سوى التمتع والاستئناس بالحياة الدنيا على حساب السواد الأعظم من شعب الميرية . ولقد عمل المعتصم على تقوية تلك الطبقة ، كونه منها ، وذلك بهدف إشغالها بالأمر الماديّة وإبعادها عن المشاركة في شؤون الحكم حتى لا تصبح خطراً على سلطانه السياسي .

وإذا كان المعتصم أقلّ ظلماً وتعسّفاً من نظرائه الملوك ، فإنّه أثقلَ كاهل الرعيّة بالضرائب الباهظة^(١) . وقد ذكر الدكتور إحسان عباس أنّ ملوك الطوائف كانوا يفرضون هذه الضرائب على رعاياهم لحاجتهم إليها في ثلاثة أمور ؛ الضريبة التي كانوا يؤدونها إلى الأذفونش ملك الفرنج كل سنة ، والضريبة المفروضة لدفع مُرتبات الجُند والتي كانت ترتفع كلّما دارت فيما بينهم الحروب والفتن ، والإنفاق على بناء القصور^(٢) والدّور واقتناء الأثاث وسائر صنوف الترف^(٣) . وأضاف : من الطبيعي أن

(١) إنّ الذين ترجموا للمعتصم لم يحدّدوا مقدار هذه الضرائب التي كان يفرضها المعتصم على الناس ، وهي ضرائب تكاد تكون قريبة من التي كان يفرضها الملوك الآخرون على رعاياهم . وقد حدّد الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة الضريبة التي أداها لألفونس السادس عن ثلاثة أعوام بثلاثين ألف دينار . مذكرات الأمير عبد الله ص ١٢٤ - ١٢٥ كذلك لم تذكر المصادر شيئاً عن خراج المملكة ، واكتفى أبس حاقان بوصف قلّة جباية الميرية في عهد المعتصم بقوله : « هذا على أنكماش ولايته ، وقلّة جبايته . . » قلائد العقيان ص ٤٧ .

(٢) إنّ قصور الصّمادجيّة التي بناها المعتصم في الميرية تجسّد لبذخ الأسرة الحاكمة وترفها .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ص ٣٩ - ٤١

يَصْحَبَ ذَلِكَ جِرْمَانٌ عَسِيرٌ لَطَوَائِفَ كَثِيرَةٍ مِنَ النَّاسِ، وَأَنْ تَنْتَشِرَ الْكِذْبَةُ عَلَى نِطاقٍ وَاسِعٍ^(١).

وفيما يتعلّق بالمرأة الأرستقراطية فَإِنَّ المؤرّخين لم يُغفلوا ذكرها آلبتّة، فقد تحدّثوا عن قدرتها الثقافيّة والفنيّة والاجتماعيّة، وأسّعرضوا محاسنها وصفاتها الحسنة ليرفعوا من مكانتهم لدى الحاكم ويحصلوا بالتالي على ما يريدون من صلات. وكانت علاقتها بزوجها الأرستقراطي بغير المستوى الذي كانت عليه المرأة الممتمة إلى طبقات أخرى؛ فهي غير مضطّرة بشكل عام للقيام بأي عمل داخل البيت أو خارجه؛ لأنّ أطفالها يقوم بتربيتهم الجوّاري والأمّوات الحاضنات. ويظل همّها محصوراً في أنّ تحظى بحب زوجها رغم معرفتها بعلاقاته مع غيرها. وإذا كانت عزباء فإنّ مشاغلها تنحصر غالباً في البحث عن الزوج الذي يملأ قلبها حبّاً وسواء كانت متزوجة أو عزباء فإنّ شغلها الشاغل هو الحبّ، يذكر ابن حزم أنّهنّ كنّ متفرّغات البال من كل شيء، إلّا من الجّماع ودواعيه، والغزل وأسبابه، ولا شغل لهنّ غيره، ولا خُلِقْنَ لسواه^(٢).

وكون الرجل الأرستقراطي مسلماً، فله الحقّ في أن يتزوّج أربع نساء من الحرائر، وما شاء من الإماء، وأولادُ الإماء شرعيّون كأولاد الحرائر، وله أن يطلق زوجته، ولكن عليه بالمقابل أن يصنع ما يكفّل به مصيرها^(٣). وهكذا كان له الحرية المطلقة لإشباع رغباته الجنسيّة مع غير زوجته، مفضّلاً زوجةً على أخرى أو جاريةً على غيرها دون رادع يردعه. لذلك قليلاً ما نجد في الوسط الأرستقراطي الحبّ العميق الذي نراه في أوساط طبقيّة أخرى. وقد يخلص هذا الرجل لزوجته ولكن مع عدم الاقتصاد على واحدة؛ فحبُّه لها هو الذي يعلو عليه وليس حبّ زوجته له؛ لأنّ المرأة فُرضَ عليها طاعة زوجها وتنفيذ رغباته الجنسيّة متى شاء.

ورغم إهمال المرأة الحرّة في المجتمع العربي من قبل الرجل، وفرض القيود عليها كمراقبتها في القصر بحيث لم يكن يسمح لها بالخروج إلّا في حالات خاصّة، وإعطاء الرجل النصيب الأكبر من الحرّيّة، فقد عرّف مجتمعُ المريّة حرائرَ

(١) المرجع نفسه ص ٤١.

(٢) رسائل ابن حزم (ج ١ ص ١٦٥) وطوق الحمامة ص ١٤٠.

(٣) راجع حضارة العرب ص ٤٩٥.

أرستقراطيّاتٍ مثُلْنَ بقوة الحياة العاطفيّة في الشعر^(١). وليس كلّ ما قالته الشواعرُ الحرائرُ موجوداً، فقد ضاع أكثره، وكثيرٌ من شعرهنّ كان مُهملاً من قبل المؤرّخين لسبب أو لآخر.

ب - الطبقة الوسطى: تضمُّ هذه الطبقة التّجار الكبار والمتوسّطين، وأصحاب الأعمال والمشاريع الصناعيّة، وموظّفي الدولة التابعين، والملاكين الصغار بمن فيهم المزارعون الكبار والمتوسّطون، وأنضوى إليها كافّة عناصر المجتمع. وقد عاش معظم أفرادها في المريّة كونها مقرّ الحكم وعاصمة المملكة آنذاك، ممّا زاد من سكّانها وجعلها مركزاً للتقدّم والتطوّر في جميع الميادين.

ولقد آهتّت هذه الطبقة بالعمل الصناعي والتجاري، فتطوّرت بذلك الحركة الحرفيّة ووصلت إلى مستوى عال. وظلّت شديدة الارتباط بالطبقة الأرستقراطيّة الحاكمة من أجل الحفاظ على مصالحها؛ إذ كان التّجار الكبار والمتوسّطون يقفون بجانب طبقة الحكم حرصاً منهم على جمع المادّة والعمل على ازديادها، وكانوا يطالبون السلطة باستمرار بحماية تجارتهم، وإذا ما تمّ لهم ذلك أسرعوا إلى تأييدها. يذكر الأمير عبدالله، آخر ملوك بني زيري، أنّ التّجار كانوا «مع من سبق، لا طاقة لهم بالحرب، ولا همّ أهلهم»^(٢).

وهكذا نشطت حركة التّجار في مملكة المريّة في ظلّ بذخ بني صمّادح، إلّا أنّهم ظلّوا مقصّرين عن اللحاق بالملاكين الكبار في مسألة الغنى والنفوذ الاقتصادي. كذلك لم يصل أصحاب الأعمال والمشاريع الصناعيّة إلى ما وصل إليه هؤلاء التّجار والملاكون الكبار في شأن امتلاك الثروات الضخمة. أمّا علاقتهم بالطبقة الحاكمة فإنّها لا تختلف عن علاقة إخوانهم التّجار بها؛ فهي علاقة مادّيّة تتراوح وفق تنفيذ أغراضهم من قبل الدولة.

أما موظّفو الدولة التابعون فهم الوزير، والقاضي، وصاحب المدينة، وصاحب الشرطة، إضافة إلى أصحاب الوظائف التي لا تقلّ أهميّة عن الوظائف المذكورة. وبمعنى آخر، إنهم ذوو المستوى المعاشي المتوسط. وقد سُمّوا بالتابعين لارتباطهم

(١) سبق وذكرنا ثلاثة أبيات لأمّ الكرام بنت المعتصم ص ٨٠، فأنظرها

(٢) مذكرات الأمير عبدالله ص ١٥٠.

بالأرستقراطية الحاكمة ارتباطاً وثيقاً، ولأنّ ولائهم لها متّجه إلى الهدوء والمسالمة.
و- نبيه هؤلاء أبناء أسرٍ كبيرة، يتقاضون مرتبات عالية.

وكان الملاكون الصغار والمزارعون الكبار والمتوسطون يلاقون مصاعب من قبل الطبقة الحاكمة، وذلك خلافاً لغيرهم من أفراد تلك الطبقة.

وفيما يتعلّق بالمرأة المنتمية إلى هذه الطبقة فإنّها لم تكن تختلف كثيراً عن المرأة الأرستقراطية.

وَيُسْتَخْلَصُ ممّا وَرَدَ معنا أنّ أفراد الطبقة الوسطى لم تسمح لهم الظروف بالحصول على ثروات ضخمة كما هي حال طبقة الخاصة، وكانوا بالتالي يعملون على حماية ما يملكون، وَيَسْعَوْنَ إلى توسيع ثرائهم على حساب غيرهم من العامة، وذلك من أجل الوصول إلى مستوى الطبقة الأولى.

ج - الطبقة الدنيا: اتّجهت غالبية المؤرّخين الأندلسيين إلى كتابة تاريخ الطبقة الحاكمة وعدم الاكتراث بغيرها من الطبقات؛ فحديثهم عن الطبقة الدنيا إنّما يندرج تحت باب الحديث عن طبقة الحكم. ورغم المعلومات القليلة المتعلّقة بالطبقة الدنيا والمتناثرة في صفحات الكتب هنا وهناك، فقد أستطعنا أن نكوّن صورة مقبولة عنها؛ فهي تضمّ كافة عناصر مجتمع المرية، وينضوي إليها العامل، والحرفي، والتاجر الصغير، والأجير، والمزارع الصغير، والقصاب، وحتى العاقل عن العمل. ومعنى ذلك هي الأكثرية الساحقة من أهل المرية، والسواد الأعظم من السكان الذين كانوا يفتقرون حتى إلى قوتهم اليومي. ويقدم لنا ابن عذاري صورة تعكس حياة أناس كانوا يلبسون الجلود والحُضر، ويأكلون البقل والحشيش، وذلك في أيام مبارك ومظفر العامريين ببلنسية^(١).

وهكذا فإنّ هذه الطبقة أكثر تهيوئاً للثورة من غيرها، وأكثرها تأثراً بالأزمات والحروب والقحط والجفاف؛ فمستوى حياتها مُتَدَنٌّ، والبؤس شاسع بين مستوى حياتها ومستوى حياة الأرستقراطيين والأغنياء.

وإذا كانت هذه الطبقة راضية بوضعها المُزري، فقد رضيت به، منطلقة من إيمانها بما كتب الله تعالى عليها وبشرعية الحكم ووجوب طاعته. ورغم إيمانها

(١) البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٢).

بالقضاء والقدر، فإنها لم تكن تابعة كلياً للطبقة الحاكمة كما كان شأن الطبقة الوسطى.

وكانت هذه الطبقة أكثر الطبقات آسياء من زيادة الضرائب التي كان المعتصم يثقل كواهل أفرادها بها.

وعن وضع المرأة العامية الاجتماعي فإن مؤرخي الأندلس لم يقدموا لنا صورة عنه؛ كونهم أغفلوا طبقة العامة، وكون المرأة العامية لم تكن تشكّل عندهم باب رزق كما كانت الحال عند المرأة الأرستقراطية. وبرغم ذلك فقد كونا فكرة عنها، بحيث كانت علاقتها بزوجها تقوم على أساس التعاون والتعاقد لتأمين الحاجات المادية اليومية إلى جانب تربية أطفالها وتدبر شؤون منزلها.

وعن الرجل العامي نقول: بسبب ضيق وضعه المادي كان يتعذر عليه اقتناء النساء المملوكات؛ لأن أسعارهن كانت مرتفعة جداً، بحيث لم يكن بمقدوره شراء جارية أو أمة، وليس باستطاعته تحمّل مثل هذا العبء المادي الكبير. وإذا ما حصل على جارية، وهذا نادر جداً، يكون ذلك في فترات الغزو التي فيها ينخفض سعر الجارية.

سابعاً - التقسيم الاجتماعي بمفهوم ابن الخطيب:

يستحسن بنا أخيراً أن نستأنس بالتقسيم الاجتماعي الذي يقدمه لنا ابن الخطيب، والذي ينطبق على المجتمع الأندلسي في جميع مدن الأندلس وفي كل العصور الأندلسية: «وكان الناس يومئذ (أي في عهد هشام المؤيد) - لا بل وفي كل زمان - أربعة: فصنّف^(١) همّة الدنيا التي ينالها بسبب الولد، هبة بالغاً، أو مراهقاً، أو طفلاً في المهد، أو جنيناً في المشيمة. وهم صنائع الحكم (أي الحاكم)، وخدائمه، وعملاله، وفتيانهم ورجاله... وصنّف^(٢) مرتقي من الديوان، مشهور العناية والمكان، أو مجهول الشأن، راضٍ بحظه من الزمان، لا يتشوق إلى المزيد ولا يحذر من النقصان، قد تساوت في الدول أحواله، وسكنت إلى الرزق والمفروض آماله... فهو هادئ ساكن، وإلى فئة العافية راكن. وصنّف^(٣) يؤمل أمراً، ويشبّ إن قدر جَمراً...»

(١) هذا الصنف هو ما أُلحِق بالطبقة الحاكمة.

(٢) هذا الصنف هو الطبقة الوسطى الراضية بوضعها الاجتماعي.

(٣) هذا الصنف هو الطبقة الدنيا المهية للثورة أكثر من غيرها، وهو أضعف الأصناف وأنعسها.

مُسْتَوْجِشٌ يَبْخُسُ حَقَّهُ، وَجَحْدٌ سَبْقُهُ . . . وَهَذَا الصَّنْفُ الْمُنَازِعُ الْمُنَافِسُ بَيْنَ أَنْ يَصُمْتَ فَيَمُوتَ بِدَائِهِ، أَوْ يَجْهَرَ بِالْمُنَازَعَةِ فَيَنْتَهِيَ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ. وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ أَوْضَعُ الْأَصْنَافِ . . . وَصِنْفٌ^(١) مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَلَّدُوا أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، وَالْقَبُولِ وَالرَّدِّ أَجْتِهَادُهُمْ، وَسَلُّوا اللَّهَ تَوْفِيقَهُمْ وَسَدَّادَهُمْ . . . وَهُمْ أَشْرَفُ أَوْطَانًا. وَأَعْظَمُ سُلْطَانًا . . . وَهُمْ جُمُهورُ النَّاسِ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ، وَالْخَاصَّةِ وَالذُّهُمَاءِ . . . وَصِنْفٌ^(٢) غَارِمٌ، لَا هَمَّ لَهُ إِلَّا فِيمَنْ يُخَفِّفُ أَصْرَهُ، أَوْ يُبَدِّلُ بِالْيُسْرِ عُسْرَهُ. وَأَمَّا هَؤُلَاءِ، فَأَوْبَاشُ أَسْوَاقٍ، وَحَمَقَى مَا لَهُمْ مِنْ أَخْلَاقٍ . . . وَصِنْفٌ^(٣) هَمُّهُ الْآخِرَةُ، بَعِيدٌ مِنْ تَعْرِيجِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا . . . إِنَّمَا هُوَ مَشْغُولٌ بِرَبِّهِ خَاصَّةً. وَهَذَا جِيلٌ قَلِيلٌ، وَإِنَّمَا ذِكْرُ مَرَاعَاةٍ لِلتَّقْسِيمِ. وَلَا تَخْلُو الْأَقْطَارُ مِنْهُمْ، فَهُمْ بَرَكَاتُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنْهُمْ»^(٤).

(١) هذا الصنف هو العلماء والفقهاء ورجال الدين .

(٢) هذا الصنف هو الذي كان يؤدي ما عليه من ديون وصرائب؛ يقال: غَرِمَ الرَّجُلُ الدَّيْنَ وَغَيْرَ ذَلِكَ إِذَا أَدَاَهَا، فَهُوَ غَارِمٌ، وَالْأَصْرُ، بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكسرها وَضَمِّهَا: الْعَبءُ الثَّقِيلُ.

(٣) هو صنف الزَّهَادِ وَالنَّسَاكِ.

(٤) أعمال الأعلام القسم الثاني (ص ٤٤ - ٤٨).

الحياة الاقتصادية في مملكة المريّة في عهد المعتصم ابن صمّاح

تتناول الحياة الاقتصادية في المريّة في عهد المعتصم ابن صمّاح ثلاثة جوانب؛ الزراعة، والصناعة، والتجارة.

أولاً: الزراعة.

١ - الإنتاج الزراعي في المريّة: ذهب معظم المؤرخين والجغرافيين القدامى إلى أنّ أرض المريّة صخرية جرداء، وأنّ مناخها جافّ، وأنّها قليلة الأمطار. وبرغم ذلك فإنّها كانت في وضع زراعي جيّد، ويعود ذلك إلى بستانها العظيم الاتّساع وإلى واديهما الخصيب.

وقبل أن نتحدّث عن خيرات بستان المريّة وواديهما نُشير إلى ما ذكره بعض المؤرخين؛ فقد وصف المقرّي طبيعة أرضها بقوله: «وقد آستدار بها من كل جهة حصون مرتفعة، وأحجار أوليّة، وكأنّما غُرِبَتْ أرضُها من التراب»^(١). ووصف ابن الخطيب طبيعة مناخها بقوله: «حرّها شديد، وذكرّها طويل مديد، وأثرها على البلاد جديد، إلّا أنّ مغارمها ثقيلة، وصفحة جوّها في المحول صقيلة، وسماؤها بخيلة، وبروقها لا تصدق منها مَخِيلَة، وبُلالَة النُطِية^(٢) منزورة العطية، وسيغرّها ليس من الأسعار غير الوطيّة، ومعشوق البرّ بها قليل الوصال»^(٣). وشاركه ابن فضل الله

(١) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣). وانظر أيضاً الحلل السندسية (ج ١ ص ١١٩، ٢٠٣).

(٢) النُطِية عَيْنُ ماءٍ بالمريّة ذكرها ابن سعيد في كتابه المغرب (ج ١ ص ١٩٤) وقد تكون هي نفسها التي أوصل خيران العامريّ ماءها إلى الرّبط الشرقي. الروض المعطار ص ٥٣٨.

(٣) مشاهدات لسان الدين ص ٨٤. وقول ابن الخطيب: «حرّها شديد» يناقض ما ذهب إليه ابن سعيد وأبو الفداء من أنّ المريّة تفضّل باعتدال هوائها. المغرب (ج ٢ ص ١٩٣) وتقويم البلدان ص ١٧٧.

العمري الرأي فقال: «وأما الحنطة، فحسب السنين الممطرة، لأن أكثر زرعها بالمطر، وترتفع بما يُجْلَبُ إليها من الحنطة من بَرِّ العُدْوَةِ»^(١). وتحدث ابن خاقان عن قلة جباية المريّة في عهد المعتصم، فقال: «هذا على أنكماش ولايته، وقلة جبايته، فإن نظره لم يزد على امتداد ناظر، ولم يجد الغمام منه على يانع ولا ناضر؛ لأن أكثره شَيْح^(٢)، ومَهَامَه^(٣) فيح... أستغفر الله، إلا ضَفَّتِي نهر بجباية^(٤) الممتد كالجبَل»^(٥). وأعتمد الدكتور عبد العزيز سالم في وصف مناخ المريّة على هذه النصوص، فذهب إلى القول: «ومناخ المريّة يسوده الجفاف، فالمطر يسقط نادراً في هذه المنطقة القاحلة الجرداء، وقد تمضي أعوام لا يسقط فيها»^(٦). كذلك شارك الشعراء هؤلاء المؤرخين آراءهم فقال أحدهم (المجتث):

قالوا: المريّة صِفْهَا فقلت: مَطٌّ وشَيْحُ
فقل: فيها مَعَاشٌ فقلت: إن هَبَّ رِيحٌ^(٧)

وقال السَّمِيسِر (المجتث):

بُسْ دَارُ المريّة ايومَ داراً ليس فيها لساكنٍ ما يُحِبُّ
بَلَدَةٌ لا تُمارُ إلا بِريحٍ ربّما قد تَهَبُّ أو لا تَهَبُّ^(٨)

وقد علّق المقرئ على هذين البيتين بقوله: «يشير إلى أن مرافقها (أي مرافق المريّة) مجلوبة، وأن الميرة تأتيها في البحر من بَرِّ العُدْوَةِ»^(٩).

-
- (١) وصف إفريقية والمغرب والأندلس ص ٤٦. والمقصود بالعدوة هنا العدوة المغربية.
- (٢) الشَّيْح: نبات يُتَّخَذُ من بعضه المكاس، له رائحة طيبة، وطعم مرّ، وهو مرعى للخيّل، ومنايته القيعان والرياض، وجمعه شَيْحَان. لسان العرب (شيخ).
- (٣) المَهَامُ: جمع مَهْمَةٍ ومَهْمَةٍ وهي المفازة البعيدة، والمَهَامُ الفَيْحُ: الواسعة، مفردا فَيْحَاء.
- (٤) الصواب: بَجَانَةٌ؛ لأن بجاية مدينة بالجزائر من عمل قسنطينة. وأغلب الظن أن الناسخ وقع في خطأ النقل، وكان على محقق قلائد العقيان ألا يشارك في تحريف الاسم، أو على الأقل أن يشير إلى ذلك في تعليقاته.
- (٥) قلائد العقيان ص ٤٧.
- (٦) تاريخ مدينة المريّة الإسلامية ص ١٤.
- (٧) الروض المعطار ص ٥٣٧. والمَطُّ: رُمان بَرِّي لا يُتَّقَعُ بحمله، ومنايته الجبال، تأكله النحل فيجود عسلها عليه. لسان العرب (مظظ).
- (٨) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٨٨٤) ونفع الطيب (ج ٣ ص ٣٩٠).
- (٩) نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٩٠).

والبستان العظيم الاتّساع الذي ذكرناه هو الذي أقامه المعتصم بالقرب من المرية في الجهة القبليّة من قصره الكبير، وكان يُغني مملكة المرية بجميع الثمار الغربية^(١). أما وادي المرية المعروف بوادي بجانة فإنه كان يُغني المرية أيضاً بفواكهه، وقد وصفه الشُّقندي عند حديثه عن المرية بقوله: «واديها المعروف بوادي بجانة من أفرج الأودية، أضفّته بالرياض كالعدّارين حول الثغر»^(٢). وفي إحدى مشاهداته لمدينة المرية يزودنا ابن الخطيب بوصف دقيق لواديها فيقول: «وأسقّلنا وادي بجانة، وما أدراك ما هو! النهر السيّال، والغصن الميّد الميال، والأفياء والظلال، المسك ما فتّ في جنباته، والسندس ما حاكته يد جنّاته، نعمه واسعة، ومساجده جامعة، أزرّت بالغوطين زياتينه وأعابيه»^(٣). ومرة أخرى يصفه قائلاً: «عذب فرات، وأدواح مثمرات، وميدان ارتكاض، بين بحر ورياض»^(٤). ويضيف: «والمرية كثيرة الأعناب والزيتون. . . ولواديها المزية على الأودية، حجة الناظر المفتون، المكسو الخصور والمتون، بالأعناب والزيتون»^(٥). وبدوره يصف الحميري هذا الوادي فيقول: «وادي بجانة يعم بالسقي بساتين المرية. . . وكان بها (أي بالمرية) من فواكه واديها الكثير الرخيص»^(٦). وإضافة إلى هذه النصوص، أردنا أن نستأنس بنصّ المقرئ نظراً لأهميته: «وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسناً. . . وادي المرية طوله أربعون ميلاً، في مثلها كلها بساتين بهجة، وجنّات نضرة، وأنهار مطردة، وطيور مغردة»^(٧).

ولقد كان أعيان المرية يمتلكون البساتين والمنتزهات في ذلك الوادي، وكانوا يقصدونها للنزهة وطلب الراحة والهدوء، بعيداً عن ضوضاء المدينة^(٨). وتغنّى ابن سعيد بنهر المرية ومنتزهاته، فقال: «وأما المرية، فلها على غيرها من نظرائها أظهر

(١) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ٧٧.

(٢) فضائل الأندلس وأهلها ص ٥٨، ونفح الطيب (ج ٣ ص ٢٢٠).

(٣) مشاهدات لسان الدين ص ٤٧.

(٤) المصدر نفسه ص ٦٠.

(٥) المصدر نفسه ص ٨٣.

(٦) الروض المعطار ص ٥٣٨.

(٧) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣).

(٨) انظر Los Palacios del Taifa almeriense al-Mu'tasim, en Cuadernos de la Alhambra, Vol. III. p.20.

مزينة؛ بنهرها الفضي... ومنظرها المُرصع... ومن مُتَفَرِّجَاتِهَا مَنَى عبدوس، ومنى غسان، والنَّجَاد، وبركة الصُّفَر^(١)، وعين النُّطِيَّة. ونهرها مِنْ أَحْسَنِ الْأَنْهَارِ^(٢).

٢ - محاصيل أعمال مملكة المَرِيَّة الزراعية: كان لمدينة المَرِيَّة مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار^(٣). ولقد اشتهرت مدينة بَجَّانَة بالزيتون، والأعناب، والفواكه المختلفة، والبساتين الضخمة الكثيرة الثمار^(٤). وكانت بَرْجَة غنية بالفواكه، كونها على نهر تُحْدِقُ بها الْجَنَّات، على حَدِّ قول ابن سعيد: «كان والدي متولعاً بالفُرْجَة فيها (أي في بَرْجَة)؛ لِمَا خَصَّهَا الله به من حسن المنظر. أخبرني أَنَّ الْجَنَّاتِ مُحْدِقَةٌ بها، وهي على نهر بهيج يُعْرَفُ بوادي عذراء، وفيها الفواكه الجليلة»^(٥)، وقول المقرئ: «وهي على وادٍ مبهج يعرف بوادي عذراء، وهو محدد بالأزهار والأشجار وتُسَمَّى برجة: بهجة؛ لبهجة منظرها، وفيها يقول أبو الفضل ابن شرف^(٦) القيرواني، رحمه الله تعالى (المتقارب):

رياضٌ تَعَشَّقُهَا سُندُسٌ تَوَشَّتْ معاطِفُهَا بِالزَّهَرِ
مَدَامِعُهَا فوق خُدِّي رُبِّي لها نَضْرَةٌ فَتَنَتْ مَنْ نَظَرُ
وكلُّ مكانٍ بها جَنَّةٌ وكلُّ طريقٍ إليها سَقَرٌ^(٧)

وذكرها ابن الخطيب بقوله: «بهجة ناظر». عقود أعنابها قد قَرطَتْ آذان المَيْسِ^(٨) والْحَوْر، مياءً وظلال، وسحر حلال^(٩).

أما دَلَايَة Dalias فكانت تصلح للمواشي، وكانت أرضها كثيرة الأجبان

(١) الصُّفَر معدن يكاد يشبه الذهب نفح الطيب (ج ١ ص ٢٠٠).

(٢) المغرب (ج ٢ ص ١٩٣ - ١٩٤).

(٣) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣).

(٤) نصوص عن الأندلس ص ٨٦، ووصف إفريقية والمغرب والأندلس، ص ٤٦، ومشاهدات لسان الدين ص ٤٧.

(٥) المغرب (ج ٢ ص ٢٢٨).

(٦) سيرد الحديث عنه بالتفصيل في باب الحديث عن شعراء المَرِيَّة في عهد المعتصم، ص ١١١.

(٧) نفح الطيب (ج ١ ص ١٥٠ - ١٥١). وسَقَرُ: اسمٌ من أسماء جَهَنَّمَ. لسان العرب (سقر).

(٨) المَيْسُ: شجر عظيم يغلف حتى تُتَخَذَ منه الموائد الواسعة ويرحال الإبل. لسان العرب (ميس).

(٩) مشاهدات لسان الدين ص ٨١ - ٨٢.

والخرفان على حدّ قول ابن الخطيب: قُلْتُ: فَدَلَايَة خير رعاية وولاية. . وأرض ينبت بها جبن وخروف»^(١). كما اشتهرت بعود الأَلَنْجُوج^(٢) حسبما يذكر ابن الخطيب نفسه: «وبناحية دَلَايَة من عملها (أي من عمل المرية) عُوْدُ اليلَنْجُوج، لا يفوقه العودُ النديّ ذكاءً وعِطْرَ رائحة. وقد سِيَّقَ منه لخيران صاحب المرية، أَصْلُ كان مَنبُتُهُ بين أحجار هناك»^(٣). وأشار أبو عبيد الله البكري إلى هذا العود وأسماء عود النَّضُوح^(٤): «يوجد في ناحية دَلَايَة من إقليم البُشْرَة^(٥) عُوْدُ النَّضُوح، لا يقارنه العود الهنديّ ذكاءً وعِطْرًا، وقد سِيَّقَ منه إلى خيران صاحب المرية، أَصْلُ كان مَنبُتُهُ بين أحجار هنالك»^(٦). وبدوره يشير ابن غالب إلى هذا العود، ويسمّيه عود التجوج: «يوجد في ناحية دَلَايَة العود، وهو عود التجوج، لا يفوقه العود الهنديّ ذكاءً وعطر رائحة»^(٧).

ويكثر في حِصْنِ شَنْشَ شجر التوت اللازم لتربية دود الحرير، ولأهله فيه غِلْلٌ عظيمة^(٨).

وفي طَبْرَنْشْ يكثر الزيتون، وكانوا يعصرونه ويستخرجون منه الزيوت^(٩). واشتهرت مدينة أَنْدَرَشْ بالكَثَّانِ الفائق^(١٠). وقد تغنّى به أبو الحجاج بن عتبة الإشبيلي، الطبيب الأديب الشاعر، وقد مرّ عليها، فقال (الكامل):

لله أَنْدَرَشْ! لقد حازت على حُسْنِ تَتِيه به على البلدان
النهرُ مَنْسَابٌ سَرَتْ خُلْجَانُهُ في الروضِ بَيْنَ أَزَاهِرِ الكَثَّانِ^(١١)

(١) المصدر نفسه ص ٨٢.

(٢) الأَلَنْجُوج واليلَنْجُوج عود جيّد، طيب الريح، يُتَبَخَّرُ به. لسان العرب (لنج).

(٣) الإحاطة بتحقيق عنان (ج ١ ص ٩٨). وورد هذا النص في نفح الطيب (ج ١ ص ١٤٠ - ١٤١) باختلاف يسير عما هنا.

(٤) النَّضُوحُ ضرب من الطيب لسان العرب (نضج).

(٥) البُشْرَة أو البُشْرَات Alpujarras منطقة جبال سيرا نفادا Sierra Nevada في إقليميّ غرناطة والمرية. نفح الطيب

(ج ١ ص ١٤١ حاشية ١)، والمطرب ص ١٠ حاشية ٥.

(٦) جغرافية الأندلس ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٧) قطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٣٠٨.

(٨) انظر المغرب (ج ٢ ص ٢٢٥) ونفح الطيب (ج ١ ص ١٦٤).

(٩) انظر مشاهدات لسان الدين ص ٨٤ واللمحة البدرية ص ١٩.

(١٠) معجم البلدان (ج ١ ص ٢٦٠).

(١١) الروض المعطار ص ٤٢ (مادة أندرش).

أما مرشانة ودوجر، فإن المصادر لم تَمُدَّنَا بشيء عن منتوجاتهما الزراعية^(١). كذلك اشتهرت قرى المريّة بفواكهها على حدّ قول ابن فضل الله العمري: «وحولها (أي حول المريّة) حصون وقرى كثيرة الفواكه»^(٢).

ثانياً - الصناعة :

في مجال الصناعة شهدت المريّة في عهد المعتصم ابن صمّاح تقدّماً أمتازت به على غيرها من مدن الأندلس، وبلغت شهرة تجاوزت بها الآفاق. وأهمّ الصناعات التي شهدتها آنذاك صناعة النسيج، وصناعة الرخام، وصناعة المعادن، وصناعة الزجاج، وصناعة السفن، وصناعة الفخار، وصناعة الزيوت.

١ - صناعة النسيج: كانت تُحَاكُ في المريّة أنسجة من الصوف والكُتَّان^(٣). ولكنّ المنسوجات الحريرية كانت تُعدُّ أكثر منتجات المريّة الصناعية شهرة. ولقد انتقلت صناعة الحرير إلى هذه الحاضرة في بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي عن طريق الوفود القادمة إليها من قرطبة التي طَحَنَتْها الفتنة البربرية، ومن بَجَّانة التي بدأت تخرب بعمارة المريّة. ذكر ابن الخطيب أنّه كان بقرطبة دار طراز كان قد اتَّخَذَ في أيام عبد الرحمن الثاني^(٤). وكانت قرطبة تعتمد آنذاك في صناعة الحرير على مدينة جَيَّان التي كان لها، استناداً إلى قول الحميري، ما يزيد على ثلاثة آلاف قرية يُربَّى بها كلّها دود الحرير^(٥).

ولقد انتقلت صناعة المنسوجات الحريرية من بَجَّانة إلى المريّة على أيدي البَجَّانيّين بعد انتقالهم إلى المريّة في سنة اثنتين وأربعمئة / ١٠١١ م^(٦). وقد أشار الحميري إلى تكاثر طُرُز الحرير والمتاجر الرائجة ببَجَّانة^(٧).

(١) في وصف إفريقية والمغرب والأندلس ص ٤٥ حاشية ١: مرشانة Purchena بليدة ذات ساتين وزراعات وفي معجم البلدان (ج ١ ص ٣٨٤): بَرَشَانَة، بالباء، هي من قرى إشبيلية بالأندلس.

(٢) وصف إفريقية والمغرب والأندلس ص ٤٦.

(٣) انظر مشاهدات لسان الدين ص ٨٣، وتاريخ العرب ص ٦٠٧.

(٤) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٠).

(٥) الروض المعطار ص ١٨٣.

(٦) انظر نصوص عن الأندلس ص ٨٢.

(٧) الروض المعطار ص ٧٩.

وجدير بالذكر أنَّ أهل الصين^(١) هم أول الذين آتصوا بصناعة الحرير، وظلوا يحتكرونها إلى أن أدخلها المسلمون إلى الأندلس حيث زهت وتقدمت تقدماً كبيراً، وكان رواجها في عصر الدولة الأموية، حيث شغلت قرطبة المركز الأول^(٢).

وفي عهد المعتصم ابن صمادح غلبت المرية على هذه الصناعة على حد قول ياقوت: «ويعمل بها الوشي والديباج»^(٣) فيجاء عمله، وكانت أولاً تعمل بقرطبة ثم غلبت عليها المرية فلم يثق في الأندلس من يجيد عمل الديباج إجابة أهل المرية^(٤). ويشير ابن غالب إلى ما كان يصنع بالمرية من منسوجات حريرية فاخرة، فيقول: «وكان يعمل فيها من الوشي والسقلاطوني»^(٥) والبغدادى وسائر أجناس الديباج وجميع

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الصين ظلت تحتفظ بصناعة الحرير سرّاً إلى أن تمكّن الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول من الاهتداء إلى سر صنعها عن طريق تهريب نويضات من دود القز من مدينة سرندا في الصين إلى بيزنطة، وعندها عمّم جستنيان زراعة أشجار التوت التي تعاش عليها ديدان الحرير، وأمر بتأسيس المصانع لتخليص الحرير من شرانقه ثم نسجه، فانتشرت صناعة الحرير في الإمبراطورية البيزنطية وبسرعة مذهلة. وقيل: انتقلت هذه الصناعة من الصين إلى بلاد فارس، ومن بلاد فارس إلى بيزنطة، ومن بيزنطة إلى الأندلس عن طريق جماعات من اللاجئين الإغريق. انظر علاقات بين الشرق والغرب ص ٢٦٠ وتاريخ مدينة المرية الأندلسية ص ٢١٠.

(٢) انظر تاريخ العرب ص ٦٠٧ وتاريخ مدينة المرية الأندلسية ص ٢١٠ - ٢١١.

(٣) الديباج نوع من الأقمشة الحريرية السمكة، كان معروفاً في المشرق قبل الإسلام، ثم استمر نسجه بعد ظهور الإسلام، وكان يصنع من خيوط الحرير، وتدخل في نسجه خيوط الذهب أو الفضة، ويعرف بالإسبانية باسم Brocado. راجع الفنون الزخرفية الإسلامية ص ١٢٤، وتاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٥٧.

(٤) معجم البلدان (ج ٥ ص ١١٩).

(٥) السقلاطون أو الأسقلاطون نوع من المنسوجات الحريرية، اشتهرت به في الأصل بلاد اليونان فنسبت إلى سقلاطون بلد من بلاد الروم. ومن اليونان انتقل إلى البلاد الإسلامية فعرفته مصر في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م)، وعرفته بغداد في عصرها العباسي فأشتهرت به وكان يعرف بالسقلاطون البغدادي. والسقلاطون رقيق الملمس، سميك الصنعة، وردي اللون، مزركش بالذهب. راجع نهاية الأرب (ج ١ ص ٣٦٩)، وصبح الأعشى (ج ٣ ص ٤٧٦)، وتكملة المعاجم العربية (ج ١ ص ١٣٦)، وتاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص ١٠١، والزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ص ٥٣ - ٥٤، والفنون الزخرفية الإسلامية ص ١٢٤، وتاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٥٧، وتاريخ مدينة المرية الأندلسية ص ٢١٤.

ما يعمل من الحرير ما لم يُعْمَلْ مثله بصنعاء وعدن، ومنها كان يُسَفَّن إلى جميع الآفاق، وكان يُعْمَلُ فيها الحُلَلُ الرفيعة القدر الكثيرة الأثمان»^(١). ويشاركها ابن سعيد الرأي، فيقول نقلاً عن ابن فرج: «حدث فيها من صناعة الوشي والدِّيَاج على اختلاف أنواعه، ومن صناعة الخز، وجميع ما يُعْمَلُ من الحرير، ما لم يَبْصُرْ مثله في المشرق ولا في بلاد النصارى»^(٢)، ويقول في مكان آخر: «يُصْنَعُ فيها وفي مالقة وفي مرسية ثياب الحرير الموشاة بالذهب ذات الصنائع الغريبة»^(٣). وذهب الشُّقْندي مذهبهم بقوله: «وهي أيضاً مصنع للحُلَلِ المَوْشِيَّةِ النفيسة. وأما مرسية، فإنها حاضرة شرق الأندلس... وهي لألمرية ومالقة في صناعة الوشي الثالثة»^(٤). ويفهم من كلام الشُّقْندي أن مالقة تأتي في صناعة الحُلَلِ المَوْشِيَّةِ في المرتبة الثانية بعد ألمرية، وأن هذا النوع من المنسوجات الحريرية كان بألمرية أعلى ثمناً منه في مالقة. وقد وصف الشُّقْندي أيضاً صناعة الحُلَلِ المَوْشِيَّةِ بمالقة بقوله: «وفيها تُنْسَجُ الحُلَلُ المَوْشِيَّةُ التي تُجَاوِزُ أثمانها الآلاف، ذات الصور العجيبة المتخبة برسم الخلفاء، فَمَنْ دونهم»^(٥).

وأشار أبو الفداء إلى غزارة إنتاج الحرير في ألمرية فقال: «ويعمل بها من الحرير ما يفوق معمول غيرها»^(٦). وبدوره يقول المقرئ: «وبها من صناعة الدِّيَاج ما تفوق به على سائر البلاد»^(٧). ويقول مرة أخرى نقلاً عن ابن سعيد: «فقد اختصت ألمرية ومالقة ومرسية بالوشي المذهب الذي يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً»^(٨). ويقول أيضاً: «وهي أيضاً مصنع للحلل المَوْشِيَّةِ النفيسة»^(٩).

وهكذا اتقن أهل ألمرية في عهد مليكهم المعتصم ابن صمادح طريقة استخراج

(١) قطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٢) المغرب (ج ٢ ص ١٩٣ - ١٩٤).

(٣) كتاب الجغرافيا ص ١٤٠.

(٤) نفح الطيب (ج ٣ ص ٢٢٠ - ٢٢١).

(٥) المصدر نفسه ص ٢١٩.

(٦) تقويم البلدان ص ١٧٧.

(٧) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٢).

(٨) المصدر نفسه ص ٢٠١.

(٩) نفح الطيب (ج ٣ ص ٢٢٠). والحُلَلُ نسيج من الحرير يُحَلَّى بخيوط ذهبية، لذلك سُمي بالحُلَلِ المَوْشِيَّةِ. تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٥٧.

الحرير، فراجت صناعتهم في مدينتهم، وأصبح بها في فترة المرابطين - وهي فترة امتداد لعصر ملوك الطوائف - ثمانمائة نولٍ لنسج طُرُز الحرير على حَدِّ قول الجُميري: «وكانت ألمرية في أيام الملتئمين مدينة الإسلام، وبها مِنْ كُلِّ الصناعات كُلُّ غريبة، وكان بها مِنْ طُرُز الحرير ثمانمائة طراز، وتُعْمَلُ بها الحُلل، والدِّياج، والسلاقطون، والأصبهاني^(١). والجرجاني^(٢)، والستور المكلَّلة^(٣)، والثياب المُعَيَّنة^(٤)، والعتابي^(٥)».

(١) نسبة إلى مدينة أصبهان الفارسية لاشتهارها بهذا النوع من المنسوجات الحريرية، راجع الفنون الزخرفية الإسلامية ص ١٢٤، وتاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٥٨. وقد ذكر البكري وياقوت هذه المدينة دون أن يشيرا إلى ذلك مكتفيين بالقول: أصبهان مدينة معروفة من بلاد فارس. معجم ما استعجم (ج ١ ص ١٦٣)، ومعجم البلدان (ج ١ ص ٢٠٦).

(٢) نسبة إلى مدينة جرجان الفارسية لاشتهارها بهذا النوع من الحرير. الفنون الزخرفية الإسلامية ص ١٢٤، وتاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٥٨، وقد ذكرها ياقوت بقوله: جرجان مدينة مشهورة عظيمة من بلاد فارس، بها إبريسمٌ جيّدٌ لا يستحيل صبغه، وكان يُحْمَلُ إلى جميع الأفاق. معجم البلدان (ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٠). والإبريسم هو الحرير قبل أن يخرقه الدود، وبعد الخرق يسمّى قزاً، مُعَرَّبٌ إبريسم بالفارسية.

(٣) هي نوع من المنسوجات الحريرية، خفيفة رقيقة تزدان بالزخارف النباتية والأزهار التي تشبه الأكاليل. تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٥٨.

(٤) هي نسيج من الكتان أو القطن يزدان بزخرفة هندسية على شكل مُعَيَّنات، وقيل. سُمِّيَ كذلك لأنه يشبه عيون الوحش، ويُرجَّحُ التفسير الأول. تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٥٨، والفنون الزخرفية الإسلامية ص ١٢٤ حاشية ٢.

(٥) نسبة إلى العتابة إحدى محلات بغداد، التي كانت الثياب العتابة تُصنَّعُ فيها، وهي ثياب من حرير وقطن مختلفة الألوان. رحلة ابن جبير ص ٢٠١. وذكر الدكتور مرزوق هذا النوع من الحرير فقال: «والعتابي التي استمدت اسمها في الأصل مِنْ حَيِّ العتابة ببغداد، وقد أَحَسَّنَ الأندلسيون تقليد هذا النوع حتى اشتهرت به ألمرية». الفنون الزخرفية الإسلامية ص ١٢٤ - ١٢٥. وأضاف: عن طريق الأندلس عرف الإيطاليون هذا النوع من النسيج. كما عرفه الفرنسيون أيضاً، ومن هذين القطرين أنتشر في أوروبا في العصور الوسطى باسم Tapis، وأغلب الظن أنها كلمة محرفة عن كلمة «عتابي». المصدر نفسه ص ١٢٥ حاشية ١. ويشير في كتاب آخر إلى هذا النوع من الثياب الحريرية بقوله: «العتابي من المنسوجات التي اشتهرت بها بغداد، واشتغلت بها مصر في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله، وهي نوع من الحرير المموَّج، والعتابي الغربي تقليد للعتابي الشرقي الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ص ٥٣ - ٥٤ وحاشية ١. وأشار الدكتور عبدالعزيز سالم إلى العتابي بقوله: انتقل هذا النوع من المنسوجات الحريرية إلى إيطاليا وفرنسا عن طريق الأندلس تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية».

والمعاجر^(١)، وصنوف أنواع الحرير^(٢).

ويذكر المقرئ هذه الأنواع من النسيج مستثنياً منها الثياب المعينة، ومخصصاً لكل نوع عدد أنواله: «وقال بعضهم: كان بالمرية لنسج طُرُز^(٣) الحرير ثمانمائة نُول، وللحَلَلِ النفيسة والديباج الفاخر ألف نُول، وللأسقلاطون كذلك، وللثياب الجرجانية كذلك. وللأصفهانية مثل ذلك، وللعنابي^(٤)، والمعاجر المدهشة، والستور المكللة^(٥)».

وقد علق الدكتور سالم على هذه الأعداد بقوله: «وفي هذه الأعداد الهائلة

= ص ١٥٨. وعرفه الدكتور أبو الفضل بأنه نوع من النسيج، رقيق الملمس، بديع الصنعة، سريع التلف، لذا كان يُطَنُّ غالباً ببطانة من نسيج آخر كالقطن، تاريخ مدينة المرية الأندلسية ص ٢١٦.

(١) المعاجر جمع معجرو وهو ثوب تُلْفَةُ المرأة على استدارة رأسها ثم تَجَلْبُبُ فوقه بِجَلْبَابِها، وقيل: ضَرْبٌ من ثياب اليمن. لسان العرب (عجر). ويرى الدكتور سالم أنها قماش من الحرير شفاف كانت تتخذه النساء للغطية وجوههن أولشدرؤوسهن. تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٥٨، ويشير السمسير إلى المعاجر بقوله (مجزوء الكامل):

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْمَعَا جِرَ تَحْتَهَا دُعْجُ الْمَحَا جِرَ
خَلَّتْ الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ مِنْ جِيْشِ صَقْلَبَ وَالْبِرَابِرِ

الذخيرة (ق ٢١ ص ٨٩٨).

(٢) الروض المعطار ص ٥٣٨.

(٣) الطَّرَازُ من أبهة الملك والسلطان، وهو أن تُرَسَّمَ أسماء الملوك أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المُعَدَّة للباسهم، من الحرير أو الديباج أو الإبريسم، بخيط الذهب أو ما يخالف الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب، فتصير الثياب الملوكية مُعَلَّمةً بذلك الطراز قَصْدَ التنويه بلباسها من السلطان فمن دونه. وكان ملوك العجم قبل الإسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم، ثم اعتاض ملوك الإسلام عن ذلك بِكُتُبِ أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفأل أو السُّجَلَات. وكانت الدُّوَرُ المُعَدَّة لنسج أثوابهم في قصورهم تُسَمَّى دُورَ الطراز، وكان القائم على النظر فيها يسمَّى صاحب الطراز، ينظر في أمور الصباغ والآلة والحاقة فيها، وإجراء أرزاقهم ومشارفة أعمالهم. وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالأندلس، وفي عصر ملوك الطوائف من بعدهم. ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف تعطلت هذه الوظيفة من أكثر الدول بالجملة، بحيث لم يأخذ بها الموحدون أول دولتهم؛ لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي لَقْنُوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي، وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب، فسقطت وظيفة صاحب الطراز، ثم استدرك منها أعقابهم آخر الدولة طَرَفًا لم يكن بتلك النباهة، تاريخ ابن خلدون (م ١ ص ٤٧١ - ٤٧٣).

(٤) الصواب: «العتابي» بالتاء.

(٥) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣).

مبالغة كبيرة، وعلى هذا الأساس نعتقد أن المقرري نقل هذا النصُّ مُحَرَّفًا عن أحد المؤرخين»^(١). وذكر الدكتور مرزوق أن دُور طِرَاز الحرير أنتشرت في الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الأول، ممَّا ساهم في تقدُّم صناعة النسيج في العالم الإسلامي مساهمة كبيرة، وأنَّ الأبحاث الأثرية كشفت عن وجود نوعين من دُور الطِّراز؛ طِرَاز العامة، وأغلب الظنُّ أنَّ المقصود به المصانع الأهلية للنسيج التي كانت تشرف عليها الحكومة، وطراز الخاصة وكان مُلْحَقًا بقصر السلطان وعلى رأسه موظف كبير يختصُّ عادة بنسج ما يحتاج إليه السلطان وحاشيته^(٢).

ولم تكن المدن التابعة لألمرية بمنأى عن هذه الصناعة؛ فَشَنَشُ مثلاً كانت تغلُّ الكثير من الحرير الخام؛ وذلك لكثرة شجر التوت فيها. وقد أشار ابن سعيد إلى ذلك بقوله: «وفيه (أي في حصن شَنَش) شجر التوت كثير، بسبب الحرير، ولهم فيه غلُّ عظيمة»^(٣)، وقال المقرري: «وفيها (أي في مدينة شَنَش) الحرير والقرمز»^(٤). كذلك كانت غلَّة بَرِّجة من الحرير كبيرة^(٥).

٢ - صناعة الرخام: انتشرت هذه الصناعة في ألمرية أيام المعتصم ابن صمادح؛ وذلك لتوافر مادة الرخام فيها، حيث كان يكثر في جبل سيرا دي لوس فلأبريس Sierra de los Filabres الواقع إلى الشمال منها، وكان يصلح لصناعة الأحواض، والتوابيت، واللوحات المنشورية الشكل، والفوارات، والشواهد اللازمة للمقابر^(٦). وقد وصف ابن الخطيب ألمرية ببلد الرخام^(٧). وأشار الشُّقْنُدي إلى رخام ألمرية فَوَصَفَهُ بالصقيل الملوكي^(٨). وذكر العُدري أن المعتصم بنى بخارج مدينة ألمرية بستاناً سُمِّي بالصُّمَادِجِيَّة، وكان في وسطه بحيرة عظيمة عليها مجالس مفتحة

(١) تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٥٧ حاشية ١.

(٢) الفنون الزخرفية الإسلامية ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٣) المغرب (ج ٢ ص ٢٢٥).

(٤) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٤).

(٥) انظر مشاهدات لسان الدين ص ٨٢.

(٦) انظر تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٦٣، ١٦٥.

(٧) مشاهدات لسان الدين ص ٨٣.

(٨) فضائل الأندلس ص ٥٨، ونفح الطيب (ج ١ ص ٢٢٠).

مفروشة بالرخام الأبيض^(١). وحكى المقرئ في كلامه عن مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر أنَّ هذا الأخير جلب إلى الزهراء الرخام الأبيض من المريّة^(٢). وأضاف: «وبالأندلس عدّة مقاطع للرخام... وفي ناشرة مقطع عجيب للعمد^(٣). وذكر مورنيو أنه عُثِرَ بين أطلال قصر قصبة المريّة على أجزاء من أحواض من الرخام مزينة بزخارف بارزة، منها حوض من الرخام ناقص القاع، بقيت فيه أقدام بشرية تلبس أخفافاً، وخلف ذلك شجرة وأرجل حيوان^(٤).

٣ - صناعة المعادن: تفنّن أهل المريّة بهذه الصناعة، وكان يصنع بمدينتهم من صنوف آلات الحديد والنحاس ما لا يوصف ولا يُحدّ^(٥). ذكر الدكتور مرزوق أنَّ الحفائر الأثرية كشفت في منطقة المريّة عن ثريّات معدنيّة، بعضها كامل، وبعضها ناقص، ويتجلّى فيها جميعاً دقّة الصناعة وجمال الزخرفة، وهي شبيهة بنظائرها في الفن القبطي والفن الفاطمي^(٦). وأشار ابن سعيد إلى وفرة الرصاص في مدينة برّجة من أعمال المريّة^(٧). وذهب المقرئ مذهبه فقال: «وبمدينة برّجة - وهي من أعمال المريّة - معدن الرصاص»^(٨). ويدوره يشير المراكشي إلى وفرة هذا المعدن في دلاية من أعمال المريّة، فيقول: «وفي أعمال المريّة وعلى يوم ونصف منها موضع يعرف بدلاية، فيه معدن رصاص. وفي أعمال المريّة أيضاً على يوم ونصف موضع يسمّى بكارش، فيه معدن حديد أيضاً»^(٩). كما أنّ معادن الفضة كثيرة في جبال حمة بجّانة^(١٠). إضافة إلى وجود المرجان بساحل بيرة من عمل المريّة^(١١). وقد أشار

(١) نصوص عن الأندلس ص ٨٥

(٢) نفح الطيب (ج ١ ص ٥٢٦).

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠١ وناشرة قرية ناحية بجّانة. المصدر نفسه ص ١٤٢ وبجّانة، كما أشرنا سابقاً، مدينة أندلسية قريبة من المريّة. راجع ص ٢٠ حاشية ٦

(٤) الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٣١٩، ٣٢٤.

(٥) انظر الروض المعطار ص ٥٣٨، ونفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣)

(٦) الفنون الحرفية الإسلامية ص ١٧٤

(٧) المغرب (ج ٢ ص ٢٢٨).

(٨) نفح الطيب (ج ١ ص ١٥٠)

(٩) المعجب ص ٢٤٢.

(١٠) انظر نفح الطيب (ج ١ ص ١٤٣).

(١١) المصدر نفسه ص ١٤٢.

أبو عبيد البكري إلى بعض المعادن والأحجار التي خُصِّت بها مدينة المرية وأعمالها، فقال: وَحَجَرٌ يَشْبَهُ الْيَاقُوتَ الْأَحْمَرَ فِي نَاحِيَةِ مَرِيَّةَ بَجَانَةِ، وَفِي خَنْدَقٍ بِهَرَبِ قَرْيَةٍ نَاشِرٌ يُوجَدُ (أَيِ الْحَجَرِ) أَشْكَالًا مُخْتَلِفَةً كَأَنَّهُ مُصْنُوعٌ، حَسَنَ اللَّوْنِ، صَبُورًا عَلَى النَّارِ... وَالْمَرْجَانُ يُخْرَجُ مِنْ بَحْرِ الْأَنْدَلُسِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْهُ فِي سَاحِلِ بَحْرِ بَيْرَةِ مِنْ عَمَلِ الْمَرِيَّةِ مَا لَقِطَ مِنْهُ فِي أَقْلٍ مِنْ شَهْرٍ نَحْوَ ثَمَانِينَ قَنْطَارًا... وَمَعَادِنُ الْفِضَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ كَثِيرَةٌ فِي كُورَةِ تَدْمِيرٍ وَجِبَالِ حَمَّةَ بَجَانَةِ»^(١). وَكَتَفَى أَبُو عَالِبٍ بِالْقَوْلِ: «وَالْيَاقُوتُ الْأَحْمَرُ... وَقَدْ يُوجَدُ فِي نَاحِيَةِ مَدِينَةِ بَجَانَةِ أَشْكَالًا مُخْتَلِفَةً كَأَنَّهُ مُصْنُوعٌ، حَسَنَ اللَّوْنِ، صَبُورٌ عَلَى النَّارِ»^(٢).

٤ - صناعة الزجاج: يذكر المقرئ أنه كان يصنع بالمرية زجاج غريب عجيب لا يوصف^(٣). ولعل المقرئ أراد أن يشير إلى إعجاب الناس بهذا النوع من الزجاج لدقة صنعه وجمال ألوانه، بحيث لم يكن له في المشرق نظير، وقد أشار الدكتور مرزوق إلى ذلك بقوله: كشفت الحفائر الأثرية عن قطع من الزجاج يتجلى فيها جمال التلوين، بعضها من لون واحد، وبعضها من لونين متداخلين في بعضهما تداخلاً ينتزع الإعجاب من كل من يراه^(٤). وأضاف: «وهذا الأخير يستحق منا أن نقف عنده قليلاً، إذ تقوم زخرفته على إضافة خيوط زجاجية، لونها يختلف عن لون الإناء نفسه»^(٥). وأوضح أيضاً كيفية تلوين الزجاج بقوله: يقوم تلوين الزجاج على إضافة أكاسيد مختلفة إلى الزجاج الذائب فتكسبه اللون المطلوب؛ فأكسيد النحاس يُعطي الأخضر الفيروزي، وأكسيد الكوبلت يعطي الأزرق الفاتح، وأكسيد المنجنيز يعطي الأرجواني والبنفسجي، وأكسيد القصدير يعطي اللون الأبيض، وأكسيد الحديد يعطي الأحمر، وحجر اللازورد يعطي الأزرق، والأنيمون (الإثمد وهو حجر يُكْتَحَلُ به، سريع التفتت، وإذا تفتت كان لفتاته بريق ولمعان) يعطي اللون الأصفر^(٦).

٥ - صناعة السفن: رغم الأهمية البحرية التي انفردت بها مدينة المرية من بين مدن الأندلس، والتي أشرنا إليها سابقاً عند الحديث عن موقعها الجغرافي، فإن المصادر لم تذكر لنا شيئاً عن عدد سفن أسطول المعتصم ابن صمادح ولا عن نوع

(٤) الفنون الزخرفية الإسلامية ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٥) المرجع نفسه ص ٢٠٩.

(٦) المرجع نفسه ص ٢٠٨ حاشية ٣.

(١) جغرافية الأندلس وأوروبا ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) قطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٣) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣، ٢٠٢).

هذه السفن وصناعتها، مكتفية بالإشارة إلى توافر المواد الخام اللازمة لصناعة السفن، وإلى وجود دار مخصصة لهذه الصناعة سُمِّيَتْ دار الصنعة أو دار الصناعة^(١).

٦ - صناعة الخزف: كانت هذه الصناعة مزدهرة في المرية، وقد أشار المقرئ إلى ذلك بقوله: كان يصنع بالمرية فخار مزجج مذهب^(٢). وذكر الدكتور مرزوق أن الحفائر الأثرية في المرية كشفت عن أمثلة مختلفة من الخزف^(٣).

٧ - صناعة الزيوت: عن صناعة الزيوت ذكر ابن الخطيب أنه قامت في وادي طبرنش من أعمال المرية صناعة استخراج الزيت من الزيتون^(٤).

ثالثاً - التجارة:

١ - العوامل التي ساعدت على ازدهار التجارة: شهدت المرية في عهد المعتصم ابن صهاح نشاطاً تجارياً على المستويين الداخلي والخارجي. ومما ساعد على قيامها بهذا الدور التجاري الهام ثلاثة أمور؛ أهمية موقعها على البحر الأبيض المتوسط، ووجود قيسارية في دار الصنعة، وكثرة خيراتها.

بالنسبة إلى موقعها فإنها تنفرد عن غيرها من مدن الأندلس بخليج شديد الاتساع والعمق، يتسع لعدد كبير من السفن ويتميز بهواء مياحه وقلّة أمواجه^(٥).

أما القيسارية، فإن التجار كانوا يقصدونها ليؤمنوا فيها على أموالهم^(٦). وعن خيرات المرية، ذكر المقرئ أنها كانت متوافرة بكثرة إلى حدّ أنه لم يكن بالأندلس أكثر من أهل المرية مالاً ولا أعظم متاجر وذخائر^(٧). وذهب ابن حوقل إلى أن المرية كانت مشهورة بالغلات، والتجارات، والكروم، والعمارات، والأسواق، والبيوع، والحمامات، والخانات^(٨).

(١) راجع أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩٢)، والمغرب (ج ٢ ص ١٩٣).

(٢) نفح الطيب (ج ١ ص ٢٠٢).

(٣) الفنون الزخرفية الإسلامية ص ١١٦.

(٤) مشاهدات لسان الدين ص ٨٤.

(٥) انظر تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ٤٢.

(٦) ستحدث عنها بإسهاب في فصل «منشآت المرية المعمارية» ص ١٣١.

(٧) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣). وانظر أيضاً الروض المعطار ص ٥٣٨.

(٨) صورة الأرض ص ١١١.

٢ - نشاط حركة التصدير والاستيراد: نشطت المريّة في ميدان التجارة، فكانت تصدر عبر مينائها الشهير الكثير من محاصيلها الزراعية ومنتجاتها الصناعية. وكانت، بالمقابل، تستورد جميع البضائع التي تحتاجها. ولقد أشار ياقوت إلى ذلك بقوله: «منها يركب التجار، وفيها تحلّ مراكب التجار، وفيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب»^(١). وذهب ابن الخطيب مذهباً، فقال: «بحرّها مرفأ السفن الكبار»^(٢). ونوّه الحميري بغنى أهل المريّة ونشاطهم التجاري، محدّداً في الوقت ذاته وجهة قدوم التجار إلى حاضرتهم، فقال: «وكانت المريّة تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية والشام، ولم يكن بالأندلس أكثر من أهلها مالا»^(٣). ولم يغب نشاط المريّة التجاري عن الشقندي، فوصفه بقوله: «وبها كان محطّ مراكب النصارى ومجتمع ديوانهم، ومنها كانت تُسفر لسائر البلاد بضائعهم، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التي تصلح لهم»^(٤). ويقول شيخ الربوة: «وقصدها التجار لشراء الحرير، وما يُعمل فيها من الستور وغيرها»^(٥). وهكذا كانت المريّة سوقاً نافقة لمنسوجاتها التي كانت تُحاك من الحرير والكتان والصوف^(٦).

ذكر المقرّي أنّ أهل المريّة كانوا يصدّرون الفائض من حصّى مدينتهم إلى خارج البلاد، فقال: «وحصى المريّة يُحمّل إلى البلاد، فإنّه كالدرّ في روثيقه، وله ألوان عجيبة، ومن عاداتهم أن يضعوه في كيزان الماء»^(٧). وتغنّى الشقندي بهذا الحصى العجيب: «وفيها (أي في المريّة) الحصى الملوّن العجيب الذي يجعله رؤساء مراكش في البراريد»^(٨). كما أشاد ابن سعيد بحصى المريّة المُجَزَّع بقوله: «وأما المريّة، فلها على غيرها من نظرائها أظهر مزيّة، بنهرها الفضيّ، وبحرها الزبرجديّ، وساحلها التبرّيّ، وحصّاها المُجَزَّع»^(٩). وأورد لنا المقرّي، نقلاً عن الجباري في

(١) معجم البلدان (ج ٥ ص ١١٩).

(٢) مشاهدات لسان الدين ص ٨٣.

(٣) الروض المعطار ص ٥٣٨.

(٤) فضائل الأندلس وأهلها ص ٥٨ ونفح الطيب (ج ٣ ص ٢٢٠).

(٥) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ٢٤٣.

(٦) انظر مشاهدات لسان الدين ص ٨٣، وتاريخ العرب ص ٦٠٧.

(٧) نفح الطيب (ج ١ ص ٢٠١).

(٨) فضائل الأندلس وأهلها ص ٥٨، ونفح الطيب (ج ٣ ص ٢٢٠).

(٩) المغرب (ج ٢ ص ١٩٣).

المُشْهَب، رواية تدلُّ على قوة مركز المَرِيَّة التجاري في عهد مليكها المعتصم ابن صمادح، ومُفَادُّها أَنَّ المعتمد ابن عباد ملك إشبيلية أمر خادمه بإعطاء الأديب أبي محمد^(١) عبدالله بن إبراهيم مبلغاً من المال يعيش في فائدته، فأنصرف أبو محمد بهذا المال إلى المَرِيَّة، وكان يعجبه سكنها والتجارة بها؛ لكونها ميناء لمراكب التجار من مسلم وكافر فتَجَرَ فيها^(٢).

وخلال حديثه عن الأندلس يُعطينا ابن حوقل صورة واضحة عن تجارتها، ولكن دون أن يخصَّ المَرِيَّة بالذكر، فيقول: «وبالأندلس غير طَرَاظٍ يَرُدُّ إلى مصر متاعه، ورُبَّمَا حُمِلَ منه شيء إلى أقاصي خراسان وغيرها»^(٣). ويضيف: «ويُعْمَلُ في أقطار بلدهم من الكتَّان الذي للكُسُوة، وَيُجَلَّبُ إلى غير مكان، حتى رُبَّمَا وصل إلى مصر منها الكثير. فأما أَرْدِيَّتُهُم المعمولة ببجانة فتُحْمَلُ إلى مصر ومكة واليمن وغيرها»^(٤).

ويدوره يتحدث الأستاذ ليفي بروفسال عن نشاط مدينة المَرِيَّة التجاري، فيقول: أمّا من جهة العلاقات الاقتصادية في القرن الحادي عشر الميلادي، أي القرن الخامس الهجري، فإنها أخذت ترتقي ارتقاءً مذهشاً؛ ذلك أن أساطيل الموانئ الأندلسية التجارية في إشبيلية ومالقة ودانية وبلنسية والمَرِيَّة خاصة كانت في جميع طرق البحر المتوسط تنقل المنتجات القادمة من مختلف أنحاء إسبانيا أو من المعامل الصناعية في المدن الإسلامية الأندلسية، وكانت تلك العلاقات دائمة على وجه الخصوص مع مصر التي أخذت تأثيرها على إسبانيا يزداد منذ القرن المذكور^(٥).

(١) وهو صاحب كتاب «الحديقة في البديع» وعمُّ الجِجَارِيِّ صاحب كتاب «المُشْهَب»، قَصَدَ إقبال الدولة ملك دانية، ومدَّحَ أبا بكر بن عبد العزيز مُدَبِّرَ أمر بلنسية انظر المغرب (ج ٢ ص ٣٤) وصفحات متفرقة من نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب (ج ٣ ص ٥٧٠ - ٥٧١).

(٣) صورة الأرض ص ١٠٥.

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٩.

(٥) حضارة العرب في الأندلس ص ٥٣ - ٥٤.

الحياة الأدبية واللغوية والعلمية في مملكة المرية في عهد المعتصم ابن صمادح

لمحة عامة :

رغم الانحلال السياسي الذي عرّفته الأندلس في عصر ملوك الطوائف، فإن نهضة ثقافية هائلة سادت البلاد؛ وذلك بفضل تنافس هؤلاء الملوك في اجتذاب فحول الشعراء والكُتّاب والعلماء إلى حواضرهم التي حوّلوها، على حدّ قول المستشرق الإسباني إميليو غرسيّة غومس، إلى «بغدادات صغيرة»^(١). فهؤلاء الملوك كانوا يتنافسون في فخامة الشأن، حتى عُرفَ عهدهم بالرخاء، وغدّت بلاطاتهم أماكن لاجتماعات فكرية يتحلّق فيها الشعراء والأدباء والعلماء والفنانون^(٢).

ولقد كان شعب المرية، كغيره من شعوب الأندلس، كثير الإقبال على العلم، سباقاً في ميدان الآداب والعلوم، متوقّد الذهن، مكتسب المعارف، يذكر المقرّي، نقلاً عن ابن سعيد، أن أهل الأندلس كانوا كثيري الرغبة في العلم، وكان العالم عندهم معظماً من الخاصّة والعامة. ولعدم وجود مدارس تُعِينُهُمْ على طلب العلم، كانوا يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة، أي كانوا يطلبون العلم بباعث ذاتي، ويُنفِقُونَ من عندهم حتى يعلموا، وكلّ العلوم لها عندهم حظّ وأعتناء إلا الفلسفة والتنجيم؛ فإنّ لهما حظاً عظيماً عند خواصّهم، ولا يُتظاهرُ بهما خوف العامة. ومنّ كان يشتغل بهما أطلقَتْ عليه العامة اسم زنديق، وقيدتْ عليه أنفاسه، فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة، أو أحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو قتله السلطان تقرّباً

(١) Poemas Árábigoandaluces, p 32.

(٢) انظر تاريخ آداب العرب (ج ٣ ص ٢٩٢) وحصارة العرب في الأندلس ص ٢٠.

لقلوب العامة. وكثيراً ما كان ملوكهم يأمرّون بإحراق كتب الفلسفة^(١). ويضيف: كان للفقهاء عندهم رونق ووجاهة، فكانت سِمَةُ الفقيه عندهم جليلة بل أرفع السمات. وكان النَحْوُ عندهم في نهاية من علو الطبقة، فكانوا كثيري البحث فيه، وكلُّ عالمٍ لا يكون مُتَمَكِّناً منه فليس عندهم بمستحق للتميّز. وعلم الأدب المنشور من حفظ التاريخ والنظم والنثر أنبل علم عندهم، والشعر عندهم له حَظٌّ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة، والمجيدون منهم يُنشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويُوَقَّعُ لهم بالصّلات على أقدارهم^(٢).

وهكذا حفل عهد ملوك الطوائف بالشعراء والأدباء، وساد البلاد نهضة أدبيّة رائعة، وصفها غرسية غومس بقوله: «كان هذا العصر عظيماً للشعر... وكان الشعر قد أነع ثمره أكثر من غيره من الفنون ولا سيّما في إشبيلية عاصمة بني عباد»^(٣). وشاركه الرأي الأستاذ ألبير مطلق، فقال: «كانت الصّغنة الأدبيّة أغلب على هذا العصر من سواها؛ لحاجة كلّ أميرٍ إلى بطانةٍ من الشعراء تُشيدُ بمناقبه وتنتحل له مناقب أخرى ليست فيه»^(٤). ويقدم لنا الشّقندي صورة شاملة عن حال الأدب في عواصم الأندلس فيقول: «ولمّا ثار بعد انتشار هذا النّظام ملوك الطوائف وتفرّقوا في البلاد، كان في تفرّقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد، إذ نفّقوا سوق العلوم، وتبارّوا في المثوبة على المنشور والمنظوم، فما كان أعظم مباهاتهم إلّا قول: «العالمُ الفلانيّ عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختصّ بالملك الفلاني... وقد سمّعت ما كان من الفتيان العامريّة مجاهد ومنذر وخيران، وسمّعت عند الملوك العربيّة: بنو عباد، وبنو صمّادح، وبنو الأفضس، وبنو ذي النّون، وبنو هود، كلّ منهم قد خلّد فيه من الأمداح ما لو مدّح به الليل لصار أضواً من الصباح، ولم تزل الشعراء تتهاذى بينهم تهادي النوايسم بين الرياض، وتفتك في أموالهم فتكة البرّاص»^(٥).

(١) نفح الطيب (ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٢١).

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٣) Poemas Árábigoandaluces, p. 32.

(٤) الحركة اللغوية في الأندلس ص ٢٥٧.

(٥) نفح الطيب (ج ٣ ص ١٨٩ - ١٩٠) والبرّاص هو الذي يأكل كلّ شيء من ماله ويُفسدّه. لسان العرب والقاموس المحيط، مادة (برص).

أولاً - النشاط الأدبي :

حَظِيَّتِ الْمَرِيَّةُ بقسط كبير من النشاط الأدبي ، فبلغت أوجها الأدبي في عهد بني صمادح الذين نعتهم ابن دحية بقوله : «وبنو صمادح بيت العلوم الفائقة والآداب الرائعة» .^(١) ورسم لنا المستشرق الإسباني غونثالث بالنثيا الصورة التي انعكس عليها الأدب في المريّة بقوله : «بلغت الحركة الأدبية شأوها في بلاط المريّة أيام المعتصم ابن صمادح . . إذ أحاط نفسه بكوكبة من الشعراء الذين وهبوا مُلكه عزّاً ومَجْداً أثيلين»^(٢) .

أ - دور المعتصم في النشاط الأدبي : ساعد المعتصم على دفع النشاط الأدبي من خلال المجالس الأدبية التي كان يعقدها ويرعاها بقصره ، حيث لم تكن أيامه ، كما يقول ابن خاقان ، تخلو «من مناظرة ، ولا عُمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة ، إلا ساعات أوقفها على المُدام ، وعَظَّلَها من ذلك النُّظام» .^(٣) والذي حفّزه على إقامة مثل هذه المجالس مَلَكَتهُ الأدبية المرفهة وشاعريته الفذة التي تتجلّى صورتها في أشعاره الحسنة التي احتفظت بها مُتُونُ الكتب ورَدَدَتْها ؛ من ذلك ما كتبه إلى ذي الوزارتين أبي بكر محمد بن عَمَّار الشُّلبي يعاتبه ، وقد بلغه عنه ما أوجب ذلك من سوء الاغتياب (الطويل) :

وَزَهَّدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ	وَطَوَّلُ اخْتِبَارِي صَاحِباً بَعْدَ صَاحِبٍ
فَلَمْ تُرْنِي الْأَيَّامُ خِلَافاً تُسْرُنِي	مَبَادِيهِ إِلَّا سَاءَنِي فِي الْعَوَاقِبِ
وَلَا قُلْتُ أَرْجُوهُ لِيَدْفَعَ مُلِمَّةٍ	مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا كَانَ إِحْدَى الْمَصَائِبِ ^(٤)

فأجابه ابن عَمَّار على الوزن والقافية نفسيهما :

فَدَيْتُكَ لَا تَزْهَدْ فَتَمَّ بَقِيَّةُ سترغبُ فيها عند وَقْعِ التجارب^(٥)

(١) المطرب ص ٣٤ .

(٢) Historia de la Literatura arábigoespañola, p 89

(٣) قلائد العقيان ص ٤٧ ، وانظر أيضاً المغرب (ج ٢ ص ١٩٦ - ١٩٧) .

(٤) انظر الذخيرة (ق ٢ م ١ ص ٤٠٣) ، والمطرب ص ١٧٣ ، ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٠) ، والمغرب (ج ٢ ص ١٩٧) ، والحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥) وفيه «النوائب» بدل «المصائب» .

(٥) انظر الذخيرة (ق ٢ م ١ ص ٤٠٣ - ٤٠٤) ، والمطرب ص ١٧٣ .

ومن شعر المعتصم في الغزل قوله (المنسرح):

يا مَنْ بِجِسْمِي لَبُعْدِهِ سَقَمَ ما مِنْهُ غَيْرُ الدُّنُوِّ يَبْرِيْنِي
بَيْنَ جَفَوْنِي وَالنُّومِ مُعْتَرَكُ تَصْغُرُ عَنْهُ حُرُوبُ صِفِّينِ
إِنْ كَانَ صَرَفُ الزَّمانِ أَبْعَدَنِي عَنْكَ فَطَيْفُ الْخِيالِ يُذْنِبُنِي^(١)

وإلى هذا الشعر نظر بهاء الدين^(٢) زهير بن محمد فقال من جملة قصيدة (مجزوء

الرجز):

بَيْنَ جَفَوْنِي وَالكَرَى مَذْ غَبَّتْ عَنِّي مُعْتَرَكُ^(٣)

ويورد لنا ابن خاقان نصاً يدل على شاعرية المعتصم وقدرته على ارتجال الشعر: وأخبرني الوزير المذكور (أي أبو خالد بشتغير) أنه حضر مجلسه بالصُّمَادِجِيَّة^(٤) في يومٍ، وفيه أعيان الوزراء ونُبُهَاءُ الشعراء، فقعده على موضع يتداخل الماء فيه، ويتلوى في نواحيه والمعتصم منشرح النفس، مجتمع الأنس، فقال (البسيط):

أَنْظُرْ إِلَى حُسْنِ هَذَا الْمَاءِ فِي صَبِيهِ كَأَنَّهُ أَرْقَمُ^(٥) قَدْ جَدُّ فِي هَرَبِهِ
فَاسْتَبَدَعُوهُ، وَتَيَّمُوهُ بِهِ وَأَوْلَعُوهُ، فَاسْكَبَ عَلَيْهِمْ شَابِيبَ نَدَاهِ، وَأَغْرَبَ بِمَا أَظْهَرَهُ
مِنْ بَشِيرِهِ وَأَبْدَاهِ^(٦).

كذلك أورد الأزدني نصاً تجلّت فيه مقدرة المعتصم على قول الشعر على البديهة، فقال: خرج المعتصم يوماً إلى بعض منتزهاته، فحلّ بروضةٍ قد سَفَرَتْ عن وجهها

(١) وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٠ - ٤١).

(٢) هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي بن عاصم المهلب العتكي، الملقب بهاء الدين الكاتب؛ من فضلاء عصره، اتّصل بخدمة السلطان الملك الصالح بالديار المصرية وكانت وفاته في سنة ٦٥٦ هـ/

١٢٥٨ م. وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٨)، وفوات الوفيات (ج ١ ص ٤٤).

(٣) وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤١).

(٤) هي قصور المعتصم اس صمادح، نفح الطيب (ج ٢ ص ٣٦٦) وفي الوافي بالوفيات (ج ٥ ص ٤٥):

«الصمادحية من بلاد الأندلس». وانظر أيضاً Los Palacios del Taifa almeriense, al-Mu'tasim, III. p.15 - 20.

(٥) الأرقم من أسماء الحية، فيه سواد وياض، والجمع أرقام، يقال للذكر ولا يقال حية رقماء ولكن رقشاء. المطرب ص ٣٦، ولسان العرب والقاموس المحيط مادة (رقم).

(٦) قلائد العقيان ص ٤٩ وانظر أيضاً نفح الطيب (ج ١ ص ٦٦٦) و(ج ٣ ص ٣٢٩)، والمطرب ص ٣٦،

والمغرب (ج ٢ ص ١٩٧)، والذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٦)، والحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٥).

البهيج وتنفست عن مسكها الأريج، فتشوق إلى الوزير أبي طالب بن غانم، أحد كبراء دولته، فكتب إليه بدمها في وريقة كُرتب يعود من شجرة (المخلع البسيط):

أَقْبِلْ أبا طالب إلينا وأسقط سُقُوطَ النَّدى عَلَيْنَا
فنحن عِقدٌ بغير وَسْطَى ما لم تكن حاضراً لَدَيْنَا^(١)
ومثله قول المتوكل ابن الأفطس، صاحب بطليوس، يستدعي الوزير أبا طالب ابن غانم، أحد ندمائه ونجوم سمائه (المخلع البسيط):

أَقْبِلْ أبا طالب إلينا وَقَعَ وَقُوعَ النَّدى عَلَيْنَا
فنحن عِقدٌ بغير وَسْطَى ما لم تكن حاضراً لَدَيْنَا^(٢)
وقد أقر ابن خاقان بشاعرية المعتصم: «وكان له نظم أرج النفحة، بهج الصفحة، يصف به مجالس إيناسه، ويصرفه بين ندمائه وكأسه، ولم يزل كذلك إلى أن نازلته المحلات، وطاولته المحلات، ففاضت نفسه في أثناء منازلهم جزعاً»^(٣). ووصفه ابن عذاري بقوله: «وكان من أهل الأدب والمعارف فاضلاً عاقلاً، كان لأهل الشعر عنده سوق نافقة، فقصده جمع منهم»^(٤). ونعته ابن بسام بالأمير المسالم الذي ابتعد عن الحروب واقتصر على إقامة مجالس الأدب والأنس. يقول: «ولم يكن أبو يحيى هذا من فحولة ملوك الفتنة، أخلد إلى الدعة، واكتفى بالضيق من السعة، واقتصر على قصر يَبْنِيهِ، وعَلَقَ يَقْتَنِيهِ، وميدان من اللذة يستولي عليه ويبرز فيه، غير أنه كان رَحْبَ الْفِئَاءِ، جَزَلَ الْعِطَاءِ، حليماً عن الدماء والدَّهْمَاءِ، طافت به الآمال، وآتسع في مدحه المقال، وأُعْمِلَتْ إلى حَضْرَتِهِ الرُّحَالُ، وَلَزِمَهُ جَمَلَةٌ من فحول شعراء الوقت كأبي عبد الله بن الحداد، وأبي الفضل ابن شرف، وابن عبادة، وابن الشهيد، وغيرهم»^(٥).

(١) بدائع البدائنه ص ٣٧٤. وقد ورد هذا النص مع البيت الأول في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٢٨ - ٣٢٩)

(٢) انظر قلائد العقيان ص ٤٦. وفي نفح الطيب (ج ١ ص ٦٦٦) و (ج ٤ ص ١٥٥)، اختلاف يسير عما هنا

(٣) قلائد العقيان ص ٤٧.

(٤) البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٨).

(٥) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٢ - ٧٣٣). وورد هذا النص مقولاً عن ابن بسام في المغرب (ج ٢ ص ١٩٥)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩٠ - ١٩١)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٧٥). وورد في الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٢) منسوباً إلى أبي عامر محمد بن أحمد بن عامر السالمي كما ورد غير كامل في وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٠)، والوافي بالوفيات (ج ٥ ص ٤٥) دون أن يشير صاحباها إلى ابن بسام.

وهكذا كان المعتصم من أهل الأدب، يرتاح للشعر كثيراً، فهتفتُ بِأَسْمِهِ الْمُدَّاحِ وصارَ مَرْمَى جَمَارِ مدائحهم، على حد قول ابن خاقان: مَلِكٌ أَقَامَ سَوْقَ المَعَارِفِ على ساقها، وأبدع في أنْتَظَامِ مَجَالِسِهَا وَأَتَّسَاقِهَا. . وكانت دولته مشرعاً للكرم، ومطلعاً للهمم، فلاحَتْ بِهَا شَمُوسٌ، وآرتاحت فيها نفوس، ونفقتُ فيها أَقْدَارُ الأَعْلَامِ، وتدفَّقتُ بِحَارِ الكَلَامِ»^(١) وقول الذهبي: «وقد امتدحه جماعة من فحول الشعراء»^(٢).

وذهب ابن الأثير إلى أنَّ المعتصم كان قليل العطاء، إلَّا أنَّه كان مقصد أهل العلم والأدب: «رغم أنَّصافه بكثرة الجُبْنِ وقلة الجُود؛ وعلى ذلك قَصَدَهُ العلماء والأدباء»^(٣). وتحدَّث ابن الأثير عن صِيتِهِ بين رجالات العلم والأدب فقال: فلمَّا كبر أخذ نفسه بالعلوم ومكارم الأخلاق، فأمتدَّ صِيتُهُ، واشتهر ذكره، وعظم سلطانه، والتحق بأكابر الملوك^(٤). وقال الحجازي في وصفه: «مَلِكٌ تَمَلَّكُهُ الإِحْسَانُ، وَأُطْلِعَهُ الْفَضْلُ غُرَّةً فِي وَجْهِ الزَّمَانِ، فَكَأَنَّ أَبَا تَمَامٍ غَنَاهُ بِقَوْلِهِ (المنسرح):

تَحْمَلُ أَشْبَاحَنَا إِلَى مَلِكٍ نَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ أَدَبِهِ»^(٥)

فهتفتُ بِأَسْمِهِ الْمُدَّاحِ، ومن المجد له عطف أرتياح»^(٦). وقال فيه أشباح: «وقد اشتهر في جميع أنحاء الجزيرة بمحبته للعلوم والفنون والآداب، وكان ينافس في هذا المضمار أعظم العلماء والشعراء والأمراء في عصره»^(٧).

ب - دور أولاد المعتصم في النشاط الأدبي: إذا كان المعتصم شاعراً مجيداً فقد كان ابنه أيضاً شعراً مطبوعين، نخصُّ بالذكر منهم رفيع الدولة أبا زكرياً يحيى ابن المعتصم ويكنى أيضاً أبا يحيى وهي كنية والده، وعزَّ الدولة أبا مروان عبيد الله ابن المعتصم، وأبا جعفر أحمد ابن المعتصم، وأمَّ الكرم وقيل: أم الكرام بنت المعتصم. ولقد آفتخر

(١) قلائد العقيان ص ٤٧. وانظر المغرب (ج ٢ ص ١٩٦) حيث ورد نص ابن خاقان ناقصاً.

(٢) سير أعلام النبلاء (ج ١٨ ص ٥٩٤).

(٣) الحلة السيرة (ج ٢ ص ٨٣).

(٤) الكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٩٢).

(٥) البيت من قصيدة قالها أبو تمام يمدح أبا الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي ورواية صدره في ديوان أبي تمام ص ٥٠ هكذا: ترمي بأشباحنا إلى مَلِكٍ.

(٦) انظر المغرب (ج ٢ ص ١٩٦).

(٧) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٩٨).

بهم أهل الأدب، فقال ابن بسام في رفيع الدولة: «وأبو يحيى فَجَرَّ ذلك الصباح، وضوء ذلك المصباح. . وله أدب كالروض إذا زهر، والصبح إذا أشتهر، وَقَفَّه على النسيب، وصَرَفَه إلى المحبوبة والحبيب»^(١). وذكر ابن الأبار محاسنه في الشعر بقوله: «ولم يكن في بني صبادح أشعر منه»^(٢). ووصف المقرئ نظمته بالرائق^(٣).

أما عز الدولة، فقد وصفه المقرئ. نقلاً عن الشَّقْنَدِي، بقوله: «إِنَّ عَزَّ الدولة أشعر من أبيه»^(٤).

كذلك جَرَى أبو جعفر أحمد ابن المعتصم في الشعر تجرَى أبيه وإخوته، فَأَحْسَنَ في النُّظَام إحساناً أوجب أَنْ يُنَبَّه عليه، فمن ذلك قوله (الوافر):

أَتَى بِالْبَذْرِ مِنْ فَوْقِ الْقَضِيبِ فَطَارَتْ نَحْوَهُ طَيْرُ الْقُلُوبِ^(٥)
وَأُمُّ الْكَرَمِ بِنْتُ الْمُعْتَصِمِ، الَّتِي آعَتْنِي وَالِدُهَا بِتَأْدِيهَا حَتَّى نَظَمْتُ الشَّعْرَ
وَالْمَوْشِحَاتِ.

ولقد أورد المؤلفون الأندلسيون لها شعراً قالتها في فتى عَشِقَتَهُ وهو من فتيان قصر أبيها ويعرف بالسَّمَسَار^(٦).

ج - شعراء المرية في عهد المعتصم: الشعراء الذين قصدوا المعتصم كُثُرًا، وعلى رأسهم:

١ - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم المعروف بالحداد، القيسي النَّمِيرِي^(٧):

وُلِدَ فِي وَادِي آش، إِلَّا أَنَّهُ آسَتْوَطَنُ الْمَرِيَّةِ مِنْذُ طِفْلُوته، وَقَضَى فِيهَا أَكْثَرَ عَمْرِهِ،

(١) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٧).

(٢) الحلة السيرة (ج ٢ ص ٩٢).

(٣) نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٩).

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥) المغرب (ج ٢ ص ٢٠٠). وقد ورد اسم أبي جعفر في المطرب ص ٣٧، ونفح الطيب (ج ٣ ص ٣٧٠).

(٦) راجع الشعر ص ٨٠ عند الحديث عن «نساء المرية».

(٧) انظر ترجمته في مسالك الأنصار (ح ١١ الورقتان ٤٠٠ - ٤٠١)، والأفضليات (ج ١ الورقة ٣٩)، وعقود الحمان (ح ٣ الورقة ٢٠٦٢)، والذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٦٩١)، ومطمح الأنس ص ٣٣٦، ووفيات =

ولازم بلاط بني صمادح فأشتهر بمدح رؤسائهم. ثم خرج مُكرهاً عن المريّة فتوجّه إلى مرسية وسرقسطة وذلك في سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م. وفي سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م، عاد إلى المريّة فبقي فيها قاصراً أمداحه على أميرها، إلى أن توفي في حدود الثمانين والأربعمئة. وله ديوانٌ شعرٍ كبيرٌ مُبَوَّبٌ على حروف المعجم، تناول فيه مختلف الأغراض الشعرية. ولقد صدرت معظم مدحِهِ في المعتصم ابن صمادح، وكان فيها طويل النفس الشعري بحيث تجاوز كثيرٌ منها المئة، ومنها ما نيفَ على الأربعمئة كهمزيّته^(١) التي قالها في المعتصم وأستفتحها بالغزل، وأولها (البسيط):

أَرَبَّرَبْ بالكثيبِ الْفَرْدِ أَمْ نَشَأْ؟ وَمُعْصِرٌ فِي اللَّثَمِ الْوَرْدِ أَمْ رَشَأْ^(٢)؟
ومنها:

حَوَى الْمَحَاسِنَ فِي قَوْلٍ فِي عَمَلٍ فَمِثْلَ مَهْنَتِهِ الْأَمْلَاكُ مَا هِنَأُوا^(٣)
وَلِلثُّغُورِ بِذِكْرِي عَذْلِي وَلَعٌ وَلِلْقُلُوبِ لِمَثْوَى حُبِّي لَطَأُ^(٤)

= الأعيان (ج ٥ ص ٤١)، وفوات الوفيات (ج ٣ ص ٢٨٣)، والوافي بالوفيات (ج ٢ ص ٨٦)، والتكملة لكتاب الصلة (ج ١ ص ٣٩٨)، والذيل والتكملة (السفر السادس ص ١٠) والمغرب (ج ٢ ص ١٤٣)، ورايات المبرزين ص ٧٤، وفي النصّ الإسباني ص ٢٣٤، والمقتضب من تحفة القادم ص ١٧٤، والمحمدون من الشعراء ص ٩٩، والإحاطة بتحقيق عنان (ج ٢ ص ٣٣٣)، والإحاطة التي لا تحمل أسم المحقق (ج ٢ ص ٢٥٠)، ونهاية الأرب (ج ٢ ص ٢٥١)، وبدائع البدائه ص ٣٦٥، ونفح الطيب (ج ٤ ص ٤٨ - ٤٩) و(ج ٧ ص ٢٦)، وسير أعلام النبلاء (ج ١٨ ص ٦٠١ - ٦٠٢)، وكشف الظنون (ج ١ ص ٧٦٥)، وهدية العارفين (ج ٢ ص ٧٥) ودائرة المعارف (ج ٢ ص ٤٣٩)، ومعجم المؤلفين (ج ٨ ص ٢٩١)، والأعلام (ج ٥ ص ٣١٥) ومقدمة ديوان ابن الحداد الأندلسي و Encyclopédie de l'Islam V.III. p 799.

(١) ورد منها ما يزيد على الثمانين بيتاً في الخريدة طبعة الدار التونسية (ج ٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٤، ٢٨٣ - ٢٨٧) وفي طبعة دار نهضة مصر ص ١٨١، ١٩٥ - ٢٠٥. وهي في ديوان ابن الحداد الأندلسي ص ١٠٨

(٢) يتساءل الشاعر هنا، جَرِيّاً على عادة الشعراء الحاهليين فيقول: اصحح أنني أَلَمَحُ حسناوات يَتَجَمَّعْنَ في ذلك الكثيب ويسهرُ فتاتي التي هَفَا لها قلبي؟ مِشْبَهاً فتياتِ الحيِّ بِالرَّبْرِ بِجامع اتّساع العيون وحسبها، ومُشَبَّهاً محوته، وهي تشدُّ اللَّثَامَ على فمها خفرةً وتناد بخصرها النحيف، بظبي أخذه النشاط واللّعب.

(٣) يقول: إِنَّ ملوك الطوائف لم يَهَيِّتُوا كما هَنَّا المعتصم.

(٤) يقول إِنَّ جميع الناس مُؤَلَّغُونَ بالحديث عن عدل المعتصم؛ لأنهم شديدو التعلُّق به.

وله همزية^(١) ثانية أكثر من مائة بيت، قالها في المعتصم وأستفتحها بالغزل، وأولها (الطويل):

لَعَلَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ شَاطِئُ فِكَالْعَنْبَرِ الْهِنْدِيِّ مَا أَنَا وَاطِئُ

ومنها:

وَلَوْلَا عَلَى الْمَلِكِ ابْنِ مَعْنٍ مُحَمَّدٍ لَمَّا بَرَحْتَ أَصْدَافَهُنَّ اللَّالِيَّ^(٢)

٢ - أبو الفضل جعفر بن أبي عبدالله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي البرجي القيرواني^(٣):

ولد في القيروان سنة أربع وأربعين وأربعمائة / ١٠٥٢ م، وخرج منها عند اشتداد فتنة العرب عليها سنة سبع وأربعين وأربعمائة / ١٠٥٥ م إلى الأندلس، وأستوطن بَرْجَة من ناحية ألمرية. وقيل: دخل الأندلس مع أبيه وهو ابن سبع سنين، وقيل: ولد في بَرْجَة. اشتهر بمدح المعتصم ابن صمادح، فقصر أمداحه عليه، وكان من جُلَّة الأدباء وكبار الشعراء. ولقد أطنب الحجاري في الثناء عليه، وعَظَّمَه في الشعر. كانت وفاته سنة أربع وثلاثين وخمسمائة. حكى المقرئ أن ابن شرف، لما وَفَدَ من بَرْجَة على المعتصم، أنشده قصيدته الفائقة وأولها (الرمل):

مَطَلَ اللَّيْلُ بِوَعْدِ الْفَلَقِ وَتَشَكَّى النَّجْمُ طُولَ الْأَرْقِ
ضَرَبَتْ رِيحُ الصَّبَا مِسْكَ الدُّجَى فَاسْتَفَادَ الرُّوضُ طِيبَ الْعَبَقِ

(١) ورد منها ما يزيد على الثلاثين بيتاً في الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٠٩ - ٧١١)، والخريدة طبعة الدار التونسية (ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٧٣)، وطبعة دار نهضة مصر (ص ١٧٧ - ١٨٠)، ومسالك الأبصار (ج ١١ الورقة ٤٠٢)، ومطمح الأنفس (ص ٣٤٠ - ٣٤١)، ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤١ - ٤٢)، ونفح الطيب (ج ٣ ص ٥٠٣).

(٢) يريد أن يقول: إنَّ اللَّالِيَّ لم تترك أَصْدَافَهَا إِلَّا لِتُقَدِّمَ إِلَيْكَ، أيها الملك، احتراماً لِعُلَاكَ وتقديساً لمجدك. وبمعنى آخر، إنَّ لَالِيَّ شعري، أي قصائدي المدحية، لم تُقَدِّمَ لغيرك من ملوك العصر.

(٣) انظر ترجمته في الذخيرة (ق ٣ م ٢ ص ٨٦٧ - ٨٨٦)، وبغية الملتبس ص ٢٥٦، وقلائد العقيان ص ٢٥١ - ٢٥٨، والصلة (ج ١ ص ١٢٩ - ١٣٠)، والمطرب ص ٦٦ - ٦٧، ٧١، والمغرب (ج ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣٢)، ونفح الطيب (ج ٣ ص ٣٩٥ - ٣٩٦)، والأعلام (ج ٢ ص ١٢٨)، و-Poemas arábicas.

bigoandaluces, p.35. et Historia de la literatura arábigoespañola, p.23.

ومنها:

يا بَنِي مَعْنٍ لَقَدْ ظَلَّتْ بِكُمْ شَجَرٌ لَوْلَاكُمْ لَمْ تُورَقِ

ولما سمعها المعتصم لعبت بآرتياحه، وحسده بعض من حضر، وعلى رأسهم ابن أخت غانم^(١). وأحسن ما قاله ابن شرف في المعتصم هذا البيت الذي يعبر فيه عن قدرة فائقة في النظم، حيث يربط المديح بالغزل (البسيط):

لَمْ يَبْقَ لِلْجَوْرِ فِي أَيَّامِكُمْ أَثَرٌ إِلَّا الَّذِي فِي عَيُونِ الْغَيْدِ مِنْ حَوَرِ^(٢)
وعلق ابن سعيد على هذا البيت بقوله: لما سمع الحجاري هذا البيت أطنب في الثناء على قائله وعظمه في الشعر^(٣).

٣ - أبو عبد الله محمد بن عبادة الوشاح المالقي، المعروف بابن القزاز^(٤):

هو من صدور الأدباء، ومشاهير الشعراء الألباء، أكثر ما أشتهر اسمه في أوزان الموشحات التي كثر استعمالها عند أهل الأندلس، وهو أول من برع فيها، وكان له باع فسيح في طريقتها. اختص بالمعتصم ابن صمادح وكان شاعره، ومن شعره فيه قوله (الطويل):

ولو لم أكن عبداً لآلِ صمادح وفي أرضهم أصلي وعيشتي ومولدي
لما كان لي إلا إليهم ترحل وفي ظلهم أمسي وأضحى وأغتدي^(٥)

(١) نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٩٣ - ٣٩٥)، وانظر أيضاً الذخيرة (ق ٣ م ٢ ص ٨٦٩ - ٨٧٢)، والمغرب (ج ٢ ص ٢٣٠).

(٢) انظر المغرب (ج ٢ ص ٢٣٢).

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها. وقد ورد البيت في نفح الطيب (ج ٤ ص ٦٧) منسوباً إلى والد أبي الفضل.

(٤) انظر ترجمته في الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٨٠١ - ٨٠٥)، والمغرب (ج ٢ ص ١٣٤)، ونفح الطيب (ج ٣ ص ٤١١، ٤٩٢) و(ج ٤ ص ١٣، ١٠٣) و(ج ٧ ص ٦)، وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٥٢ - ٢٥٥).

وفيه: أبو بكر المعروف بالقزاز، وأخبار وتراجم أندلسية ص ٧٦ وفيه أنه عبادة بن محمد بن عبادة القزاز. وعبادة، كما هو معلوم، هو ابن أبي عبدالله محمد المترجم له. وتاريخ ابن خلدون (م ١ ص ١١٣٨) وفيه: عبادة القزاز شاعر المعتصم ابن صمادح.

(٥) نفح الطيب (ج ٣ ص ٤١١).

وقوله أيضاً (المقارب):

نَفْسِي الْحُبُّ عَنْ مُقَلَّتِي الْكَرَى كَمَا قَدْ نَفَى عَنْ يَدَيَّ الْعَدَمُ
فَقَدْ قَرَّ حُبُّكَ فِي خَاطِرِي كَمَا قَرَّ فِي رَاحَتِكَ الْكَرَمُ^(١)

٤ - أبو حفص عمر بن الشهيد التجيبي^(٢):

شاعر ألمرية في زمانه، وفارس النظم والنثر في وقته، اقتصر على المعتصم ملك بلده، فكان وزيره وكاتبه، وكانت وفاته بعد الأربعين وأربعمئة / بعد ١٠٤٨ م. ومن مدائحه في المعتصم قوله في قصيدة (الكامل):

تَفْدِيكَ أَنْفُسُنَا الَّتِي أَلْبَسَتْهَا حُلًّا مِنَ النُّعْمَى، وَكُنَّ عَوَاطِلًا
لَا عَيْشَ إِلَّا حَيْثُ أَنْتَ وَإِنَّمَا تَمْضِي لِيَالِي الْعُمْرِ بَعْدَكَ بِاطِلًا^(٣)

وقوله فيه وقد أبدع حين جعل مُحَيَّاهُ، أكثر جمالاً من الروض وقد تحلَّى بِنُورِهِ (الطويل):

وَأَحْسَنُ مِنْ رَوْضٍ تَحَلَّى بِنُورِهِ مُحَيَّا أَبْنِ مَعْنِي فِي حُلِيِّ الْفَضَائِلِ^(٤)
٥ - أبو القاسم الأسعد بن إبراهيم بن بَلَيْطَةَ^(٥):

شاعر أندلسي بليغ، وأحد فحول شعراء الأندلس في زمانه. وقد ترجم له ابن بسام فقال فيه: «وتردَّدَ بأقطار الجزيرة شرقاً وغرباً، وكان بها في وقته أحدَ الغرائب، وأعجوبةً في عيون العجائب. وكان بعيدَ الهِمَمِ، بليغاً بالسيف والقلم، تردَّدَ على ملوك

(١) نفح الطيب (ج ٤ ص ١٠٣).

(٢) انظر ترجمته في الذخيرة (ق ٢ م ١ ص ٦٧٠ - ٦٩١)، وجذوة المقتبس ص ٣٠٢، وبغية الملمس ص ٤٠٧، والمغرب (ج ٢ ص ٢٠٩)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٧٥)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩٠)، ونفح الطيب (ج ٣ ص ٤١٣).

(٣) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٦٨٦)، والمغرب (ج ٢ ص ٢٠٩)، ونفح الطيب (ج ٣ ص ٤١٣).

(٤) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٦٨٧).

(٥) انظر ترجمته في الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٩٠ - ٨٠١)، وجذوة المقتبس ص ١٧٦، وبغية الملمس ص ٢٤٣، ومطمح الأنفس (ص ٣٤١ - ٣٤٤)، والمغرب (ج ٢ ص ١٧)، والمطرب ص ١٢٦، ونفح الطيب (ج ٤ ص ٥١ - ٥٢)، ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٢ - ٤٥) وفيه أن «بَلَيْطَةَ» هو والد أبي القاسم

الأسعد الشاعر و. Poemas Árábigoandaluces, p. 35.

الطوائف بالأندلس فارس جحفل، وشاعر محفل^(١). وعن وفاته قال الحميدي: «كان الأسعد حياً قبل الأربعين وأربعمئة»^(٢). وقال الضبي: «توفي في حدود أربعين وأربعمئة»^(٣). ونحن بدورنا نشك في صحة هذين القولين؛ لأن ابن بليطة خص المعتصم بقصائد مديح، والمعتصم، كما نعلم، تسلّم الإمارة بعد موت أبيه في سنة ثلاث وأربعين وأربعمئة / ١٠٥١ م. وإذا وافقنا الحميدي والضبي رأيهما يكون ابن بليطة قد أقدم على مدح المعتصم قبل تسلّمه إمارة المرية. ومن مدائح ابن بليطة في المعتصم قوله من قصيدة طويلة مقدار تسعين بيتاً (الطويل):

كَأَنَّ أَبَا يَحْيَى بْن مَعْنٍ أَجَادَهَا فَعَلَّمَهَا مِنْ كَفِّهِ الْوَكْفَ وَالْبَسْطَا
إِذَا سَارَ سَارَ الْمَجْدُ تَحْتَ لَوَائِهِ فَلَيْسَ يَحْطُّ الْمَجْدُ إِلَّا إِذَا حَطَّ^(٤)

٦ - أبو محمد بن مالك القرطبي^(٥):

أديب بارع في الشعر والنثر، وفرد من أفراد الشعراء والكتاب، وبحر من بحور المعارف والآداب. أقام بالمرية مدة تحت ضنك معيشة مع عدة مدائح رفعها لأمرها المعتصم، فلما كان يوم عيد أنشده شعراً قال فيه (الطويل):

أَمُعْتَصِماً بِاللَّهِ، يَا خَيْرَ مَوْتِلٍ وَأَكْرَمَ مَأْمُولٍ وَأَفْضَلَ وَاهِبٍ
مَضَى الْفِطْرُ وَالْأَضْحَى وَلَا نَيْلَ يُقْتَضَى فَلِمَ أَخْفَقْتُ وَحْدِي إِلَيْكَ مَطَالِبِي^(٦)؟

٧ - ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار الشلبي^(٧): هو شاعر مشهور وهجاء

(١) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٩١).

(٢) جذوة المقتبس ص ١٧٦.

(٣) بغية الملتبس ص ٢٤٣.

(٤) وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٣)، وورد البيت الأول في الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٨٠٠) وفيه: «أجازها» بدل «أجادها». وورد البيت الثاني في نفح الطيب (ج ٤ ص ١٠٠). وفيه «الجود» بدل «المجد».

(٥) انظر ترجمته في الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٣٩-٧٥٣)، وقلائد العقيان ص ١٦٩-١٧٠، ونفح الطيب (ج ١ ص ٦٧٤-٦٧٥)، وتاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ص ٣١١.

(٦) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٧٤٠).

(٧) انظر أحباره في بغية الملتبس ص ١١٣، وقلائد العقيان (ص ٨٣-٩٨)، والمغرب (ج ١ ص ٣٨٩-٣٩١)، ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٤٢٥)، والمطرب ص ١٦٩، والمعجب ص ٦٨-٨٠، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٥٩-١٦١)، ونفح الطيب (ح ١ ص ٦٥٢-٦٥٦)، والأعلام (ج ٦ =

كانت ملوك الطوائف تخاف منه لبذاءة لسانه . ولقد أشتمل عليه المعتمد ابن عباد، ملك إشبيلية، وأنهضه جليساً وسميراً، وقدمه وزيراً ومشيراً، ثم استنابه على مرسية لضبطها بعد أن كاتبه أهلها يستدعونه إليها إثر خروج خيران العامري منها وتغلب أبي عبدالرحمن بن طاهر، أحد أعيانها، عليها، فسوّلت لابن عمّار نفسه الانفراد بمرسية وتملكها، فتلطف بالمعتمد في الحيلة معه إلى أن وقع في يده، فسجنه في بيت في قصره وضربه بطبرزين شق به رأسه، وذلك في سنة سبع وسبعين وأربعمائة / ١٠٨٤ م. ولابن عمّار يعتذر من وداعه للمعتصم ابن صمّاح (الطويل):

أَمْعَصِماً بالله، والحربُ ترتمي بأبطالها والخيلُ بالخيْلِ تلتقي
دَعْنِي المَطَايَا للرحيلِ وإني لأفِرُّ مِنْ ذِكْرِ النُّوَى والتَّفَرُّقِ
وَإِنِّي إِذَا غَرَبْتُ عَنْكَ فَإِنَّمَا جَبِينُكَ شَمْسِي والمرِئَةُ مَشْرِقِي^(١)

٨ - أبو القاسم خلف بن فرج الإليري، المعروف بالسّميسر^(٢):

شاعر معروف بهجائه المقذع. كان من شعراء البيرة (غرناطة)، ثم غادرها؛ لأنه لم يُطَقِ العيش في ظلّ أمرائها بني زيري، ولجأ إلى بلاط المعتصم بالمرية. كان له تصرف مستحسن في مقطوعات الأبيات، وخاصة إذا هجا وقذح، وكان له مذهب استفرغ فيه مجهود شعره من القذح في أهل عصره، فكان هجوه أكثر من مدحه. توفي في حدود الثمانين وأربعمائة / ١٠٨٧ م.

حكى المقرئ أن السّميسر مدح بعض رؤساء المرية، فلم يُجزّه على مدحه، فصنع ذلك الرجل دعوةً للمعتصم ابن صمّاح واحتفل فيها، فصبر السّميسر إلى أن

= (ص ٣١٠ - ٣١١)، و Poemas Árábigoandaluces, p 35

وللدكتور صلاح خالص مؤلف عنه جمع فيه شعره وهو بعنوان «محمد بن عمار الأندلسي» (بعداد ١٩٥٧).

(١) قلائد العقيان ص ٤٧، والمطرب ص ١٧٣.

(٢) انظر ترجمته في الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٨٨٢)، والمغرب (ج ٢ ص ١٠٠)، والمطرب (ص ٩٣) وأخبار وتراجم أندلسية (ص ٢٨، ٣)، والخريدة (ج ٢ ص ١٦٧) طبعة الدار التونسية، وطبعة دار نهضة مصر ص ١٥، ونفح الطيب في صفحات متفرقة، والأعلام (ج ٢ ص ٣١١) و Poemas Árábigoandaluces, p.35 et Historia de la literatura árábigoespañola, p.23.

ركب المعتصم متوجّهاً إلى الدعوة، فوقف في الطريق، فلما حاذاه الملك رفع صوته
بِقِيْلِهِ (البسيط):

يا أيها الملك الميمون طائره ومن لذي مآتم في وجهه عرس؟
لا تُفَرِّسَنَّ طعاماً عند غيركم إنَّ الأسودَ على المأكول تَقْتَرِسُ

فقال المعتصم: صدق والله، وَرَجَعَ من الطريق، وفسد على الرجل ما كان
عمله^(١).

٩ - أبو جعفر أحمد بن الجزار البطرني^(٢):

ينسب إلى بَطْرْنَة من قرى بلنسية، وقد اقتصر على مدائح المعتصم ممّا أغاظ
صاحبه الكاتب أبا عامر أحمد بن غرسية، أحد أبناء نصارى البشكنس، فاستدعاه ابن
غرسية من خدمة المعتصم معاتباً له لتركه مدح مجاهد العامري ملك بلاده واقتصاره
على مدائح المعتصم. وابن الجزار هو الذي أثار ابن غرسية إلى كتابة رسالته في
الشعوبية، وعارضه ابن الجزار برسالة تناظرها. وقد فضله صاحب «المُشهب»،
وأطنب في تقديمه بقوله في مدح المعتصم (الطويل):

وما زِلْتُ أَجْنِي مِنْكَ، وَالذَّهْرُ مُمَجِلٌ ولا ثَمَرٌ يُجْنِي ولا زَرْعٌ يُخَصِّدُ
ثَمَارَ أَيَادٍ دَانِيَاتٍ قُطُوفُهَا لأَغْصَانِهَا ظِلٌّ عَلَيَّ مُمَدَّدُ
يُرَى جَارِيًا مَاءُ الْمَكَارِمِ تَحْتَهُ وأَطْيَارُ سُكْرِي فَوْقَهُنَّ تُغَرِّدُ^(٣)

وحكى المقرئ أن أبا جعفر قال هذه الأبيات في المعتصم بحضور عدد من
شعرائه، وعلى رأسهم عمر بن الشهيد، وأن المعتصم ارتاح لها لما سمعها وأجاز
صاحبها بجائزتين^(٤).

(١) نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٢٠ - ٣٢١).

(٢) انظر ترجمته في المغرب (ج ٢ ص ٣٥٥ - ٣٥٦، ٤٠٦ - ٤٠٧)، والذخيرة (ق ٣ م ٢ ص ٧٠٤)، ونفح
الطيب (ج ٣ ص ٤١٣)، وورد اسمه في المصدرين الأخيرين: ابن الخراز.

(٣) انظر المغرب (ج ٢ ص ٣٥٦) ونفح الطيب (ج ٣ ص ٤١٣).

(٤) نفح الطيب (ج ٣ ص ٤١٣).

١٠ - ذو الوزارتين الوشاح أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن أحمد بن الحسن بن سعد بن أحمد بن حسن بن الحاج اللورقي^(١) :

عَيْنُ مَدِينَةِ لُورَقَةٍ، وَمِنْ أَهْلِ بَيْتِ جَلَالَةٍ وَوِزَارَةٍ وَفَضْلٍ وَكَرَمٍ. كَانَ مُقَدِّمًا فِي
النَّشْرِ وَالنَّظْمِ. أَقَامَ زَمَنًا عَلَى الْمُدَامَةِ مُعْتَكِفًا، ثُمَّ نَسَكَ وَعَفَّ وَأَمْسَكَ عَنِ الشَّهَوَاتِ
وَكَفَّ. قَصَدَ بَنِي عَبَادَ بِإِسْبِيلِيَّةٍ، فَأَخْفَقَ لِاشْتِغَالِهِمْ عَنْهُ، فَارْتَحَلَ عَنْهُمْ مُنْشِدًا
(الطويل):

تَعَزَّرَ عَنِ الدُّنْيَا وَمَعْرُوفِ أَهْلِهَا إِذَا عُدِمَ الْمَعْرُوفُ فِي آلِ عَبَادِ
أَقَمْتُ بِهِمْ ضَيْفًا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ بَغِيرَ قَرَى ثُمَّ ارْتَحَلْتُ بِلَا زَادِ^(٢)

وقصد المعتصم ابن صمادح فأكرمه وجلّه، وقد أورد له المقرئ مخمسة رثي
فيها المعتصم، ومنها (الرجز):

تَتَجَبُّ الدُّنْيَا عَلَى ابْنِ مَعْنٍ كَأَنَّهَا تَكُلِّي أُصِيبَتْ بِأَبْنِ
أَكْرَمِ مَأْمُولٍ وَلَا أَسْتَثْنِي أَثْنِي بِنُغْمَاهُ وَلَا أُثْنِي
وَالرَّوَضُ لَا يُنْكِرُ مَعْرُوفَ الْمَطَرِ

عَهْدِي بِهِ وَالْمُلْكُ فِي ذِمَارِهِ وَالنُّصْرُ فِيمَا شَاءَ مِنْ أَنْصَارِهِ
يَطْلُعُ بَذْرُ السَّيِّئِ مِنْ أَرْزَارِهِ وَتَكْمُنُ الْعِفَّةُ فِي إِزَارِهِ
وَيَحْضُرُ السُّؤْدُودُ أَيَّانَ حَضَرِ^(٣)

١١ - الوزير الكاتب أبو الأصبغ عبد العزيز بن محمد بن أرقم التميمي الوادي
آشي^(٤) :

أقام بدانية مدة عند إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري، ثم صار إلى

(١) انظر ترجمته في بغية الملمس (ص ٢٥٧ - ٢٥٩) والمغرب (ج ٢ ص ٢٧٧ - ٢٨١)، والمطرب (ص ١٧٥ - ١٧٧)، وقلائد العميان (ص ١٣٩ - ١٤٣)، ونفع الطيب (ج ٢ ص ١٠٨) و(ج ٣ ص ٢٥٩) و(ج ٤ ص ٢٢٦)
(٢) اسطر قلائد العميان ص ١٤٣، والمغرب (ج ٢ ص ٢٨٠)، والمطرب ص ١٧٧، ونفع الطيب (ج ٤ ص ٢٢٦).

(٣) نفع الطيب (ج ٤ ص ١٠٥)

(٤) انظر ترجمته في الدخيرة (ق ٣ م ١ ص ٣٦٠)، وقلائد العميان ص ٨، ونفع الطيب (ج ٣ ص ٤٩٨)،
والتكملة لكتاب الصلة رقم ١٧٣٥، والأعلام (ج ٤ ص ٢٥)

المعتصم ابن صمادح، وكان من وجوه رجاله ونبهاء أصحابه. عُدَّ أحد كُتَّاب الجزيرة المَهْرة، وكانت وفاته نحو ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م. وعن وفاته للمعتصم حكى المقرئ أنَّ المعتصم أرسل وزيره أبا الأصْبَغ إلى المعتمد ابن عباد رسولاً، فأعجبت المعتمد محاولته، ووقع في قلبه، فأراد إفساده على المعتصم، وأخذ معه في أن يقيم عنده، فقال له أبو الأصْبَغ: ما رأيت من المعتصم ما أكره، ولو رأيت ما أكره لما كان من الوفاء تركي له في حين فَوْضَ إليَّ أمره، ووثق بي، وحمّلي أعباء دولته، فاستحسن ذلك ابن عباد وقال له: أَكْتُم عليَّ، فلما عاد أبو الأصْبَغ إلى المَرْيَة أَعْلَمَ المعتصم بما جرى له مع المعتمد^(١).

١٢ - الوزير أبو محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني، المعروف بابن اللبانة^(٢):

ينسب إلى أمّه لاشتغالها ببيع اللبن. وكان أديباً شاعراً، مديد الباع، فريد الانطباع، مرصوص المباني، ممتزج الألفاظ والمعاني. تردّد على ملوك الطوائف، وكان من كبراء دولة المعتصم ابن صمادح، إلّا أنّه خيّم أخيراً في ذرى المعتمد ابن عباد، وصار أحد شعراء دولته المرتضعين دِرَرها، المنتجعين دُرَرها. كانت وفاته بميوزقة في سنة سبع وخمسمائة / ١١١٣ م. ومن شعره قوله في المعتصم (الطويل):

أَلَا يَا أَبْنَ مَعْنٍ، مَا لِمَجْدِكَ غَايَةٌ وَلَا لِمَكَانٍ أَنْتَ فِيهِ مَرَامٌ
قَدْ اتَّفَقَتْ فِيكَ الْمَذَاهِبُ كُلُّهَا فَلَمْ يَبْقَ فِي شَرْعِ الْكِرَامِ نِحْصَامٌ^(٣)

(١) نفح الطيب (ج ٣ ص ٤٩٨ - ٤٩٩)، وانظر أيضاً قلائد العقيان ص ٨، ففيه شيء من ذلك.

(٢) انظر ترجمته في الذخيرة (ق ٣ م ٢ ص ٦٦٦ - ٧٠٢)، وبغية الملتبس (ص ١٠٩ - ١١٠)، وقلائد العقيان (ص ٢٤٤ - ٢٥١)، والمغرب (ج ٢ ص ٤٠٩ - ٤١٦)، والتكملة (ج ١ ص ٤١٠ - ٤١١)، والمعجب ص ٩٣، والمطرب ص ١٧٨ - ١٧٩)، والوافي بالوفيات (ج ٤ ص ٢٩٧)، وفوات الوفيات (ج ٤ ص ٢٧ - ٣١)، وحيش التوشيح (ص ٥٩ - ٧٢)، ونفح الطيب (ج ٤ ص ٢٢٢)، وصفحات أخرى متفرقة، والأعلام (ح ٦ ص ٣٢٢).

(٣) الذخيرة (ق ٣ م ٢ ص ٦٩٩).

١٣ - ذو الوزارتين الأديب أبو الوليد ابن الحضرمي البَطْلِيُّوسِي، المشهور بالنَّحْلِي: باقعة دهره، ونادرة عصره^(١)، ولقد أورد له المقرئ شعراً قاله في المعتصم مع حكاية طريفة^(٢).

١٤ - الفقيه الكاتب البليغ والأديب الشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله ابن خفاجة^(٣):

أوحد الناس في وصف الطبيعة، وعين جزيرة سُقْر Alcira من أعمال بلنسية. ولد سنة إحدى وخمسين وأربعمائة / ١٠٥٩ م، وتوفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة / ١١٣٨ م. وهو إذا تعرّض لاستمache أمراء المرابطين ومدحهم بغير قصيد فإنه لم يمدح من ملوك الطوائف إلا المعتصم، ورغم ذلك ﷺ يَخُصُّه إلا بقصيدة واحدة قالها في أحد مجالس المعتصم. جاء في الديوان أن المعتصم أحضر مجلسه في بعض ليالي أنسبه صورة حسنة قد رُكِبَتْ من رِيحَانٍ في هيئة جارية، ثم طُبِّتْ وَقُلِّدَتْ، وأمر مَنْ حَضَرَ من الشعراء بوصفها، فقال ابن خفاجة في ذلك (الطويل):

أَمَّا وَاعْتَزَاذِ الضَّيْفِ وَالسَّيْفِ وَالنَّدَى	بِخَيْرِ مَلِيكِ هَشٍّ فِي صَدْرِ مَجْلِسٍ
بَدَا بَيْنَ كَفِّ السَّمَّاحِ مُغِيْمَةٍ	تَصُوبُ، وَوَجْهِهِ لِلطَّلَاقَةِ مُشْمِسٍ
لَقَدْ زَفَّ بِنْتًا لِلْخَمِيلَةِ طِفْلَةً	يَهْزُ إِلَيْهَا الدُّسْتُ ^(١) أَعْطَافَ مُعْرِسٍ
تُؤَبُّ عَنِ الْحَسَنَاءِ وَالِدَارُ غُرْبَةً	فَمَا شِئْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا وَتَأَنَسَ ^(٢)

(١) الذخيرة (ق ٢ م ٢ ص ٨٠٩)، ونفع الطيب (ج ٣ ص ٢٣٤، ٣٣١).

(٢) ورد هذا الشعر وتلك الحكاية في «سيرة المعتصم ابن صمادح» ص ٥٨.

(٣) انظر ترجمته في قلائد العقيان (ص ٢٣٠ - ٢٤١)، ومطمح الأنفس ص ٣٤٨، والذخيرة (ق ٣ م ٢

ص ٥٤١ - ٦٥٢)، والمغرب (ج ٢ ص ٣٦٧ - ٣٧١)، والمطرب ص ١١١ - ١١٨، ووفيات الأعيان

(ج ١ ص ٥٦ - ٥٧)، وبغية الملتبس (ص ٢١٦ - ٢١٧)، ونفع الطيب (ج ١ ص ٦٧٧ - ٦٨١) و(ج ٣

ص ٤٨٨)، وصفحات أخرى متفرقة، والروض المعطار (ص ٩٧ - ٩٨، ٣٤٩)، والأعلام (ج ١

ص ٥٧)، ومقدمة ديوان ابن خفاجة بتحقيق الدكتور مصطفى غازي، وطبعة دار بيروت.

(٤) الدُّسْتُ هنا بمعنى المجلس، وهي في الأصل فارسية أخذتها العرب وتصرّفت بها، والجمع دُسُوت.

(٥) ديوان ابن خفاجة بتحقيق الدكتور مصطفى غازي ص ١٥٥، والأبيات وردت في ديوان ابن خفاجة طبعة

دار بيروت ص ١٤٨ باختلاف يسير عما هنا، ودون أن تشير هذه الطبعة إلى المناسبة التي قيلت فيها

الأبيات، ولا فيمن قيلت.

د - الشعراء يشيدون بالمرية: لهجت الشعراء بذكر المرية، فقال فيها ابن دراج^(١) القسطلّي، مفتخراً بخليجها الشديد الاتساع، وبقصرها الذي بناه خيران العامري، وعرف ببهو خيران، وذلك من قصيدة قالها في خيران في سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م (الطويل):

مَتَى تَلَحَّظُوا قَصْرَ الْمَرِيَّةِ تَظْفَرُوا بِبَحْرِ حَصَى يُمْنَاهُ دُرٌّ وَمَرْجَانٌ^(٢)
وَتَسْتَبْدِلُوا مِنْ مَوْجِ بَحْرِ شَجَاكُمْ بِبَحْرِ لَكُمْ مِنْهُ لُجَيْنٌ وَعِقْيَانٌ^(٣)

وأنشد فيها أحد الشعراء (الكامل):

أَرْضٌ وَطِئْتُ الدُّرَّ رَضْرَاضاً بِهَا وَالتُّرْبَ مِسْكَاً وَالرِّيَاضَ جَنَاناً^(٤)

وغايرهما السَّمِيسِرُ فوقف منها موقفاً معادياً، فقال (المجتث):

بُشْسَ دَارُ الْمَرِيَّةِ الْيَوْمَ دَاراً لَيْسَ فِيهَا لِسَاكِنٌ مَا يُحِبُّ
بَلْدَةً لَا تُمَارُ إِلَّا بِرِيحٍ رَبُّمَا قَدْ تَهَبُّ أَوْ لَا تَهَبُّ^(٥)

وقد علّق المقرّي على هذين البيتين بقوله: «يشير إلى أن مرافقها (أي مرافق

(١) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن درّاج الأندلسي القسطلّي، كاتب المنصور بن أبي عامر وشاعره، وأحد فحول الشعراء والعلماء المذكورين من البلغاء. كان بصقّع الأندلس كالمتنبي بصقّع الشام، وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين وأربعمائة / ١٠٣٠ م. له ديوان شعر نشره الدكتور محمود مكي (دمشق ١٩٦١). راجع جذوة المقتبس ص ١١٠ - ١١٤، وبغية الملتبس ص ١٥٨ - ١٦١، وبتيمة الدهر (ج ٢ ص ١٠٣ - ١١٦)، والذخيرة (ق ١ م ١ ص ٥٩ - ١٠٢)، والمغرب (ج ١ ص ٦٠ - ٦١)، وفضائل الأندلس وأهلها ص ٢٠، والمطرب ص ١٥٦، ووفيات الأعيان (ج ١ ص ١٣٥ - ١٣٩)، ومقدمة ديوان ابن درّاج، ففيها مزيد من المصادر عنه وعن شعره، وتاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ص ٢٣٧ - ٢٦٩.

(٢) يريد أن يقول: إن قصر حيران يتراءى لكم إذا كنتم في مركب وأقتربتم من حافة خليج المرية. وقصر خيران هذا غير القصر العظيم الذي بناه المعتصم ابن صهّاح وعرف بالصّادحيّة.

(٣) ديوان ابن درّاج القسطلّي ص ٩١. وورد البيتان أيضاً في الذخيرة (ق ١ م ١ ص ٩٤)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٤)، ومعجم البلدان (ح ٥ ص ١١٩) ولكن بعض الاختلاف عما هنا.

(٤) فضائل الأندلس وأهلها ص ٥٨، ونفح الطيب (ح ٣ ص ٢٢٠).

(٥) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٨٨٤) ونفح الطيب (ح ٣ ص ٣٩٠).

المرية) مجلوبة وأن الميرة تأتيها في البحر من بر العدو^(١). كما روي لنا ما دار بين رجل من أهل المرية افتخر ببلده، وبين امرأة من إشبيلية فضلت مدينتها على مدينة المرية، فقال: «وركب بعض أهل المرية في وادي إشبيلية، فمر على طاقة من طاقات شنتبوس، وهو يغني:

خَلَّيْنِ مِنْ وَادٍ وَمِنْ قَوَارِبٍ وَمِنْ نَزَاهَا فِي شَنْتَبُوسٍ
غَرَسُ الْحَبَقِ الَّذِي فِي دَارِي أَحَبُّ عِنْدِي مِنَ الْعُرُوسِ^(٢)

فأخرجت رأسها جارية وقالت له: مِنْ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتِ يَا مَنْ غَنَى؟ فقال: من المرية، فقالت: وما أعجبك في بلدك حتى تفضله على وادي إشبيلية وهو بوجه مالح وقفاً أحرش؟ وهذا من أحسن تعيب، وذلك إنها أتته بالنقيض من إشبيلية، فإن وجهها النهر العذب، وقفاها بجمال الرحمة أشجار التين والعنب، لا تقع العين إلا على خضرة في أيام الفرج، وأين إشبيلية من المرية^(٣)؟».

وقال السمسر أيضاً (المجتث):

قَالُوا الْمَرِيَّةُ فِيهَا نِظَافَةٌ، قُلْتُ إِنَّهُ
كَأَنَّهَا طَسْتُ تَبْرِ وَيُبْصِقُ الدَّمَ فِيهِ^(٤)

وَألف ابن خاتمة^(٥) في المرية تاريخاً حافلاً سماه «مزية المرية على غيرها من

(١) نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٩٠)، والعدوة هنا هي المغرب.

(٢) العروس: من متزهات إشبيلية.

(٣) نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٨٩ - ٣٩٠). والقول: وهذا من أحسن تعيب. «من المرية» تعليق من المقرئ على ما دار بين الرجل والمرأة، وهو هنا يفضل إشبيلية على المرية.

(٤) الذخيرة (ق ١ م ٢ ص ٨٨٥)، ونفح الطيب (ج ٣ ص ٣٩٠) ولقد ورد هذا البيتان في مسالك الأبصار (ج ١١، الورقة ٤١٤) باختلاف يسير عما هنا، ومنسويين إلى أبي عبدالله بن السراج المالقي كما سبق وورد بيتان للسمسر في باب الرراعة ص ٨٨ يشير فيهما إلى قلة إنتاج المرية الرراعي، وهما على الوزن نفسه.

(٥) هو الفقيه الشيخ الكاتب الطبيب المؤرخ، والأديب البليغ أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأبصاري الأندلسي تصدّر للإقراء في المرية بالحامع الأعظم. وكتابه المذكور أعلاه ما يزال مفقوداً، وله ديوان شعر حققه د. محمد رضوان الداية توفي في حدود سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م. راجع مقدمة ديوانه، ونشر فرائد الحمام ص ٣٣١، والكتيبة الكامنة ص ٢٣٩، وهدية =

البلاد الأندلسية»، وهو مجلد ضخم كان من جملة الكتب التي آتتها المقرري في مكتبته بالمغرب^(١). كما ألف أبو البركات ابن الحاج^(٢) كتاباً بعنوان «تاريخ المرية».

ثانياً - النشاط اللغوي والنحوي:

أ - العوامل التي ساعدت الحركة اللغوية والنحوية في المرية: لم يكن حظ المرية في علمي اللغة والنحو في عهد المعتصم ابن صمادح بأقل من حظ غيرها من حواضر الأندلس؛ إذ إن الحركة اللغوية والنحوية كانت آنذاك تواكب النشاط الأدبي، وقد ساعدها على ذلك عوامل^(٣) عدة، أهمها:

١ - الخصب اللغوي الذي أوجده أبو علي القالي (٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م) وتلاميذه، وهو من شأنه أن يؤثر إيجاباً على لغويي الفترة اللاحقة التي أطلق عليها عصر ملوك الطوائف.

٢ - تعدد المراكز الثقافية بحيث أصبحت كل حاضرة من حواضر الأندلس مركزاً من مراكز الأدب والعلم، وهذا من شأنه أن يعمل على تنشيط الحركة اللغوية في البلاد طولاً وعرضاً.

٣ - الاهتمام بإنشاء المكتبات، ولا سيما الخاصة منها، حيث نالت المرية

= العارفين (ج ١ ص ١١٣)، ونفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣) ومواضع أخرى متفرقة، والأعلام (ج ١ ص ١٧٦).

(١) انظر نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣)، وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٥٢).

(٢) هو القاضي والمؤرخ والمحدث الراوية محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن الحاج السلمي البلقيني، نسبة إلى بلقيس من أعمال المرية. كان أحد أعلام الأندلس في الأدب، وأحد شيوخ ابن الخطيب ولي القضاء بمالقة سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م، ثم ولي القضاء والخطابة بالمرية سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م، ثم نقل إلى قضاء غرناطة. ثم ولي قضاء المرية ثانية. توفي دون أن يتم كتابه المذكور أعلاه، وذلك في سنة ٧٧١ هـ / ١٧٦٩ م، وقيل: سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧١ م. وقيل: ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م. انظر الدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٥٥ - ١٥٧)، والكتيبة الكامنة ص ١٢٧، ونفح الطيب (ج ١ ص ٥١٦) و(ج ٥ ص ٣٥٣، ٤٧١ - ٤٨٧) وفيه: توفي سنة ٧٧١ هـ، وهدية العارفين (ج ٢ ص ١٦٥)، والأعلام (ج ٧ ص ٣٩).

(٣) هذه العوامل تحدث عنها بإسهاب الأستاذ ألبير مطلق في كتابه «الحركة اللغوية في الأندلس» ص ٢٥٨ - ٢٧٢، فأنظره.

نصيبها؛ يحكى أنه اجتمع بمكتبة أحمد بن عباس، وزير زهير العامري الذي حَكَمَ
المرية من سنة تسع عشرة وأربعمائة / ١٠٢٨ م إلى سنة تسع وعشرين وأربعمائة /
١٠٣٧ م، ما يربو على أربعمائة ألف مجلد، عدا الأوراق والكراسات التي ملأت
قصره. وفي هذا الجو الثقافي العام آهتَمَ الأندلسيون باللغة وعلومها اهتماماً كبيراً،
وأصبح للغة والكتب اللغوية مقامها الذي لا ينكر.

٤ - التسامح النسبي الذي ظهر في هذا العصر، حيث كان ملوك الطوائف
متسامحين مع الذين اشتغلوا بالعلوم القديمة، ولا سيما الفلسفة والمنطق، وكان أبرز
العاملين في حقل اللغة، المشتغلون بهذين العلمين اللذين منحاهما الاتجاه اللغوي دقة
وشمولاً.

٥ - قدوم بعض اللغويين إلى الأندلس من أقطار أخرى ولا سيما القيروان
وصقلية، فأغنوا اللغة وعلومها وأولوها اهتماماً ملحوظاً.

٦ - رحلة الأندلسيين إلى المشرق وإفادتهم من اللغويين المشهورين ثم عودتهم
إلى الأندلس محمّلين بالكتب اللغوية وشروحها.

٧ - حلقات التدريس المنتشرة في نواحي الأندلس، حيث كثر عدد المُدرّسين
والأساتذة اللغويين، وكان على رأسهم إبراهيم بن محمد، المعروف بابن الإقليلي،
المتوفى سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م، وأبو الحجاج يوسف بن سليمان، الأعلام الشتمري
المتوفى سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م، وأبو مروان عبد الملك بن سراج، المتوفى سنة
٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م.

٨ - حركة التأليف اللغوي في هذا العصر الذي لا يقلُّ عن العصر السابق غنىً
في المؤلفات، ولقد اتجه أهل اللغة اتجاهين؛ اتجاه إلى شرح كتب اللغة، واتجاه
إلى التأليف المعجمي.

ب - لغويون ونحويون المرية في عهد المعتصم: لزم المعتصم جماعة من
النحويين المعروفين أمثال أبي عبيد البكري، وابن الطراوة، وابن أبي الدّوس وابن
محمد الأشكركي، وابن أخت غانم، وغيرهم.

١ - أبو عبيد البكري^(١):

هو عبدالله بن أبي مُصعب عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري، نسبةً إلى بكر بن وائل، ينحدر من عائلة مشهورة؛ فكان والده عبد العزيز أميراً على شَلطيش Saltes، إلا أن المعتضد ابن عباد، ملك إشبيلية، تغلب عليها، فخرج عبد العزيز منها وانتقل إلى قرطبة بأهله وولده. وقيل: كان أبو عبيد أميراً بساحل كورة ولبة أو أونبة Huelva، وتغلب عليها المعتضد. وقيل: إن المعتضد استولى على ولبة وابتاع منهم شلطيش. عاش أبو عبيد في قرطبة في ظل بني جهور، وبوفاة والده عبد العزيز سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م، وقيل: ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م، ينتقل أبو عبيد إلى المرية، فيصطفيه المعتصم لصحبته، ويؤاثر مجالسته والأنس به، ويرفع مرتبته، وهذا ما حمل بعض المؤرخين على نعته بالوزير. لم تطل إقامته في المرية فأثر الارتحال إلى إشبيلية في كنف المعتضد ابن عباد، وظل فيها إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وأربعمائة / ١٠٩٥ م، وقيل: سبع وثمانين وأربعمائة / ١٠٩٤ م، وقد نيف على الثمانين. وقيل: رجع إلى قرطبة بعد غزوة المرابطين فتوفي بها. وقيل: كلفه المعتصم القيام بمهمة دبلوماسية إلى المعتضد ابن عباد بإشبيلية، فاستقر هناك في كنفه. وكان فقيهاً جغرافياً شاعراً فذاً، إماماً لغوياً، وإخبارياً متفنناً، أمتاز على أهل عصره بثقافته اللغوية العالية حتى عُدد من مفخرة الأندلس، وآخر علمائها في عصره، وأنصعهم في المنثور والمنظوم. كان مولعاً بالخمر منهمكاً فيها، وله فيها أشعار تتحدث عن ميله إلى لذات العيش. وله مصنفات جليلة في اللغة، منها «اللالي في شرح أمالي القالي» (مطبوع)، و«التنبيه على أغلاط أبي علي القالي في أماليه».

(١) انظر ترجمته في الذخيرة (ق ٢ م ١ ص ٢٣٢ - ٢٣٨)، والمغرب (ج ١ ص ٣٤٧ - ٣٤٨)، والحلة السيرة (ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨٧)، وقلائد العقيان ص ١٨٩ - ١٩١، وبغية الوعاة ص ٢٨٥، وعيون الأنبياء في طبقات الأطباء ص ٥٠٠، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٠)، وبغية الملمس ص ٣٤٦ وفيه يلقبه الضبي بذي الوزارتين ويجعل وفاته سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م، ونفح الطيب (ج ١ ص ٢٩٢)، والأعلام (ج ٤ ص ٩٨)، والحركة اللغوية في الأندلس (ص ٢٦٢، ٣٢٦ - ٣٣٧)، وتاريخ آداب العرب (ج ٣ ص ٢٩٧)، ومجلة عالم الفكر (المجلد الثالث عشر، العدد الثاني، ص ٣٠٦)، ومقدمة معجم ما استعجم، ففيها دراسة قيمة عنه، و Historia de la Literatura arábigoespanola, 91.

(مطبوع)، و«فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لابن سلام» (مطبوع)، و«شرح أمثال أبي عبيد»، و«اشتقاق الأسماء».

٢ - ابن الطَّراوَة^(١):

هو أبو الحسين سليمان بن محمد بن عبدالله السبائي أو السبئي؛ من أهل مالقة، وقد برز في علوم اللسان نحواً ولغةً وأدباً، فكان له آراء في النحو انفرد بها وخالف فيها جمهور النحاة، وكان يقرض الشعر وينشئ الرسائل، فطارت شهرته في الآفاق، وعُدَّ إمام العربية في عصره. تجول كثيراً في بلاد الأندلس معلماً بها ما كان عنده، والتحق ببلاط المعتصم ابن صمادح، وكان له أمداح في خدمته، وعُدَّ نحويّ المريّة بحيث لم يكن في صناعة النحو مثله، ولا أحفظ منه لكتاب سيويه. من مصنّفاته كتاب «الترشيح» في النحو، و«مقالة في الاسم والمسمى». توفي في رمضان، وقيل: في شوال سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة / ١١٣٣ م، وقد قارب التسعين.

٣ - ابن أبي الدَّوس^(٢):

هو الفقيه أبو بكر محمد بن أغلب بن أبي الدَّوس، من أهل مرسية. كان عالماً بالعربية والآداب، كثير التنقل، عظيم التجوّل، لا يستقرّ في بلد. أقام مدّة في خدمة المعتصم ابن صمادح بالمريّة، ثم استقرّ آخر عمره بأغمات، وبها مات، وقيل: توفي بمراكش سنة إحدى عشرة وخمسة / ١١١٧ م. ومن شعره في المعتصم قوله (الطويل):

إِلَيْكَ أبا يَحْيَى، مَدَدْتُ يَدَ الْمُنَى وَقَدْماً غَدَتُ عَنْ جُودِ غَيْرِكَ تُقْبَضُ

(١) انظر ترجمته في الذيل والتكملة (السفر الرابع ص ٧٩ - ٨١)، وبعية الملتبس ص ٣٠٤، وبعية الوعاة ص ٢٦٣، والمقتضب من كتاب تحفة القادم ص ٦٤، وأخبار وتراجم أندلسية ص ١٧، والمغرب (ج ٢ ص ٢٠٨) وفيه يتفرد ابن سعيد بجعل كنية ابن الطراوة أبا الحسن، ونفع الطيب (ج ٢ ص ١٤٢) و(ج ٣ ص ١٩٢، ٣٨٤)، و(ج ٤ ص ٣٣٢)، والأعلام (ج ٣ ص ١٣٢)، وتاريخ آداب العرب (ج ٣ ص ٣٣٧).

(٢) انظر ترجمته في مطمح الأنفس (ص ٣٠٠ - ٣٠١)، والتكملة (ح ١ ص ٤١٢ - ٤١٣)، والمغرب (ج ٢ ص ٧٢)، وبعية الوعاة ص ٤١، ونفع الطيب (ج ٤ ص ٣٠ - ٣١).

وكانت كُنُورُ الْعَيْنِ يَلْمَعُ بِالدُّجَى فَلَمَّا دَعَاهُ الصُّبْحُ لَبَّاهُ يَنْهَضُ^(١)

٤ - الْأَشْكُرِيّ:

هو أبو الطاهر يوسف بن محمد. الْأَشْكُرِيّ، نسبةً إلى قرية أشكره^(٢) وقد ترجم له ابن سعيد، نقلاً عن المُشْهَب، فقال: كان إماماً في علم اللغة، وكان له جاهٌ ومكان عند بني هُودٍ بسرْقِسطة وغيرهم من ملوك الطوائف، وأكثر أمداحه في المعتصم ابن صمادح^(٣). وذكره ابن بسام بأسم الأديب أبي الطاهر محمد بن يوسف الأشكوري منسوباً إلى قرية له بعمل سرْقِسطة، وأنشد له طائفة من أشعاره^(٤). ومن شعره هذا قوله مخاطباً رفيع الدولة ابن المعتصم (الطويل):

إِلَيْكَ، رَفِيعَ الْمُلْكِ تُهْدِي الْمَحَامِدُ وَبِأَسْمِكَ تَبْهَى فِي الزَّمَانِ الْمَشَاهِدُ
سَلَكْتَ سَبِيلًا فِي الْمَكَارِمِ أَوَّلًا لَكَ الْفَضْلُ هَادٍ تَقْتَفِيهِ وَرَاشِدُ^(٥)

٥ - ابن أخت غانم^(٦):

هو العالم اللغوي أبو عبدالله محمد بن معمر، نُسِبَ إلى خاله الإمام العالم غانم المخزومي، لشهرة ذِكْرِهِ وَعِلْوُ قَدْرِهِ. كان من أعيان مالقة ومن علمائها المشهورين؛ تفنن في علوم شتى إلا أن الغالب عليه هو علم اللغة الذي فيه أكثرُ تواليفه. رحل من مالقة إلى المريّة فحلَّ عند ملكها المعتصم ابن صمادح بالمكانة العليّة. ذكره ابن اليّسع في مُعْرَبِهِ قَائِلًا: إِنَّهُ حَدَّثَهُ بِدَارِهِ فِي مَالِقَةِ وَهُوَ ابْنُ مِائَةِ سَنَةٍ. وأخذ عنه عام أربعة وعشرين وخمسمائة / ١١٢٩ م، له تأليف جليّة، منها شرح كتاب النبات لأبي حنيفة الدِّيْنَوْرِيّ، ويقع في ستين مجلداً.

(١) مطمح الأنفس، (ص ٣٠١ - ٣٠٢)، ونفع الطيب (ج ٤ ص ٣٠).

(٢) في المغرب (ج ٢ ص ٤٣٣): قرية أشكرته، بالتاء بدل الكاف.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٤٧.

(٤) الذخيرة (ق ٣ م ٢ ص ٩٠٩ - ٩١٢).

(٥) المصدر نفسه ص ٩١٠. كذلك ورد البيتان في المغرب (ج ٢ ص ٤٤٨) ولكن باختلاف في بعض الكلمات عما هنا.

(٦) انظر ترجمته في المغرب (ج ١ ص ٤٣٣)، وبغية الوعاة ص ١٠٦ ونفع الطيب (ج ٣ ص ٣٩٧). والأعلام. (ج ٧ ص ١٠٦)، والحركة اللغوية في الأندلس ص ٢٦٢.

ثالثاً: النشاط العلمي:

١ - علوم الدين:

بلغ علماء المريّة الغاية في علوم الدّين، ونبغ منهم كثيرون في علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات. وقد أشار الأمير عبدالله إلى ذلك بقوله: «ولم تنزل الأندلس قديماً وحديثاً عامرةً بالعلماء والفقهاء وأهل الدّين، وإليهم كانت الأمور مصروفة»^(١).

ففي علم الفقه ظهر أبو عبدالله محمد بن خلف بن سعيد بن وهب، المعروف بآبن المرابط. وهو من المريّة، وكان قاضيها ومفتيها وعالمها. ألف كتاباً كبيراً في شرح البخاري، وتوفي بالمريّة سنة خمس وثمانين وأربعمائة^(٢) / ١٠٩٢ م. وأبو عمر أحمد بن محمد بن أسود الغساني، وهو من أهل المريّة. كان معتياً بالعلم، وكانت وفاته في سنة تسع وستين وأربعمائة^(٣) / ١٠٧٦ م. وأبو عبدالله محمد بن يَبْقَى اللخمي، وهو من أهل المريّة، وكان عالماً واقفاً على علم الأثر، وكانت وفاته في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة / ١٠٨٨ م^(٤). وأبو الفضل جعفر آبن شرف القيرواني، وكان فقيهاً مشهوراً^(٥).

وفي علم الحديث برز القاضي الشهير أبو علي حسين بن محمد بن فيّره بن حيّون الصدفي، المعروف بآبن سُكْرَه. وهو من أهل سرقسطة، وسمع بالمريّة من أبي عبدالله بن سعدون القروي، وأبي عبدالله آبن المرابط، وغيرهما. ثم رحل إلى المشرق أول المحرم من سنة إحدى وثمانين وأربعمائة / ١٠٨٨ م، وعاد إلى الأندلس في صفر من سنة تسعين وأربعمائة / ١٠٩٦ م، وقصد مرسية فأستوطنها وقعد يحدث الناس بجامعها. كان عالماً بالحديث وطرقه، عارفاً بعلمه وأسماء رجاله ونقلته، حافظاً لمصنّفات الحديث قائماً عليها، ذاكراً لِمُتُونِها وأسانيدها ورواتها.

(١) مذكرات الأمير عبدالله ص ١٧.

(٢) انظر معجم البلدان (ج ٥ ص ١١٩ - ١٢٠، مادة المريّة) ونفح الطيب (ج ٢ ص ٩٠) والأعلام (ج ٦ ص ١١٥).

(٣) الصلة (ج ١ ص ٦٧).

(٤) الصلة (ج ٢ ص ٥٢٥).

(٥) نغية الملتبس ص ٢٥٦. وقد تقدم الحديث عنه بإسهاب ص ١١١ من هذا البحث.

استقضي بمرسية ثم استعفى فأعفي، وفر إلى المريّة فأقام بها سنة خمس وبعض سنة ست وخمسمائة / ١١١١ - ١١١٢ م. وبطول مقامه بالمريّة أخذ الناس عنه بها، فلمّا كانت وقعة كُتِنْدَة من ثغور سرقسطة بين المرابطين والإفرنج كان مِمَّنْ حَضَرَهَا فَقُيِّدَ فيها سنة أربع عشرة وخمسمائة عن ستين سنة^(١) / ١١٢٠ م. ونبغ أيضاً أبو عبدالله محمد بن حسين بن أحمد بن محمد الأنصاري، وهو من المريّة. وله في هذا العلم تأليف حسن جمع فيه بين صحيحي البخاري ومسلم، وأخذه الناس عنه. ولد سنة ست وخمسين وأربعمائة / ١٠٦٣ م، ومات في محرّم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة^(٢) / ١١٨٦ م. وأبو عبدالله محمد بن أحمد بن موسى بن وضاح القيسي المرسّي؛ قدم المشرق حاجاً وطالبا للعلم، وعاد إلى الأندلس فسكن المريّة مدّة، وبها مات سنة أربعين وخمسمائة للهجرة / ١١٤٥ م، وقيل: في التي قبلها. وكان فقيهاً فاضلاً، ذا فرائد جمّة^(٣). وأبو عبدالله بن سعدون القروي^(٤).

وفي علمي التفسير والقراءات برز أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالله الجذامي، وهو من أهل المريّة، ويعرف بالبرجي، نسبة إلى برجة من عمل المريّة. أقرأ القرآن وأسمع الحديث، وشوّر في الأحكام. وهو الذي أوجّب في كتب أبي حامد الغزالي، حين أحرقها أبو عبدالله بن حمدين بأمر تاشفين المرابطي، تأديب مُحْرِقِهَا وتضمينه قيمتها؛ لأنها مال مسلم. توفي بالمريّة سنة ست وخمسمائة / ١١١٢ م، وهو ابن خمسين أو نحوها^(٥).

٢ - علم الجغرافيا: نبغ في هذا العلم أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس بن دلّهات الزُّغبي العذري، وهو من المريّة، ويعرف بأبن الدّلائي، نسبة إلى دَلَايَة Dalias من أعمال المريّة. ولد سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة / ١٠٠٢ م، ورحل مع والديه إلى المشرق سنة سبع وأربعمائة / ١٠١٦ م، فوصل إلى مكة في رمضان سنة ثمانٍ وأربعمائة / ١٠١٧ م، فأقام فيها ثمانين سنوات، وسمع الكثير من شيوخها،

(١) انظر نفح الطيب (ج ٢ ص ٩٠-٩٢)، ومعجم البلدان (ج ٤ ص ٣١٠، مادة قُتِنْدَة)

(٢) انظر معجم البلدان (ج ٥ ص ١٢٠، مادة المريّة).

(٣) انظر أخبار وتراجم أندلسية ص ١١٥-١١٦، ونفح الطيب (ج ٢ ص ٢١٩).

(٤) نفح الطيب (ج ٢ ص ٩٠).

(٥) انظر المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدي (ص ٣٨٢-٣٨٤)، ومعجم البلدان (ج ١ ص ٣٧٤، مادة برجة).

وعاد إلى الأندلس. كان شيخاً ثقة، واسع الرواية. ومن تلاميذه الحميدي صاحب كتاب «جذوة المقتبس»، وأبو عبيد البكري. ومن مصنفاته في الجغرافيا كتاب «نظام المرجان في المسالك والممالك»، وقد طبع منه جزء بعنوان «نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك»، بتحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، وفي هذا الكتاب يُقدِّم العُدري على تفسير أسماء العديد من المدن الأندلسية باللغة اللاتينية. توفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة^(١) / ١٠٨٥ م). وبرز أيضاً أبو عبيد^(٢) البكري، وهو أكبر جغرافيين الأندلس، وأعظمهم على الإطلاق. وقد سار على سنن أستاذه العُدري في تفسير أسماء المدن الأندلسية باللغة اللاتينية، وكان مفخرة أهل الأندلس على حد قول المقرئ: «وأما علم الجغرافيا فيكفي في ذلك كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري الأونبي^(٣)، وكتاب معجم ما استعجم من البقاع والأماكن»^(٤). وقد طبع من الكتاب الأول جزء باسم «المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب». وطبع الكتاب الثاني بعنوان «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع».

٣ - علوم الطب:

لمع في هذه العلوم نجم أبي عبيد البكري، وقد ذكره ابن أبي أصيبعة بقوله: «هو أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، من مرسية، من أعيان أهل الأندلس وأكابرهم. فاضل في معرفة الأدوية المفردة، وقواها، ومنافعها، وأسمائها، ونعوتها، وما يتعلق بها، وله من الكتب كتاب أعيان النبات والشجريات الأندلسية»^(٥).

٤ - علم العروض:

سطع نجم ابن الحداد في علم العروض، فصنّف فيه كتاباً لا نظير لها نبلاً وإفادة منها: «المُسْتَنْبَط في علم الأعاريض المهمة عند العرب مما تقتضيه الدوائر

(١) انظر جذوة المقتبس ص ١٣٦، وبغية الملتبس ص ١٩٥، ومعجم البلدان (ج ٢ ص ٤٦٠، مادة دلالة)

(ج ٥ ص ١١٩، مادة المرية)، والأعلام (ج ١ ص ١٨٥).

(٢) تقدم الحديث عنه ص ١٢٤ من هذا البحث.

(٣) نسبة إلى أونية Huelva.

(٤) نفح الطيب (ج ٣ ص ١٨٤ - ١٨٥).

(٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٥٠٠.

الأربع من الدوائر الخمس التي تنفكّ منها أشعار العرب». و«قيد الأوابد وصيّد الشوارد في إيراد الشواذ والردّ على الشذاذ». «والامتعاض للخليل» وهو كتاب مزج فيه الأنحاء الموسيقية بصناعة العروض، يردّ فيه على سعيد ابن فتحون السرقسطي المنبوز بالحمار في ما تعقّبه على الخليل وأنفرد به من أحكام العروض^(١). ولأبي الفضل ابن شرف كتاب في العروض كشف فيه عن دقائق لم يسبق إليها العروضيون^(٢).

٥ - علم الفلسفة:

نَجَمَ في هذا العلم ابنُ الحداد السابق الذكر، وكان فيه متقدماً^(٣). كذلك ظهر فيه أبو الفضل ابن شرف، فعرف بالحكيم الفيلسوف^(٤).

٦ - علوم العدد والهندسة والكلام:

لم يُقسم أهلُ المريّة ولغيرهم من المدن الأخرى في هذه العلوم نفاذ، وقلّ تصرّفهم فيها^(٥).

(١) انظر الذيل والتكملة (السفر السادس ص ١٠). وقد تقدّم الحديث عن ابن الحداد ص ١٠٩ من هذا البحث.

(٢) انظر المطرب ص ٦٧. وقد تقدّم الحديث عن ابن شرف ص ١١١ من هذا البحث.

(٣) الذيل والتكملة (السفر السادس ص ١٠).

(٤) نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٩٥).

(٥) المصدر نفسه ص ١٧٦.

منشآت المريّة المعمارية في عهد المعتصم ابن صمادح

كان بوّنا الحديث عن المنشآت الحربيّة والمدنيّة والدينيّة التي أقيمت في مملكة المريّة ومدنها وقراها، كالكتّيب^(١)، والزوايا^(٢)، والأربطة^(٣)، ومدارس^(٤) التعليم، والمستشفيات، ومنازل الناس، والمساجد ومأوى الأيتام والمُشرّدين وأبناء السبيل، وغيرها من معاهد العلم والأبنية التي كانت تُقدّم فيها خدمات للسكان، ولكنّ المصادر التي تحدّثت عن المريّة ومليكتها المعتصم ابن صمادح لم تُشر إلى ذلك من بعيد أو قريب، وجُلّ ما ذكرته إنّما ينحصر في الحديث عن قصبة المريّة، وقصرها

(١) الكتّيب: جمع كُتاب وهو مدرسة للدراسة الابتدائية، وقد يستعمل لتعليم البنات التطريز والتشبيك، والخياطة، والطبخ، وترتيب البيت، وشيئاً من أدب السلوك، ويكون ملحقاً بمسجد، أو جزءاً منه، أو مستقلاً عنه، والمستقل يكون في الغالب فوق ساباط (سقيفة بين دارين تحتها طريق) الشارع. دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية ص ٦٤، ٧١، ٧٢.

(٢) الزوايا: جمع زاوية وهي مدرسة للدراسة المتوسطة، أي هي أعلى درجة من تعليم الكُتاب وأقل درجة من تعليم المدارس. وقد تكون مدرسة بين نهاية الابتدائي ونهاية الثانوي. وهي عبارة عن مجموعة من مباني يتوسطها ضريح الشيخ المؤسس. المرجع نفسه ص ٦٩، ٨٠.

(٣) الأربطة: جمع رباط ويتألف من صحن، ومن عشرات الغرف المنفردة حوله، ومن الطبقات التي تعلو جوانبه، وينتهي بجامع كبير وصومعة مستديرة للأذان، وبمعنى آخر، هو عبارة عن مدرسة يُعلّم فيها تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب اللغة وشعر المواعظ، ومكان يقيم فيه المرابطون احتساباً للمرضى، ودار استنساخ للمصاحف ومجامع الحديث وكتب الفقه، ومستشفى للمرضى، ودار للمسافرين، وثكنة لحراسة الثغور وحمايتها. ويكون فيه مكتبة جدارية بها النسخ الأمّهات التي يُرجع إلى نصوصها الصحيحة وتُقابل عليها النصوص المتسحة. المرجع نفسه ص ٥٨ - ٥٩.

(٤) المدرسة أرفع درجة من تعليم الزاوية، وتختصّ بالتعليم الثانوي؛ لأنّ الجامع يختصّ بالتعليم العالي وتتنوع فيه حلقات الدروس. المرجع نفسه ص ٧٩.

المعروف بالصُّمَادِجِيَّة، ومسجدها الجامع، ومقابرها وأضرحتها، وقِيَّسَارِيَّتُهَا، وَحُمَّتِيهَا العجيبة، وأسواقها وفنادقها ومتاجرها وحمَّاماتها.

١ - قصبتها:

أجرى المعتصم تعديلات وزيادات في القلعة القديمة المسماة القصبة، ممَّا زاد في تحصينها ومنعتها. وقد أشار العذري إلى ذلك بقوله: «وله في بناء قصبة ألمريَّة آثار عظيمة جميلة في منعتها وسموُّ سُورِهَا»^(١). كما حدَّد موقع هذه القصبة قائلاً: «وقد أشرفت على المدينة قصبتها، وهي في جبل»^(٢) منفرد عليه سُورٌ مُتَّقَنٌ، لا يُصْعَدُ إلى قصبتها إلَّا بِكُلْفَةٍ، ولا يُرْقَى إليها إلَّا بِمَشَقَّةٍ، مُحْكَمَةٌ في رَتَبِهَا، غايةً في أمتناعها»^(٣). ويضيف ابن فضل الله العمري والجميري معلومات قيِّمة إلى ما جاء به العذري، فيقول الأول: «والقلعة تحوزُ القديَّة» (أي مدينة ألمريَّة القديمة) من جهة الشمال وتسمَّى القصبة بالسنتهم. وهما قصبتان في غاية الحسن والمنعة»^(٤). ويقول الثاني: «وقصبتها بِجَوْفِيَّهَا»^(٥)، وهو حصنٌ منيع لا يُرام، مديد من المشرق إلى المغرب، ولها باب قِبْلِيٌّ يُفْضِي إلى المدينة مسافةً، ما بين أول المصعد في الجبل وبينه مائتا ذراع وثمانون ذراعاً»^(٦)، ولها باب شرقيٌّ خارجٌ عن أسوار المدينة، والربض متصل بجبالها، وهي أسهل^(٧) مرتقى من الباب القِبْلِيَّ، وعرض ممشَى السُّور الدائر بالقصبة خمسة أشبار»^(٨).

(١) نصوص عن الأندلس ص ٨٤.

(٢) هو جبل لِيَهْم أو لاهم الذي يُعَدُّ آخر حلقة من سلسلة جبال جادور Gador على مقربة من مصب نهر أندرش. انظر الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٣١٧، والآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ص ١٩٢.

(٣) نصوص عن الأندلس ص ٤٦. والرُّتَبُ: ما أشرف من الأرض، والصخور المتقاربة بعضها أرفع من بعض.

(٤) وصف إريقية والمغرب والأندلس ص ٤٦.

(٥) الجَوْفُ بمفهوم أهل الأندلس يعني الشمال، وتقابله القِبْلَةُ. ابن الخطيب: اللوحة البدرية (ص ٢٢، حاشية ٣).

(٦) أي إنَّ باب القصبة الجنوبي يصل القصبة بالمدينة القديمة عن طريق ممرٍ ينحدر من جبل القصبة بآتجاه المدينة بطول ٢٨٠ ذراعاً، أي ما بين ١٣٠ و ١٤٠ متراً.

انظر تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٢٢.

(٧) يفتح باب القصبة الشرقي في بروز بسور القصبة الجنوبي، والدخول إلى القصبة من هذا الباب أسهل بكثير من الدخول إليها من الباب الجنوبي. المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٨) الروض المعطار ص ٥٣٨.

وذكر أبو الفداء هذه القلعة ووصفها بالمنعة والشموخ^(١)، ووصفها ابن الخطيب بقوله: «وقصبتها سلوة الحزين، ومودع الخزين، وفلك المنتزين»^(٢). وأشار إليها أيضاً: «مدينة ألمرية معقل الإسلام، ذات القصبة الشهيرة، والجباية الغزيرة، والبساتين النضيرة»^(٣). وذكرها كذلك حين تحدث عن وصية المعتصم ابن صمادح لولده وولي عهده معز الدولة؛ إذ تشير الوصية إلى أن يتمسك معز الدولة بهذه القصبة ما دام المرابطون لم يتغلبوا بعد على المعتمد ابن عباد بإشبيلية^(٤). وكان ابن الأبار قد أشار إلى هذه القصبة عند ترجمته لأبي العباس أحمد بن عبدالرحمن بن عاصم الثقفي، المعروف بالقصبي نسبة إلى قصبة ألمرية^(٥).

ويمدنا الدكتور سالم بمعلومات قيمة عن هذه القصبة، فيقول: ترتفع القصبة نحو خمسة وستين متراً فوق مستوى سطح البحر، وتُشرف على مدينة ألمرية والبحر من الجهة الجنوبية، وعلى ربض المصلى وخندق باب موسى من الجهة الشمالية الشرقية، وتمتد طويلاً من الشرق إلى الغرب مسافة تصل إلى خمسمائة وثلاثين متراً^(٦)، وكان يتخلل هذه المسافة، يقول المستشرق الإسباني مورينو، بروزات وأبراج كثيرة في غير نظام^(٧).

وكان مسطح القصبة يتوزع على ثلاثة مرتفعات غير متساوية يفصل بين كل منها سور؛ فالمرتفع الأعلى نحو الغرب، ويتصل رأسه المتطرف بسور المدينة الغربي. والمرتفع الثاني يكاد يكون منبسطة، وكان مربع الشكل، وكانت تشغله قصور القصبة وملحقاتها. والمرتفع الثالث طويل جداً، ومنه كانوا يدخلون من المدينة إلى القصبة، وكانت تشغله فيما يبدو الحدائق، وكانت مساحته تتساوى ومجموع مساحة أرض القلعة والمرتفع الثاني، وكان يقوم في الطرف الشمالي الشرقي منه ناعورة بلغ عمقها

(١) تقويم البلدان ص ١٧٧.

(٢) مشاهدات لسان الدين ص ٨٣ والخزين هنا بمعنى الثائر، يقال خزن اللحم وخزن فهو خزين إذا تغير وأنتن. لسان العرب (خزن).

(٣) اللوحة البدرية ص ١٩.

(٤) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩١).

(٥) التكملة (ج ١ ص ٥٠).

(٦) تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٥، ١٣٧.

(٧) الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٣١٧.

نحو سبعين قامة، ولعلها الناعورة التي أنشأها المعتصم ابن صمادح لسحب المياه من المدينة إلى حدائق القصر^(١).

وكانت هذه القسبة خليطاً من المِلاط^(٢)، وكانت أبراجها الأسطوانية والمربّعة مبنية بكتل الحجارة الضخمة، وكان بعضها يتجاوز السُّورَ في ارتفاعه^(٣).

وهذه القسبة بناها عبدالرحمن الناصر، إلا أنها نسبت فيما بعدُ إلى خيران العامري عندما ولّاه عليها الحاجب المنصور العامري^(٤). وأغلب الظن أنها نسبت لى خيران لإقدامه آنذاك على تحصينها بالأسوار المنيعة التي ما تزال قائمة حتى يومنا هذا^(٥). وقد أشار ابن الخطيب والمقري إلى ذلك، فقال الأول: «وعول (أي خيران) على المريّة فأحسن ضبّطها وحصّن قصبته»^(٦). وقال الثاني: «ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران، بناها عبدالرحمن الناصر، وعظمت في دولة المنصور بن أبي عامر، وولّى عليها خيران فنسبت القلعة إليه»^(٧). وقول ابن سعيد، نقلاً عن المُسهب: «وبنى فيها خيران العامري قلعة العظيمة المنسوبة إليه»^(٨)، فيه نظر؛ لأن خيران عندما دخل المريّة كانت قصبته قائمة البنيان، بدليل أنه أنتزعها من أفلح الذي كان قد تحصّن فيها^(٩). كذلك لا يمكننا أن نطمئن إلى قول الأستاذ محمد عبدالله عنان: وترجع هذه القسبة إلى بداية عهد الطوائف، وينسب إنشاؤها إلى خيران الفتى العامري، ولهذا كانت تسمى قلعة خيران^(١٠)؛ لأن في هذا القول غموضاً وعدم دقة في الرأي وأبتعاداً عن تعيين بانيها الحقيقي.

وكانت القسبة تضم ثلاثة قصور ومسجداً وسجناً، فأحد هذه القصور بناه خيران

(١) المرجع نفسه والصفحة نفسها. وانظر أيضاً تاريخ مدينة المريّة الإسلامية ص ١٣٧-١٣٨.

(٢) المِلاط مزيج من الجير والرمل وقطع الحجارة الصغيرة، وقد ورد اسمه في بعض كتب التاريخ الأندلسي باسم طابية. الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٤٩٠.

(٣) المرجع نفسه ص ٣١٧. وانظر أيضاً تاريخ مدينة المريّة الإسلامية ص ١٣٧-١٣٨.

(٤) انظر تاريخ مدينة المريّة الإسلامية ص ٣٢، ٦٠.

(٥) المرجع نفسه ص ١٢١-١٢٢.

(٦) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١١).

(٧) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٢).

(٨) المغرب (ج ٢ ص ١٩٣).

(٩) راجع نصوص عن الأندلس ص ٨٢-٨٣، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١١).

(١٠) الآثار الأندلسية ص ١٩٢.

العامري، ولذلك كان يعرف بيهو خيران^(١). والثاني بناه المعتصم ابن صمادح إلى جانب بهو خيران، وكان يُعرف بقصر الصُمَادِحِيَّة، وستحدث عنه لاحقاً. والثالث هو قصر أبي الحسن المنصور عبدالعزيز العامري أمير بلنسية، وقد بناه أثناء سيطرته على المرية (٤٢٩ - ٤٣٣ هـ / ١٠٣٧ - ١٠٤١ م). وحدّد الأستاذ عنان موقعه بقوله: وراء برج القصبة الرئيسي مساحة كبيرة بها بقايا أسس لبناء أو بقايا قصر كبير، وتضمّ غرفاً وأبهاءً عديدة هي أطلال قصر عبدالعزيز المنصور أمير بلنسية. ولهذا يسمّى الشارع الذي تشرف عليه القصبة بشارع المنصور Calle de Almanzor، وقد غرست الأشجار في فناء القصبة الكبير، وهو الفناء الأول السفلي^(٢).

أمّا مسجد القصبة، فأغلب الظنّ أنّه أقيم في عهد خيران العامري، ثم طرأ عليه بعض الترميمات في فترة الموحّدين بعد استرجاع المرية من القشتاليين في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة / ١١٥٧ م. وكان يتألف من خمسة بلاطات، سعة الأوسط منها ٧٠ و ٢٠ م، وآثاره اليوم بالقرب من أطلال سجن القصبة^(٣).

أمّا سجن القصبة، فإنّه أقيم في داخل القصبة لمناعتها وعزلتها عن المدينة من جهة، ولصعوبة الفرار منه في حال قيام ثورة بداخل المدينة من جهة ثانية^(٤). وقد أشار ابن خلدون إلى هذا السجن وأسماء المطبق^(٥). كما أشار إليه ابن الخطيب عند ترجمته لإسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن خميس بن نصر بن قيس الأنصاري بقوله: «تخلّف عن الولد أربعة، أكبرهم محمد، ولي الأمر من بعده، وفرج شقيقه التالي له بالسّن... الهالك أخيراً في سجن قصبة المرية عام أحد وخمسين وسبعمائة»^(٦) / ١٣٥٠ م. وحدّد الدكتور سالم موقعه فقال: في الطرف الشرقي من مرتفع القصبة الأوسط أطلال السجن الإسلامي المعروف بالمطبق^(٧).

والقصبة اليوم، يقول الأستاذ عنان، عبارة عن طللٍ عظيم فسيح الأرجاء، بقي

(١) انظر فلتاند العقيان ص ٤٧، ومشاهدات لسان الدين ص ٤٥، وتاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٢٢.

(٢) الآثار الأندلسية ص ١٩٢.

(٣) راجع تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٢٢، ١٣٩.

(٤) المرجع نفسه ص ١٢٣.

(٥) تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٧٧).

(٦) الإحاطة بتحقيق عنان (ج ١ ص ٣٨٠).

(٧) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٣٩. وانظر أيضاً الفن الإسلامي ص ٣١٩.

منها أجزاء كبيرة من الأسوار والبرج الرئيسي ، وعدد آخر من الأبراج الصغيرة ، وعدة أفنية متدرّجة في الارتفاع . وأسوارها في حالة جيّدة من الحفظ ، وتبدو مشارفها جميعاً متّصلة منسّقة ، وليس في الأسوار والأبراج أية زخرفة أو أي نقوش عربيّة ، والظاهر أنّها معيت بمضي الزمن ومن جرّاء أعمال التجديد والإصلاح التي قامت بها السلطات الإسبانيّة^(١) . وذكر المستشرق الإسباني مورينو أنّ باب القصبه الحالي بعقوده المدبّبة المتجاوزة القامة من الاجر^(٢) . وأضاف : «وجدت بالذكر ذلك القاع الناقص للحوض الذي رأيته في قصبه المرية سنة ١٨٩٥ ، وقد بقيت فيه أقدام بشرية تلبس أخفافاً»^(٣) . وذهب الدكتور سالم إلى أنّ أسوار القصبه كانت من الطابية^(٤) ، وأنّ أبراجها أصيبت على أثر زلزال سنة ١٥٢٢ م^(٥) .

٢ - سورها :

كي تدافع المرية عن نفسها من أي هجوم طارئ كان لا بُدّ من تحويط ربضيّها الشرقي والغربي بأسوار ، لذا أقدم خيران العامري على تسوير الربض الشرقي المعروف بالمُصلّى^(٦) ، استناداً إلى قول العذري : «وبنى خيران الفتى السور الهابط من جبل ليهم إلى البحر ، وجعل له أربعة أبواب . . ومدينة المرية اليوم متقنة البناء ، مصريّة الشكل ، والمدينة القديمة منها مسورة بسور عجيب ؛ وقد سور ربضها الشرقي ، وأتصل سور الربض بالمدينة ، وكان الذي سور الربض الفتى خيران . وكذلك الربض الغربي مُسرّر أيضاً ، قد أتصل سورة بالمدينة»^(٧) ، وقول الحميري :

(١) الآثار الأندلسية ص ١٩٢ ، ١٩٤ .

(٢) الفن الإسلامي ص ٣١٧ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٢٤ .

(٤) الطابية هي ما بُني بالتراب مختلطاً بالكلس ، والطواب هو صانع الطابية . تاريخ ابن خلدون (م ١ ص ٧٢٦ -

٧٢٧) ، وتاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٣٨ حاشية ٣ .

(٥) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٦) سُمّي كذلك بسبب وجود المُصلّى القديم خارج نطاق المدينة القديمة التي أسّسها عبد الرحمن الناصر ، وعندما سورها خيران أصبح المُصلّى داخلها . والمُصلّى في المدن الإسلامية فضاء فسيح ، يقع عادة خارج أسوار المدينة ، وكانت تقام فيه صلوات العيدين والاستسقاء أيام الجفاف . تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١١١ ، ١١٧ .

(٧) بصوص عن الأندلس ص ٨٣ ، ٨٦ .

«على ربضها المعروف بالمُصلَّى سُورُ تراب بناءً خيران العامري، وكان قد أوصل إلى هذا الربض ماء العين التي هناك، وأجرأه في سقاية»^(١). وفي ترجمته لخيران العامري أشار ابن الخطيب إلى الماء الذي أوصله خيران إلى المرية، فقال: «وله بالمرية الآثار الخالدة، والحسنات الشهيرة، فهو الذي أوصل إليها الماء، وبني الحمة العجيبة»^(٢) وخدّد المقرئ موقع رَبَضِي المرية بقوله: «وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة، وعلى الآخر ربضها (أي الربض الشرقي)، والسور محيط بالمدينة والربض، وغربيها رَبَضٌ لها آخر يسمّى ربض الحوض، ذو فنادق وحمامات وفنادق وصناعات»^(٣). ولم يتطرق المراكشي وياقوت إلى الحديث عن هذين الربضين، فأكتفيا بذكر السور؛ يقول المراكشي: «تضرب أمواج البحر في سورها»^(٤). ويقول ياقوت: «يضرب ماء البحر سورها»^(٥). ويمدّنا ابن فضل الله العمري بمعلومات قيّمة عن هذين الربضين، ومفادها أن الربض الغربي أصبح بلا عمارة، ليس فيه سوى سُمار وحُرّاس يقومون بحراسة أسواره، وأن الربض الشرقي كان كثير الاتساع، بحيث كان أكبر الاثنين؛ مدينة المرية القديمة، والربض الغربي. يقول: «والمرية ثلاث مدن؛ الأولى من جهة الغرب تعرف بالحوض الداخلي، لها سُورٌ محفوظ من العدو بالسّمار والحُرّاس، ولا عمارة بها. ويلها إلى الشرق المدينة القديمة»^(٦)، وتليها المدينة الثالثة المعروفة بمُصلَّى المرية، وهي أكبر الثلاث»^(٧) وأيّده في ذلك معاصره ابن خاتمة الأنصاري فذكر أن ربض المُصلَّى كان يزيد في اتساعه عن المدينة وربض الحوض معاً، وأن الربض الغربي أصبح مجرد سهل خرب لا تقوم فيه أبنية سوى أبراج أسوار الربض نفسها»^(٨). وذكر توريس بلباس من أنه لم

(١) الروض المعطار ص ٥٣٨. وماء العين هذه تجاور مدينة المرية، وقد تكون عين النطية التي ذكرها ابن

سعيد في كتابه المغرب (ج ٢ ص ١٩٤). ويُرجّح الأستاذ هنري بيريس أن الآبار التي عرفت بها المرية

والتي ما تزال أطلالها حتى اليوم ترجع إلى أيام خيران العامري. La poésie andalouse, p. 142.

(٢) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٢). وانظر أيضاً La poésie andalouse, p. 142.

(٣) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣).

(٤) المعجب ص ٢٤٧.

(٥) معجم البلدان (ج ٥ ص ١١٩).

(٦) هي المدينة التي أسسها وسورها عبد الرحمن الناصر، وعرفت فيما بعد بالمدينة الداخلية.

(٧) وصف إفريقية والمغرب والأندلس ص ٤٦. وأغلب الظن أن الوصف ينطبق على المرية في عصر العمري، أي في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي.

(٨) انظر Almeria Islámica, P. 437-438 وتاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١١٣، ١١٥.

يَتَّبَقُ من الربض الغربي سوى أبراج سُورِيهِ الشمالي والغربي ؛ ففي السور الشمالي بُرْجَانِ كبيرانِ مربعاً القاعدة، مهشَّمان، لكل منهما غرفة عليا، ويبعد الواحد عن الآخر مسافة قدرها عشرون متراً. وفي السور الغربي بعض أبراج مربعة الشكل، أصغر حجماً من أبراج السور الشمالي. وكل هذه الأبراج من الطابية، ويسكنها اليوم جماعة من فقراء ألمرية^(١).

وقد رجَّح الدكتور سالم أنَّ خيران العامري هو الذي سَوَّرَ الربض الغربي، بدليل أنَّ المدينة اتَّسعت من الجانبين الشرقي والغربي في آن واحد، وأنَّه كان لا بُدَّ أن يحاط الربض بالأسوار في وقت واحد^(٢). وذهب توريس بلباس إلى أنَّ ربض المُصَلَّى ظلَّ مهجوراً منذ غزا النصارى مدينة ألمرية في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة / ١١٤٧ م، وأنَّه ظلَّ كذلك إلى وقتنا هذا، حيث لم يتبقَّ من آثار شوارعه ما يذكرنا بما كانت عليه هذه الشوارع، كما أنَّه لم يتبقَّ من أسواره سوى ستارتين؛ واحدة تمتدُّ من السور الشمالي للقصبة إلى مرتفع العرقوب أو جبل لاهم المسمَّى بمرتفع سان كريستوبال، وأخرى تشمل السور القائم على جبل لاهم كلَّه والامتدُّ إلى باب بجانة، وأنَّ طول الستارتين حوالي أربعمئة وأربعين متراً، وأنَّ السور الشمالي القائم بأعلى جبل لاهم كان يتقدَّمه سُورٌ أمامي^(٣).

٣ - أبوابها:

أصبحت ألمرية في عهد المعتصم ابن صمادح عبارة عن مدينة وسطى أو داخلية، لها قصبتها المنيعه، وَرَبَضَاهَا الشرقي والغربي المحيطان بالأسوار^(٤). وصار لها، على حدِّ قول الجُميري، أبواب عدَّة^(٥). وذكر العُدري أربعة من هذه الأبواب: «وبنى خيرانُ الفتى السُّورَ الهابطَ من جبل لَيْهَم إلى البحر، وجعل له أربعة أبواب، باب في الجبل المُسمَّى (أي باب لَيْهَم)، وباب يُخْرِجُ منه إلى بجانة، وباب يسمَّى

(١) Almeria Islamica, P. 430. وانظر أيضاً تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٤٢.

(٢) تاريخ ألمرية الإسلامية ص ١١٣.

(٣) Almeria Islamica, p. 434-439 وانظر أيضاً تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١١٣ - ١١٥، ١١٩، ١٢١، ١٤٢ - ١٤٤.

(٤) انظر تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١١٣.

(٥) الروض المعطار ص ٥٣٨. وانظر أيضاً الحلل السندسية (ج ١ ص ١١٩).

بياب المربي، وبياب قرب ضفة البحر يعرف ببياب السودان، وهو الآن يعرف ببياب الأسد^(١).

ولقد أغفل المؤرخون ذكر هذه الأبواب باستثناء باب بجانة؛ فقد ذكره ابن الأبار عند ترجمته لأبي الطاهر محمد بن يوسف بن عبدالله بن إبراهيم التميمي السرقسطي، بقوله: «توفي بالمرية عشي يوم السبت الثاني من ذي الحجة سنة أربعين وخمسائة (١١٤٥ م)، ودفن عصر يوم الأحد بمقبرة باب بجانة»^(٢). كما ذكره في ترجمة أبي العباس أحمد بن محمد بن عبدالله بن أحمد الأنصاري، البلنسي الأصل، والمربي المسكن، فقال: «توفي بالمرية في شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وخمسائة / ١١٨٥ م». وقبره بمقبرة باب بجانة من ظاهرها»^(٣). كذلك ذكر ابن بشكوال عند ترجمته، لأبي الحسن علي بن إبراهيم بن علي بن أحمد بن عمر الأنصاري، المعروف بابن اللوان المربي، بقوله: ولد أبو الحسن سنة أربع وسبعين وأربعمائة / ١٠٨١ م، وتوفي في رجب سنة ثلاث وثلاثين وخمسائة / ١١٣٨ م، ودفن خارج باب بجانة»^(٤). وأعاد ابن بشكوال ذكره في ترجمة القاضي أبي عبدالله محمد بن خلف بن سعيد بن وهب، المعروف بابن المرابط، فقال: هو من أهل المرية، وقبره على قارعة الطريق عند باب بجانة»^(٥). وفي ترجمة أحمد بن عبدالنور المالقي ذكره ابن الخطيب بأسم باب بجاية: «توفي بالمرية يوم الثلاثاء السابع والعشرين لربيع الآخر من عام اثنين وسبعمائة، ودفن بخارج باب بجانة»^(٦). وأغلب الظن أن الناسخ هو الذي وقع في خطأ النقل، وكان على محقق الإحاطة، الأستاذ محمد عبدالله عنان، ألا يشارك في تحريف الاسم، أو على الأقل كان عليه أن يشير إلى ذلك في تعليقاته؛ لأن بجاية^(٧) ليست مدينة أندلسية، بل هي مدينة جزائرية من

(١) نصوص عن الأندلس ص ٨٣.

(٢) المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصوفي ص ١٤٧.

(٣) التكملة لكتاب الصلة (ج ١ ص ٨٣ - ٨٤).

(٤) الصلة (ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦).

(٥) المصدر نفسه ص ٥٢٧ - ٥٢٨.

(٦) الإحاطة تحقيق عنان (ج ١ ص ٢٠٢).

(٧) بجاية بكسر الياء وتخفيف الحيم، مدينة بالجزائر من عمل قسنطينة، تقع على ساحل البحر المتوسط بين إفريقية والمغرب، وهي آخر أعمال إفريقية. كانت قديماً ميناء فقط، ثم بنيت المدينة، فأسسها الفينيقيون ودعوها صلده، ثم أصبحت رومانية بأسم صلداي، ثم خربت على أيدي الواندال Los =

عمل قسنطينة. وكان باب بجانة، حسبما يذكر الدكتور عبد العزيز سالم، يفتح في السور الشرقي لمدينة المرية القديمة، وكان يؤدي إلى مرسية وغرناطة، وكان الضغط على اجتيازه شديداً لكثرة الوافدين على المدينة والخارجين منها عن طريقه^(١). ويرى الدكتور أبو الفضل أن هذا الباب سمي كذلك لانفتاحه على الطريق المؤدية إلى بجانة، وأن باب ليهم يقع في أول السور الهابط من جبل ليهم، وأن باب المربي سمي كذلك لإشرافه على فحوص المرية الذي اشتهر آنذاك بتربية الأغنام والمواشي، وأن باب السودان يلي باب المربي جنوباً^(٢)، وذكر توريس بلباس أن القشتاليين، عند دخولهم المرية في سنة خمس وتسعين وثمانمائة / ١٤٨٩ م، أطلقوا على باب بجانة اسم باب برشانة^(٣)، بدلاً من بجانة؛ لتشابه الاسم في النطق، وأن هذا الباب جدد في سنة ١٨٢٧ م، ثم تهدم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر^(٤). وانفرد ابن خلكان بذكر باب الخوخة الواقع بقرب التربة التي دفن فيها المعتصم ابن صمادح^(٥).

أما الرض الغربي، فإن المصادر العربية لم تمدنا بشيء عن أبوابه، ولا أعمال

vandalos والبربر، وبقيت على هذه الحال إلى أن أعاد بناءها الناصر بن علناس بن حماد في حدود سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م، وسماها الناصرية، وبنى بها قصر اللؤلؤة. ثم سُميت بجاية على اسم القبيلة البربرية التي خيمت حولها. وفي عهد المنصور ابن الناصر علناس أصبحت عاصمة لدولة بني حماد بدلاً من قلعة حماد، فكثرت عمرانها، وهاجر إليها عدد كبير من أهل الأندلس. وكانت باب الشرق، ودار الأساطيل، مرفأ السفن ومحط الركاب. راجع معجم البلدان (ج ١ ص ٣٣٩)، ووفيات الأعيان (ج ٦ ص ٢١٧)، وأعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٧٦، ٩٦)، ونفاضة الجراب ص ٢١٩، وكناسة الدكان ص ٩٠ - ٩١.

(١) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٣٤.

(٢) تاريخ مدينة المرية الأندلسية ص ١٨٠ - ١٨١.

(٣) برشانة Purchena حصن من حصون الأندلس، يقع على مجتمع نهرين، وهو من أمنع الحصون مكاناً، وأوثقها بنياناً، وأكثرها عمارة. الروض المعطار ص ٨٨. وجعله ابن سعيد من حصون بسطة، على نهر المنصورة المشهور بالحسن. المغرب (ج ٢ ص ٨١). وفي معجم البلدان (ج ١ ص ٣٨٤): برشانة من قرى إشبيلية.

(٤) Almeria islámica, p. 434, 449.

(٥) وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٤).

التنقيب الأثري أسفرت عن آثار تشير إلى وجود أبواب في هذا الربض^(١). ويعتقد الدكتور سالم أن السور القبلي لربض الحوض كان يفتح فيه باب قبلي يؤدي إلى مقبرة الحوض والرابطة، ويعرف بأحد هذين الاسمين أو بأسم آخر^(٢).

أما مدينة ألمرية القديمة، فقد أُحصي لها ثلاثة أبواب؛ هي باب الزياتين، وباب المرسى، وباب الخروج. فيما يتعلق بباب الزياتين، فقد ذكره ابن الأبار في ترجمة أبي عبدالله محمد بن خلد بن محمد التميمي المريني، بقوله: سمع أبو عبدالله من أبي القاسم عيسى بن جهور بقرطبة مقامات الحريري، وسمعها من أبي الحجاج القضاعي بالمرية، وسمع منها في حانوته بباب الزياتين، وحدث بها عنها^(٣)، ويرجح الدكتور سالم أن الباب كان يفتح في السور الجنوبي من المدينة الداخلية، وأنه كان قريباً من البحر ليتيسر نقل الزيوت بسهولة إلى الميناء لتصديرها^(٤). ويعتقد الدكتور أبو الفضل أن الباب نُسب إلى حيّ الصُّناع المختصين بعصر الزيت^(٥).

أما باب المرسى، فإن المؤرخين القدامى أغفلوا ذكره، وأنفرد بذكره الدكتور سالم فقال: كان هذا الباب يفتح في منتصف السور القبلي للمدينة الداخلية، وكان لا يبعد كثيراً عن المسجد الجامع بالمرية، ولا عن دار صناعتها^(٦). وباب الخروج، لم يُحظَ بدوره بأهتمام المؤرخين، وأنفرد بذكره بلباس وسالم، فقال الأول: سمّاه كويو صاحب خريطة ١٨٥٥ م بباب النجدة^(٧) El Socorro وقال الثاني: كان يفتح في السور الغربي من المدينة الداخلية قرب البحر، وكان يستخدم غالباً في أوقات الحصار^(٨).

وذكر ابن الخطيب باباً واحداً من أبواب مدينة ألمرية، هو باب موسى، (مكتفياً بالقول: باب موسى هو الباب الذي خرج منه معز الدولة ابن المعتصم ابن صمادح إلى دار الصنعة حيث أبحر إلى بجّانة حين وافاه اليقين بتغلب المرابطين على المعتمد ابن عباد بإشبيلية^(٩)). وكان هذا الباب، حسبما يذكر سالم، يفتح في سور

(١) انظر تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية ص ١٨٣.

(٢) تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٢٨.

(٣) التكملة (ج ٢ ص ٤٩٥).

(٤) تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٢٦.

(٥) تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية ص ١٨٢.

(٦) تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٢٧.

(٧) Almeria Islamica, p. 450

(٨) تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٢٨.

(٩) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩٢).

الخندق^(١) الواقع بين جبل القصبة وجبل لَيْهَم^(٢). ويذكر توريس بلباس أن آثار هذا الباب ما تزال ماثلة للعيان حتى يومنا هذا، حيث سُدَّ بالطابية وأكتفه بُرجانٍ مربعاً الشكل^(٣).

كذلك ذكر المقرئ باباً آخر، هو باب العُقَاب، وأكتفى بالقول: «ومن أبوابها باب العُقَاب، عليه صورة عُقَاب من حجرٍ قديم عجيب المنظر»^(٤). ويرجح الدكتور سالم أن هذا الباب كان يفتح في منتصف السُّور الشرقي لربض المصلّى، وأنه كان يؤدي إلى فحص المرية^(٥). ويعتقد الدكتور أبو الفضل أن هذا الباب استحدث في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وأنه كان باباً ثانوياً^(٦).

ويضيف الدكتور سالم إلى أبواب المرية باباً آخر هو باب البحر، فيقول: «هذا الباب يظهر على خريطة المرية المؤرخة في سنة ١٦٠٣، وما زال يعرف حتى اليوم باسم La puerta del mar أو باب البحر، وقد سُمِّي بهذا الاسم لقربه من البحر، وأعتقد أن تسميته كذلك منذ القرن السابع عشر هي استمرار لاسمه القديم»^(٧). وذكر توريس بلباس ثلاثة أبواب ثانوية، مستنداً في ذلك على خريطة سنة ١٦٠٣ م، فقال: تنفتح هذه الأبواب في السُّور الفاصل بين مدينة المرية القديمة وربض المصلّى، وهي على الترتيب من الشمال إلى الجنوب: باب كارميا Carmia وباب الصورة Imagen، وباب العجلات^(٨) Las ruedas de las carretas.

وبدوره يضيف الدكتور أبو الفضل باباً آخر هو باب دار صناعة المرية، ويقول: «ويقع في الطرف الجنوبي الشرقي من السُّور المطل على البحر، وهو آخر أبواب هذا السور، وسُمِّي كذلك نسبة إلى دار الصناعة، ولعله كان يفتح بالقرب منها»^(٩). وقد

(١) لذا سُمِّي هذا الخندق بخندق باب موسى. انظر ما فاتنا ص ١١ حاشية ٣.

(٢) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٢٦.

(٣) Almeria Islamica, p. 449 وانظر أيضاً تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٢٦.

(٤) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٢ - ١٦٣).

(٥) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٢٥.

(٦) تاريخ مدينة المرية الأندلسية ص ١٨٢.

(٧) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٢٧.

(٨) Almeria Islamica, p. 449.

(٩) تاريخ مدينة المرية الأندلسية ص ١٨١.

أعتمد الدكتور أبو الفضل في معلوماته هذه على العُدري، وهو خطأ؛ لأن العُدري لم يُشر إلى هذا الباب ولم يُسمَّه. وقد يكون أبو الفضل أراد باب المرسى القريب من دار الصناعة، فسمَّاه دار صناعة المرية.

ولقد لعبت هذه الأبواب جميعاً دوراً هاماً في إحكام غلق حلقة الدفاع عن المدينة بحيث كانت المنافذ الوحيدة للدخول إليها أو الخروج منها^(١)، وذكر الدكتور سالم أن أبواب مدينة المرية آخفت من الوجود، ولم يبق منها سوى بُوب أو خوخة (بُوب) مفتوحة في القطاع الشمالي بجبل ليهم^(٢).

٤ - قصرها المعروف بالصمادحية :

شيد المعتصم القصر الكبير المعروف بالصمادحية^(٣). وكون العُدري الجغرافي الوحيد الذي عاصر المعتصم بالمرية، فقد زودنا بمشاهداته بتفاصيل هامة عن هذا القصر، فقال في وصفه إياه: «وله في بناء قصبة المرية آثار عظيمة جميلة في منعتها وسمو سُورها، وإتقان بناء قصورها، فمنها القصر الكبير المتطلع من جوفيه إلى جبل ليهم، وفي قبليه بستان عظيم جداً فيه من جميع الثمار وغريبها ما لا يُقدِّر واصف على أن يصفه مع طول مساحته قرب عرض القصبة، ويليهِ في قبليهِ مجلس عظيم أيضاً على أبواب مُفتحة ودَفِ^(٤) على حكاية دَفِ المشرق بل أغرب في النقش والإتقان، مفروش ذلك المجلس بالرخام الأبيض سطحة وأزره. ويليهِ في القبلة منه دار كبيرة قد أُتقنت بأنواع التذهيب وغرائب، تحار فيه الأبصار، ويليهِ في قبليهِ مجلس عظيم مُقرنس^(٥) بالرفوف المزوقة المنقوشة المنزول فيها الذهب الطيب، مفروش بالرخام الأبيض، وقد أزر بالرخام المنقوش. المنزل فيه بغرائب الإنزال. وفي ذلك

(١) المرجع نفسه ص ١٧٩.

(٢) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٢٤.

(٣) عن الصمادحية انظر نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٦) و Los palacios del taifa almeriense al-Mutasim, en Cuadernos de la Alhambra, Vol. III. p. 15-20.

(٤) الدَف: جمع دَفَة وهي المِصراع الخارجي للباب؛ يقال: دَفَّ إذا خَشَبَ أي صَفَحَ بالواح الخشب. تكملة المعاجم العربية (ج ٤ ص ٣٦٧ - ٣٦٨).

(٥) المُقرنسات أو المقرنصات Almecarabes زخرفة تشبه عِش النحل، بين جوافاتها الصغيرة دلايات منشورية الشكل. الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٤٨٨.

النَّقْشُ تاريخ بناءه^(١) والذي أَمَرَ به . ويليه صَحْنٌ قَبِيلِيَّةٌ أبوابٌ عليها شراجب^(٢) يطلع منها إنَّ أَحَبَّ إلى جميع مدينة ألمرية وإلى بَحْرِها وإقبال السفن إلى مَرَسَاها وخروجها منه إلى العُدُوَّة^(٣) وسائر البلاد . . . وبني بخارج مدينة ألمرية بستاناً وقصوراً متقنة البنيان غريبة الصناعة، وجلب إليها من جميع الثمار الغريبة وغيرها؛ ففيها من كلِّ شيء غريب مثل الموز الكثير وقصب السكر وأنواع سائر الثمرات ممَّا لا يُقدَّرُ على صفته، وفي وسطه بحيرة عظيمة عليها مجالس مفتحة مفروشة بالرخام الأبيض . ويسمَّى ذلك البستان بالصُّمَادِجِيَّة، وهو قريب من المدينة جداً، وقد اتَّصَلَ^(٤) به بساتين كثيرة تقرب من صفتها، فيها متزهات لا يعلم مثلها في جميع المتزهات^(٥) .

ويفهم من هذا النصَّ أنَّ قصر المعتصم كان يضمُّ قصوراً ومجالسَ داخلية على غرار القصر^(٦) الخلافي بقرطبة . ولقد أشار ابن خاقان فقط إلى اثنين من هذه المجالس ، واصفاً جدرانها بأنها كانت مَكْسُوَّةً بِلُوحَاتٍ من المرمر . يقول : «فكثيراً ما كان (أي المعتصم) يعمر أندية اللُّهُو ويداولها من مجلس الحافة إلى البَّهْو، كلاهما سَرِيٌّ المنظر، قُمْرِيٌّ المَرْمَر^(٧) . وينسب ابن الخطيب مجلس البَّهْو إلى خيران العامري فيقول : بألمرية بَّهْو خيران وقصر ابن صمادح^(٨) . وكأنِّي به يُقَرُّ بأنَّ هذا البَّهْو لا صلة له بقصر المعتصم . وهذان المجلسان ؛ الحافة والبَّهْو، قد يكونان هما اللذين ذكرهما العذري في نصِّه السابق الذكر .

(١) هكذا وردت هذه الكلمة في النص ، والصواب «بنائه» ، أي تاريخ بناء القصر . والمراد بعبارة «والذي أَمَرَ به» أي نُقِشَ اسْمُ المعتصم كونه أَمَرَ ببناء القصر المذكور .

(٢) الشراجب : قوائم أو أعواد مثل السياج الخشبي الذي تتقاطع فيه الأعواد على شكل رقعة الشطرنج ، مفردتها شَرَجِب . تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية ص ١٣٣ حاشية ٤ . وفي تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ٧٧ : الشراجب هي النوافذ .

(٣) المراد هنا العُدُوَّة المغربية .

(٤) الصواب : «اتصلت» لأنَّ الفاعل هو كلمة «بساتين» وهي مؤنثة ولا يفصل بين الفعل والفاعل سوى حرف جر .

(٥) نصوص عن الأندلس ص ٨٤ - ٨٥ .

(٦) كان القصر الخلافي بقرطبة يضم مجالس عدَّة تحدَّث عنها الدكتور سالم في كتابه «قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس» (ج ١ ص ١٨٧ - ١٩١) .

(٧) قلائد العقيان ص ٤٧ .

(٨) مشاهدات لسان الدين ص ٤٧ .

ولقد أشاد ابن سعيد بقصور الصُّمَادِجِيَّة فقال: «وأعظم مبانيها (أي مباني المريّة) الصُّمَادِجِيَّة التي بناها المعتصم ابن صمادح^(١). «وفي رواية للمقري، يتحدث فيها عن عدل المعتصم وتورعه، يلقي علينا بعض الضوء عن هذا القصر الكبير وبستانه العظيم الاتّساع^(٢)».

وكانت الجداول تخترق هذا البستان منسابةً على حدّ قول ابن خاقان: «وأخبرني الوزير المذكور (أي أبو خالد بن بَشْتَغِين) أنّه حَضَرَ مجلسه (أي مجلس المعتصم) بالصُّمَادِجِيَّة في يومٍ، وفيه أعيان الوزراء، ونبهاء الشعراء، فقعده على موضع يتداخل الماء فيه، ويتلوى في نواحيه، والمعتصم منشراح النفس، مجتمع الأنس...»^(٣) نشير هنا إلى أنّ المريّة لم تكن تقتصر على هذا البستان العظيم، بل كان لها مُتَفَرِّجَاتٌ عدّة كان يقصدها أهل المريّة للتمتّع بمناظرها والتلطف بنسيم هوائها العليل، كمنى عبدوس، ومنى غسان، والنّجاد، وبركة الصُّفّر، وعين النُّطِيَّة^(٤).

وبرغم المعلومات القيّمة التي يُمدّنا بها مورينو فقد اكتفى بذكر قصر واحد في هذه القسبة، دون أن يسمّيه أو يسمّي بانيه، فيصفه بقوله: ويبدو قصر هذه القسبة، القائم في المرتفع الثاني، على شكل شبكة من جدرانٍ سميكة مشيّدة بملاط شديد الصلابة، قد اكتُشِفَ جزءٌ منه، ويغطّي بعض أجزاءها السفلى طلاءً من اللون الأحمر المائل إلى الصفرة... وطائفة أخرى من الجدران مشيّدة بالآجر والأحجار، تتألف بينها دروب تمتدّ بين غرف مربعة مع بعض الدرج. ولكنّ كلّ ذلك يحيط به الغموض ما دام لم يُستَكْمَلْ كشف القسبة كلّها؛ إذ اقتصر الكشف الدقيق على الطرف الشمالي للنطاق كلّ، حيث يظهر جسم بناءٍ أشبه ما يكون بشرفة تطلّ على طريق لاهويا (La Hoya)، ويتألف من طابقين وعقود ضخمة في الواجهة، احتفظ أحدها بصورته التي على شكل حذوة الفرس، وتتعلّق هذه العقود بقاعات طولها ٦٥، ٩ م، وعرضها ٣٢، ٢ م، ربّما كان يغطيها سوق في كل من الطابقين. وقد بقيت في الجزء الأمامي قاعة أخرى حُفِظَ منها طابقها الأسفل وهو أشبه بسرداب دون باب ظاهر،

(١) المغرب (ج ٢ ص ١٩٤).

(٢) وردت هذه الرواية مفصّلة في الصحيفة ٥٧، فأنظرها

(٣) فلائد العقيان ص ٤٩، ونفح الطيب (ج ١ ص ٦٦٦).

(٤) انظر المغرب (ج ٢ ص ١٩٤). والصُّفّر: معدن يكاد يشبه الذهب، نفح الطيب (ج ١ ص ٢٠٠).

ويتقدّمها ما يشبه الرّواق... وعلى يمين ذلك اكتشف حَمَامٌ مؤلّف من خمس غرف في صف واحد، بأثنتين منهما حواجزٌ جانبيةٌ من البناء، وبالعُرفة الأخيرة أنابيب التسخين والمداخن المعروفة الممتدّة في الجدران، ويحتفظ الحَمَام ببقايا قبوات أسطوانية وعقود من الأجر... وقد عُثِرَ بين أطلال القصر على أجزاء من أحواض من الرخام وهي مزبنة بزخارف بارزة... أو على شكل جَفَنَةٍ كبيرة يحيط بها نقشٌ كوفيٌّ، أو يشتمل على نقوش تاريخية لم تدرس بعد، أو ذوات زخارف جصية يشبه بعضها زخارف عصر بني نصر^(١).

وذكر الدكتور سالم أنّ المرتفع الثاني من القصبه كانت تشغله قصور القصبه وملحقاتها، دون أن يُسمّيها أو يُسمّي بُنائتها^(٢). وأنتهى إلى القول: في نهاية الطرف الشمالي من هذا المرتفع بناء أشبه ما يكون بشرفة تطل على خندق باب موسى، وكان مؤلفاً من طابقين، وفي قاعاته عقود ضخمة أحدها متجاوز من الطراز الخلافي. ولقد اكتشف بين أطلال القصر على حَمَام يتألّف من خمس غرف تمتدّ طولاً في محور واحد. وفي الجزء الجنوبي من هذا المرتفع حوضٌ جوفيٌّ أو خزانٌ مشيدٌ في جوف الأرض. وما تزال آثار هذه القصور إلى اليوم؛ منها أجزاء من جدران مشيدة من الطابية، وبعضها من الأجر وقطع الحجارة، وهذه الجدران تحصر فيما بينها غرفاً مربعة^(٣).

ويقدّم لنا ابن الحداد الأندلسي، شاعر المعتصم ابن صمادح، وصفاً رائعاً لهذا القصر ومجلّسيه فيقول^(٤) من قصيدة مديح في المعتصم (الكامل):
فالحُسْنُ أَجْمَعُ ما يُرِيكَ عِيَانُهُ لا ما أَرَتْهُ سَوَالِفٌ وَعُيُونُ^(٥)

(١) الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٢) تاريخ مدينة المرية ص ١٣٨.

(٣) المرجع نفسه ص ١٣٩.

(٤) وردت هذه الأبيات في الخريدة (ج ٢ ص ٢٧٩ - ٢٨١) طبعة الدار التونسية، وطبعة دار نهضة مصر

ص ١٨٩ - ١٩٢)، ونفح الطيب (ج ٤ ص ١٠١) والمغرب (ج ٢ ص ١٤٤)، والأفضليات (ج ١١

الورقة ٤٦)، ومسالك الأبصار (ج ١١ الورقة ٤٠١).

(٥) السوالف: جمع السالفة وهي الماضية أمام الغابرة. ويريد الشاعر أن يقول: إنّ رؤيتك حُسْنٌ هذا القصر

يعينك المجردة غير ما يحكي لك عنه الآخرون نقلاً عن مشاهدات غيرهم؛ لأنّ النّقل شكٌ والعِيَان

يقين.

والرَوْضُ ما أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ شَمُولُهُ
 قد عَلَّلَ الْأَزْهَارَ زَاهِرُ حُسْنِهِ
 والمَجْلِسَانِ النَّيِّرَانِ تَأَلَّفَا
 كَالْمُقَلَّتَيْنِ أَوْ الْيَدَيْنِ تَأَيَّدَا
 وكانَ رَاسِمَ خَطِّهِ إِقْلِيدِسُ
 مِنْ دَائِرٍ وَمُكَعَّبٍ وَمُعَيَّنٍ
 شَمَخَتْ فَلَا تُخْنِي سَوَارِيهَا لَهَا
 فَهَنَالِكَ التَّضْعِيفُ وَالتَّثْلِيثُ وَالتَّ
 لو أَبْصَرَتْهُ الْفُرْسُ قَدَّسَ نُورَهُ
 لا ما حَوَتْهُ أَبَاطِخُ وَحُزُونُ^(١)
 لا الْوَرْدُ مُلْتَفِتٌ وَلَا النَّسْرِينُ^(٢)
 هذا لَهَذَا فِي الْبَهَاءِ قَرِينُ^(٣)
 وَالْحُسْنُ يَعْضِدُ أَمْرَهُ التَّحْسِينُ^(٤)
 فَمَوَائِلُ الْأَشْكَالِ فِيهِ قُنُونُ^(٥)
 وَمُحَجَّنٌ تَقْوِيْسُهُ التَّحْجِينُ^(٦)
 كَلًّا، وَلَا تُرْمَى بِهَا فَتَيْنُ^(٧)
 تَرْبِيْعُ وَالتَّسْدِيسُ وَالتَّثْمِينُ^(٨)
 كِسْرَى وَأَخْبَتْ نَارَهَا شِيرِينُ^(٩)

(١) الشَّمُولُ: الخمر، والأباطح: جمع البطيحة والبطحاء وهي مَسِيلٌ واسع فيه دُقَاقُ الْحَصَى. وَالْحُزُونُ: جمع حَزَنٍ وهو ما غُلِظَ مِنَ الْأَرْضِ فِي أَرْتِفَاعٍ. يَقُولُ: إِنَّ قَصْرَ الْمُعْتَصِمِ رَوْضٌ بِحَدِّ ذَاتِهِ يُرِيحُ النَّفْسَ وَيَسْرُّهَا.

(٢) النَّسْرِينُ: ورد أبيض قوي الرائحة، فارسيّ معرّب. يَقُولُ: إِنَّ قَصْرَ الْمُعْتَصِمِ خَالٍ مِنَ الْأَزْهَارِ، وَإِنْ حُسْنُهُ يُعَوِّضُ ذَلِكَ فَيَسُدُّ مَسَدَهَا.

(٣) يَقُولُ: إِنَّ مَجْلِسَيْ الْقَصْرِ مُتَشَابِهَانِ فِي الْبَهَاءِ مُتَّعِمَانِ لِبَعْضِهِمَا الْبَعْضَ.

(٤) يَقُولُ: يَتَأَلَّفُ هَذَانِ الْمَجْلِسَانِ كَمَا تَتَأَلَّفُ عَيْنَا الْإِنْسَانِ أَوْ كَمَا تَتَعَاوَدُ يَدَاهُ.

(٥) إِقْلِيدِسٌ أَوْ قَلِيدِسٌ هُوَ أَبْنُ نَوْقَرَاتُسٍ أَوْ نَوْقَطَرُسٍ بَنَ بَرْنِيقُسَ، الْيُونَانِي الْمَشْهُورُ فِي الْهَنْدَسَةِ. وَلَدَ فِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، وَقِيلَ: فِي صُورَ، وَهُوَ مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ الْيُوسُفِيَّةِ، وَمِنْ حِكْمِهِ: «الْخَطُّ هَنْدَسَةٌ رُوحَانِيَّةٌ ظَهَرَتْ بِأَلَّةٍ جِسْمَانِيَّةٍ». لَهُ كِتَابٌ «أَصُولُ الْهَنْدَسَةِ». رَاجِعُ الْفَهْرَسْتِ ص ٣٢٥، وَالْمَلَلُ وَالنَّحْلُ ص ١١٤، وَدَائِرَةُ الْمَعَارِفِ لِلْمُعَلِّمِ بَطْرُسِ الْبَسْتَانِي (ج ٤ ص ٩١ - ٩٣).

(٦) الْمُعَيَّنُ: الْمُثْقُوبُ أَوْ الَّذِي فِيهِ تَرَابِيعُ صِغَارٍ كَعْيُونِ الْوَحْشِ، وَالْمُحَجَّنُ: الْمُعْوَجَّجُ.

(٧) يَقُولُ: إِنَّ الْبِنَاءَ شَامِخٌ وَطَيْدٌ تَحْمِلُهُ الْأَعْمَلَةُ الضَّخْمَةُ فَلَا تَنْحِنِي تَحْتَ ثِقَلِهِ وَلَا تَنْهَدِمُ.

(٨) يَعُدُّ الشَّاعِرُ هُنَا أَشْكَالَ الْقَصْرِ الْهَنْدَسِيَّةِ.

(٩) كِسْرَى: هُوَ كِسْرَى أَبْرُويزُ بَنُ هُرْمُزُ بَنُ كِسْرَى أَنْوِشِروَانَ بَنُ قُبَادُ بَنُ فَيْرُوزَ بَهْرَامَ بَنُ هُرْمُزَ بَنُ سَابُورَ بَنُ أَرْدَشِيرَ بَنُ بَابَلِكَ. جُمُهرَةُ أَنْسَابِ الْعَرَبِ ص ٥١١.

وَشِيرِينُ: هِيَ حَظِيَّةُ كِسْرَى أَبْرُويزَ، وَكَانَتْ مِنْ أَجْمَلِ خُلُقِ اللَّهِ، وَتَعْنِي بِالْفَارْسِيَّةِ «الْحُلُوهُ». وَالْفَرَسُ يَقُولُونَ: كَانَ لَكِسْرَى أَبْرُويزَ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ لِمَلِكٍ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلُهَا؛ فَرَسُهُ شَبْدِيزَ، وَحَارِيَّتُهُ شِيرِينُ، وَمُغْنِيَّتُهُ وَعَوَادُهُ بِلَهَبْدَ. وَقَصْرُ شِيرِينِ مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا، فِيهِ أبنِيَّةٌ عَظِيمَةٌ شَاهِقَةٌ، وَهِيَ إِيوَانَاتٌ كَثِيرَةٌ مُتَّصِلَةٌ، وَقُصُورٌ، وَمُنْتَزَهَاتٌ، وَأَرْوَقَةٌ، وَحُجُرَاتٌ تَدُلُّ عَلَى طَوْلٍ وَقُوَّةٍ. مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ (ج ٤ ص ٣٥٨). وَالشَّاعِرُ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ قَصْرَ الْمُعْتَصِمِ أَكْثَرُ عَظَمَةٍ مِنْ قَصْرِ شِيرِينِ، وَإِنَّهُ لَوْ كَانَ عَلَى أَيَّامِ كِسْرَى وَزَوْجَتِهِ شِيرِينِ لَقَدَّسَ كِسْرَى نُورُهُ وَلَأَخْبَتْ شِيرِينُ نُورَ قَصْرِهَا.

أو لو بدا للروم معجز صنعه . أبدى السجود إليه قسطنطين^(١)
 رأس بظهر النون إلا أنه سام، فقبتة بحيث النون^(٢)
 في رأسه سبق النعام سماؤه من دونه دمع الغمام هتون^(٣)
 قصر تبنت القصور قصورها عنه، وفضل الأفضلين يبين^(٤)
 هو جنة الدنيا تبوا نزلها ملك تملكه التقى والسدين^(٥)
 فكأنما الرحمن عجلها له ليرى بما قد كان ما سيكون^(٦)
 وكان بانيه سينمار فما يعدوه تحسین ولا تحصين^(٧)

٥ - مسجدھا الجامع :

بني المسجد^(٨) الجامع بالمرية في عهد عبد الرحمن الناصر، وقد أمر بتأسيسه

(١) قسطنطين: هو ملك الروم الذي بنى مدينة قسطنطينية فسميت باسمه، ومنارتها من المنائر العجيبة، والحكايات عن عظيمها كثيرة. معجم البلدان (ج ٤ ص ٣٤٧ - ٣٤٨)، ومعجم ما استعجم (ج ٣ ص ١٠٧٤).

(٢) يقول: إن رأس القصر سام تعلوه قبة على شكل حرف النون، أي إنها مستديرة منخفضة.
 (٣) النعام: ثمانية كواكب من منازل القمر، أربعة في المجرة وتسمى الواردة، وأربعة خارجة تسمى الصادرة. والغمام: السحاب، والواحدة غمامة. وهتون: يقول: إن رأس القصر يناطح السحاب، بل هو أكثر علواً من منازل القمر.

(٤) يقول: إن قصر المعتصم أفضل قصور الدنيا، لا يوازيه أي قصر في العظمة والجمال.

(٥) الملك هو المعتصم ابن صمادح.

(٦) هاء الضمير في عجلها تعود إلى جنة الدنيا في البيت السابق.

(٧) سينار: هو بناء رومي بني بظهر الكوفة قصر الخوزنق للنعمان الأكبر ابن أمية القيس، ولما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه وإتقان عمله فقال: لو علمت أنكم تؤفوني أجرتي وتصنعون بي ما أستحقه لبنائه بناء يدور مع الشمس حيثما دارت، فقالوا: وإنك لتبني ما هو أفضل منه ولم تبنيه؟ ثم أمر النعمان به فطرح من رأس القصر فتقطع، فضرب ذلك مثلاً لكل من فعل خيراً فجوزي بضده، فقل: (جزاء سينمار). وقالت الشعراء في ذلك أشعاراً كثيرة راجع خزانة الأدب (ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٦٨)، والأفصليات (ج ١ الورقة ٤٦)، والعمدة (ج ٢ ص ٢٢٩)، ومجمع الأمثال (ج ١ ص ١٥٩)، ولسان العرب، ومحيط المحيط، مادة (سنم). ويريد ابن الحداد أن يقول: إن قصر المعتصم يضاهي قصر الخوزنق حسناً وإتقان عمل، بحيث أجاد بانيه في صناعته إجادة سينار في صناعة قصر النعمان.

(٨) كانت المرية تضم داخل أسوارها عدداً كبيراً من المساجد، شأنها في ذلك شأن غيرها من مدن الأندلس. وللأسف لم يصلنا من أسماء هذه المساجد سوى ثلاثة هي: مسجد اللبسي الواقع في =

بعد سنة ست وأربعين وثلاثمائة / ٩٥٧ م، وهو العام الذي بنى فيه واجهة بيت الصلاة بجامع قرطبة^(١). ويعتقد توريس بلباس أن المسجد بُني بعد سنوات قليلة من توسيع الحكم المستنصر للمسجد الجامع بقرطبة، وأنه كان يتألف في البداية من خمسة أروقة ومحراب مربع الشكل على نمط محراب المسجد الجامع بقرطبة^(٢). وذكر كريستيان إورث أن المسجد كان مؤلفاً في البداية من ثلاثة أروقة، ثم أصبح له خمسة أروقة بعد الزيادة الأولى، وسبعة أروقة بعد الزيادة الثانية^(٣). وجدير بالذكر أن الزيادتين المذكورتين تَمَّتَا على أيدي خيران وزهير العامريين. وقد تحدّث العُدري عن هاتين الزيادتين، ولكن دون أن يحدّد عدد بلاطاهما، فقال: «وزاد (أي خيران) في قبة جامع المرية سنة عشر وأربعمائة / ١٠١٩ م، زيادة جميلة اتّسع بها جامع المرية.. وبنى (أي زهير) وزاد في جامع المرية عن غربيّه وشرقيّه وجوفيّه (أي لجهة الشمال) بلاطاً من كل ناحية، وعظم المسجد، وحسّ عليه الفنادق والحوانيت التي في قبليّ الجامع وفي شرقه وفي كثير من جوفيّه»^(٤). وأغفل ابن الخطيب الزيادة التي قام بها خيران العامري، مشيراً فقط إلى الزيادة التي أجراها زهير العامري: «وله بالمرية آثار جميلة؛ هو الذي بنى المسجد الجامع بها، وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة»^(٥). وردّد هذا القول في مكان آخر: «بنى المسجد في المرية، ودار فيه من جهاته الثلاث؛ المشرق والمغرب والجوف»^(٦).

ولم يُشرّ توريس بلباس إلى الزيادة التي أجراها زهير العامري، وأكتفى بالحديث عن زيادة خيران العامري، وحصرها بـ «رواقين، رواق من كلّ جانب، وذكر

= رضى المرية الغربي وكان صاحبه عبد الرحمن البلوي، ومسجد حونة، ومسجد طرفة. وهذه المساجد ومساجد مدن وقرى مملكة المرية لم تتحدّث عنها المصادر التي بين أيدينا. تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٤٤ - ١٤٥.

(١) تاريخ مدينة المرية الأندلسية ص ١٤٦ وما بعدها.

(٢) La mezquita mayor de Almeria, en Al-Andalus, Vol XVIII, p. 425-426.

وانظر أيضاً. Ampliación y tamaño de varias mezquitas , en Al-Andalus, Vol. XXI. p. 345.

(٣) El mihrab de la mezquita mayor de Almeria, en Al-Andalus, Vol. XXXVI. p. 456

(٤) نصوص عن الأندلس ص ٨٣.

(٥) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦).

(٦) الإحاطة بتحقيق عنان (ج ١ ص ٥١٨).

أَنَّ الرُّوَّاقَيْنِ كَانَا أَكْثَرَ اتِّسَاعاً مِنَ الأُرُوقَةِ الأُخْرَى^(١). وأضاف: أقدم خيران على توسيع المسجد بعد أن كثر في عهده، عدد الوافدين إلى المريّة، وأنّ الحفريات التي أجريت في داخل المسجد أسفرت عن وجود ثلاثة أساسات من الجدران؛ اثنان منها يختصّان بالرّواق الأوسط، والثالث يختصّ بالرّواق الواقع شرقي الرّواق الأوسط، كما أسفرت عن وجود خمسة أروقة، وأنّ الرّواق الذي زِيدَ من جهة الغرب أكثر اتِّساعاً من الرّواق الأوسط ومن الأروقة الجانبية^(٢).

وذهب جوميث مورينو إلى أنّ خيران العامري أعاد بناء الجامع وزاد فيه ولكن دون أن يمسّ القبلة أو جدارها^(٣). ورأى الدكتور سالم أنّه بالإمكان أن تُنسب إلى زهير العامري زخارف المحراب القديمة المخفية تحت طبقة الزخرفة الموحّدية التي تُشاهد اليوم، وأنّ الزخارف القديمة وُجِدَتْ أيضاً في العقود المدبّبة التي كانت تزين اللوحات الوسطى، وفي المساند الملفوفة التي عُثِرَ عليها في أرض الجامع^(٤). وذهب إلى أنّ مئذنة الجامع، التي لم تكشف الأبحاث الأثرية بعد عن أساسها، كانت تقوم في جُوفِيّ الجامع، وبالتحديد في منتصف المجنبة الشماليّة التي أقامها زهير عندما زاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث، وذلك على نحو مئذنة جامع قرطبة وغيرها من المساجد التي أُقيمت في فترة الخلافة^(٥). وذهب أيضاً إلى أنّ هناك تشابهاً بين المساند الملفوفة التي عُثِرَ عليها في أرضيّة مسجد المريّة وبين مساند واجهة صحن مسجد قرطبة، التي أقامها الناصر في سنة ست وأربعين وثلاثمائة / ٩٥٧ م، وأنّ أفاريز مسجد المريّة الزخرفيّة الصغيرة ذات التشابكات القائمة على الخطوط المستقيمة وعلى الدوائر، والتي تشبه أفاريز قصبة مالقة وقصر الجعفرية بسرقسطة، ترجع إلى عصر المعتصم ابن صمادح؛ إذ ليس من المستبعد أن يكون هذا الملك، وهو الذي زوّد هذا المسجد بالمياه، قد أضاف إلى عناصره بعض الزخارف^(٦).

ولقد جَلَبَ المعتصمُ الساقية، وبلغها إلى جامع المريّة بحيث كان الماء يصبُّ

(١) La mezquita mayor de Almeria, P. 426 .

(٢) الإحاطة بتحقيق عنان (ج ١ ص ٤١٣، ٤١٦).

(٣) الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٣١٩.

(٤) تاريخ مدينة المريّة الإسلامية ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٥) المرجع نفسه ص ٤٩.

(٦) المرجع نفسه ص ١٤٨.

في حوضٍ أُقِيمَ غربيّ الجامع . كما أجرى من هذه الساقية قناة تصل إلى ما وراء القصبه بحيث كان ماؤها يجري تحت الأرض حتى يبلغ إلى بئر أُقِيمَتْ في جَوْفِيّ القصبه . وصنع على هذه البئر سواني^(١)، يصل ماؤها إلى الرياض التي تحف قصره الكبير . وقد أَطْلَعَنَا العُذْرِي على هذه التفاصيل في قوله : «وَجَلَبَ المعتصمُ بالله الساقيةَ وبلغها إلى جامع ألمريةَ، وكان وُصُولُها وَجَرِيُّ الماء فيها إلى السقاية (أي الحوض) التي بني^(٢) في غربي جامع ألمرية أول يوم من شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وجلب منها أيضاً غُصْنًا (أي قناة) إلى وراء قصبه ألمرية، وسَرَّبَ تلك الساقية تحت الأرض حتى بلغت البئر الذي أُحْدِثَ في جَوْفِيّ القصبه، وصنع عليه سواني يُسَنَى فيها، ويصل ماؤها إلى الرياض، الذي ذكرنا في الدار الموصوفة»^(٣). كما أشار الحميري إلى شيء من ذلك فقال : «وعلى ربضها المعروف بالمُصَلَّى سُورُ ترابٍ بَنَاهُ خيرانُ العامريُّ، وكان قد أوصل إلى هذا الرِّبْضِ ماء العَيْنِ التي هناك، وأجراه في سقاية . ثم أوصله محمد بن صمادح إلى سقاية عند جامعها داخل المدينة، وأستطرد منه جدولاً يصبُّ في أسفل القصبه، ويُرفَعُ بالدواليب إلى أعلاه»^(٤).

وفهم من هذين النصّين أنَّ المعتصم أقام ناعورة ترفع الماء إلى أعلى القصبه، ثم يجري الماء من هناك في ساقية إلى القصر ويتفرّع في جداول مستراحات القصر ومجالسه^(٥).

وأغلبُ الظنُّ أنَّ مسجد ألمرية أُصِيبَ بأضرار فادحة أثناء احتلال الروم^(٦)

(١) السَّوَانِي : مما يُسْقَى عليه الزرع والحيوان وغيرهما، مفردا سانية، والمساني : المُسْتَقِي، وأَرْضُ مَسْنُوَّةٌ مَسْنِيَّةٌ أي مَسْقِيَّةٌ. لسان العرب (سنا).

(٢) هكذا في الأصل، والصواب : «التي بنيت».

(٣) نصوص عن الأندلس ص ٨٥. وانظر أيضاً. La mezquita mayor de Almeria, P 427.

(٤) الروض المعطار ص ٥٣٨.

(٥) راجع تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٤١.

(٦) استولى زعيم الروم المعروف بالسُّلَيْطِين على ألمرية ودخلها عَنَوَةً يوم الجمعة السابع عشر من جُمادى الأولى من سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م، ثم أسترجه الموحدون في سنة ٥٥٢ / ١١٥٧ م . راجع نفع الطيب (ج ٤ ص ٤٦١ - ٤٦٣)، ومعجم البلدان (ج ٥ ص ١١٩)، وقطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٨٤، والإحاطة بتحقيق عنان (ج ١ ص ٢٧١). والسُّلَيْطِين هو ألفونسو السابع ابن دونيا أورাকা =

للمدينة في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة / ١١٤٧ م، وذلك بالاستناد إلى نصّ الجُميري: «وكان الروم مَلَكُوهَا فغَيَّرُوا محاسنها وسَبَّوْا أهلها وخرَّبوا ديارها»^(١)، ونصّ المقرئ: «ودخل الموحدون المدينة، وقد خربت وضعفت، إلى أن أحيَا رَمَقَهَا الرئيسُ أبو العباس أحمد بن كمال»^(٢). ويفهم من هذين النصَّين أنَّ الموحدين أصلحوا ما كان خربه الفرنج في المدينة، إذ ليس من الطبيعي ألا يكون مسجدُها الجامع بين المباني التي أقدم الموحدون على ترميمها بعدما استعادوا المدينة من المُحتلِّين. ويعتقد بلباس أنَّ محراب مسجد المرية الجامع قد أصابه تلفٌ أثناء احتلال القشتاليين للمرية، وأنَّ الموحدين بعدما استعادوا هذه المدينة بادروا إلى تجديد هذا المحراب وتزيينه^(٣). وهذا المحراب، يضيف بلباس، هو الجزء الوحيد الذي ظلَّ مسجد المرية محتفظاً به، وهو مربع الشكل على غرار محراب المسجد الجامع بقرطبة، طول ضلعه ٩٠، ١ م، وتعلوه قبة صغيرة من الحجر مثمثة المقاطع^(٤). ويرى إورت أن آخر فترة تمَّ فيها تزيين المحراب كانت أيام الموحدين، وبالتحديد في السنوات الأولى من استرجاع المرية من أيدي القشتاليين^(٥). ولم يستبعد الدكتور سالم أن تكون أعمال الترميم التي أجراها الموحدون في المرية قد شملت أيضاً القسبة والأسوار والربض الغربي^(٦).

وفي الواحد والعشرين من أيار من سنة ١٤٩٢ م تحوّل مسجد المرية إلى كاتدرائية، وفي الثاني والعشرين من أيلول من سنة ١٥٢٢ م حدث زلزالٌ عملَ على تهديم جانب كبير منه. ومنذ ذلك التاريخ اتخذ المسجدُ كيسةً هي كنيسة سان خوان San Juan الواقعة قريباً من دار الصناعة. وفي سنة ١٨٤٥ م حُوِّلَت هذه الكنيسة إلى

= Dona Uñaca التي حلقت ألفوسو السادس في حكم قشتالة وليون وجليقية. وقد تقدم ذلك ص ٥١ حاشية ٤

(١) الررض المعطار ص ٥٣٨

(٢) نهح الطيب (ح ٤ ص ٤٦٣).

(٣) La mezquita mayor de Almeria, p 428

(٤) Ibidem (p. 418)

(٥) El mihrab de la mezquita mayor de Almeria, p 401

ويضيف كريستيان إورت: هُدمَت قبة المحراب في سنة ١٩٤٨، ثم أعيد ساؤها من الجص في أوائل

الخمسينات. المرجع نفسه ص ٤١٥.

(٦) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ٩٨.

سجن ومستودع للمدافع ومخزن للمؤن وفي سنة ١٨٧٨ م أُعيد البناء إلى كنيسة سُلِّمَتْ إلى جماعة الآباء الفرنسيين الذي حفظوا بقايا الجامع والكنيسة إلى أيامنا هذه. وفي سنة ١٩٣٨ م، ضربت الكنيسة بالقنابل، ومنذ ذلك الحين فَقَدَ المَبْنَى صلاحِيَّته الدينيَّة^(١).

ويمكننا أن نشاهد اليوم بوضوح جزءاً من الجدار الخارجي الشرقي لبيت الصلاة^(٢). وعن حديثه عن كنيسة سان خوان يقول مورينو: «دَلَّتْ كنيسة سان خوان المَهْدُمة على أنها مركز زاخر بالاكشافات، ويقال إنها كانت مسجداً جامعاً للمدينة، وقد بقي منه محرابه وهو من طراز فنّ الموحّدين. . ومن المحتمل أن يكون المسيحيون قد حَوَّلوا المسجد إلى كنيسة وأنهم قد دَمَرُوهُ عندما جَلُّوا عن المدينة سنة ١١٥٧ م ممَّا أدَّى بعد ذلك إلى تعمير الموحّدين له فيما بعد»^(٣).

ويرجّح الأستاذ عنان أن كاتدرائية ألمرية الواقعة في وسط المدينة بُنِيَتْ فوق مسجد ألمرية الجامع، جَرَّياً على القاعدة التقليديّة التي اتَّبَعَتْها إسبانيا في سائر مدن الأندلس^(٤). ويضيف: وقيل إن كنيسة سان خوان، إحدى كنائس ألمرية القديمة، هي التي بُنِيَتْ فوق أنقاض المسجد الجامع بألمرية^(٥).

ولقد زار الرّحالة الألمانيّ منتزر هذا المسجد وقد تحوّل إلى كنيسة بُعِيدَ سقوط ألمرية في أيدي القشتاليين في سنة ١٤٩٤ م فرأى فيه خمسين قِسْياً يُعْنَوْنَ بشؤون الدّين المسيحي، فأبهره المسجد وروعته وإتقانه فقال واصفاً إيّاه: كان من أجمل مساجد مملكة غرناطة^(٦) وأعظمها على الإطلاق؛ إذا كانت فيه مئات الثُّرَيّات

(١) انظر El Mihrab de la mezquita mayor de Almeria, p. 402-403 La Mezquite mayor de Almeria, p. 414-415.

وتاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٤٥، ١٥٠.

(٢) راجع تاريخ مدينة ألمرية الأندلسيّة ص ١٩٦.

(٣) الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٢١٩.

(٤) الآثار الأندلسيّة الباقية في إسبانيا والبرتغال ص ١٩٤.

(٥) المرجع نفسه ص ١٩٥.

(٦) تجدر الإشارة هنا إلى أن ألمرية كانت في عصر بني الأحمر تابعة لمملكة غرناطة، وأنها سقطت في أيدي القشتاليين في سنة خمس وتسعين وثمانمائة / ١٤٨٩ م، أي قبل سقوط الحاضرة، غرناطة سستين. راجع نفح الطيب (ج ٤ ص ٥٢٢)، وتاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٠٥، وتاريخ مدينة ألمرية الأندلسيّة ص ١٨١.

والقناديل تضيء مُصَلَّاه أثناء الصلاة، وكان زيت الوقود المُخَصَّص للإضاءة يُحَفَظُ في خزائن خاصّة، وكان فيه غرفة خاصّة بقاضي المدينة، وكان صحنه مُبَلَّطاً بالمرمر ومغروساً بأشجار الليمون وغيرها من الأشجار، وكان يتوسّطه حوض ماء للوضوء^(١).

٦ - دارها المخصصة للحكم:

بنى المعتصم إلى جانب قصر الصمادحية في الجانب الشرقي من مدينة المرية داراً للحكم فيها. وقد آنفرد العُدري بالإشارة إليها في قوله: «وبنى في شرقها (أي شرق المرية) داراً للحكم فيه، متقن جداً»^(٢).

٧ - مقابرها وأضرحتها:

اكتفت المصادرُ بذكر أربع^(٣) مقابر لمدينة المرية، أُقيمتُ بظاهرها، وهي: مقبرة الشريعة القديمة أو مقبرة المُصَلَّى، ومقبرة الشريعة الجديدة، ومقبرة باب بجانة أو مقبرة الربض الشرقي، ومقبرة الحوض أو مقبرة الربض الغربي، ولقد أُقيمت مقبرة الشريعة القديمة خارج مدينة المرية القديمة، وعُرفت بمقبرة المُصَلَّى، وأشار إليها ابن بَشْكُوَال عند ترجمته لأبي محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله الجَدلي، المعروف بابن الزفت، صاحب الصلاة والخطبة بجامع المرية، المتوفى سنة أربع وأربعين وأربعمائة / ١٠٥٢ م^(٤). وذكرها الدكتور سالم وقال: كانت هذه المقبرة خارج مدينة المرية القديمة، وبعد اتّساع هذه المدينة أصبحت المقبرة في داخلها مما حدّ من وظيفتها التي ظلّت تقوم بها حتى منتصف القرن الخامس الهجري^(٥) منتصف القرن الحادي عشر الميلادي. كما ذكرها توريس بلباس وجعلها أقدم من مَقْبَرَتِي باب

(١) . Viaje por España y Portugal, p. 30-31.

وانظر أيضاً La mezquita mayor de Almeria, p. 423-425.

وتاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٤٩-١٥٠.

(٢) نصوص عن الأندلس ص ٨٥.

(٣) تجدر الإشارة هنا إلى أن المقابر كانت متشرة في مدن مملكة المرية وقراها، ولكن المصادر أغفلت ذكرها.

(٤) الصلاة (ج ١ رقم ٦٠٣).

(٥) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٢٩.

بجّانة والحوض^(١). أمّا مقبرة الشريعة الجديدة، فقد أوجدها خيران العامري خارج مدينة ألمرية^(٢). والمقبرتان الأخريان كبيرتان، وقد أُقيمتا خارج أسوار رُبَضِي ألمرية الشرقي والغربي، وأشار إليهما ابن بشكّوال، فذكر مقبرة الحوض عند ترجمته لأبي العباس أحمد بن عمر بن أنس بن قطبة العذري المري، المعروف بآبن الدلائي، المتوفى سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة / ١٠٨٥ م^(٣)، وفي ترجمة أبي بكر عبد الرحمن بن عبد الرحمن الحُجْري، والمعروف بالشُمْتَانِي، نسبةً إلى شُمْتَان من ناحية جِيَان، المتوفى سنة ست وثمانين وأربعمائة / ١٠٩٣ م^(٤). وحدّد الدكتور سالم هذه المقبرة في السهل الممتدّ بين السُّور القِبْلِيّ لربض الحوض وساحل البحر، بحيث كانت تمتدّ حتى الرابطة التي تقوم مقامها اليوم كنيسة سان روكي^(٥) San Roque أمّا مقبرة باب بجّانة فقد ذكرها ابن بشكّوال عند ترجمته لاثنين من أهل ألمرية؛ هما أبو الحسن علي بن إبراهيم الأنصاري، المعروف بآبن اللوان، والمتوفى سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م، والقاضي أبو عبدالله محمد بن خلف، المعروف بآبن المرابط، والمتوفى سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م^(٦). وذكرها ابن الأبار في ترجمة أبي الطاهر محمد بن يوسف بن عبدالله بن إبراهيم التميمي السرقسطي، بقوله: «توفي بالمريّة عشي يوم السبت، الثاني من ذي الحجة سنة أربعين وخمسمائة. ودفن عصر يوم الأحد بمقبرة باب بجّانة»^(٧). وأعاد ذكرها في ترجمة أبي العباس أحمد بن محمد ابن عبدالله بن أحمد الأنصاري، البلنسي الأصل، والمريّ المسكن، بقوله: «توفي بالمريّة في شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة. وقبره بمقبرة باب بجّانة من ظاهرها»^(٨) كما أعاد ذكرها في ترجمة أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الأنصاري، البلنسي الأصل. والمريّ المسكن بقوله: «توفي في الثامن والعشرين

(١) | Cementerios hispanomusulmanes, en Al-Andalus, Vol. XXII, p. 178-179.

(٢) | Ibidem. p. 179.

(٣) | الصلة (ج ١ ص ٦٩ - ٧٠). وانظر أيضاً p. 179. Cementerios.

(٤) | المصدر نفسه ص ٣٢٩.

(٥) | تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ص ١٣٠ - ١٣١.

(٦) | الصلة (ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦، ٥٢٧ - ٥٢٨).

(٧) | المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدي ص ١٤٧.

(٨) | التكملة لكتاب الصلة (ج ١ ص ٨٣ - ٨٤).

لشهر ربيع الأول سنة ٦٢١ . . ودفن بحذاء أبيه بمقبرة باب بجانة من ظاهر المرية»^(١) وأشار إليها ابن الخطيب عند حديثه عن وفاة اللغوي أحمد عبد النور المالقي ، فقال : «توفي بالمرية . . . ودفن خارج باب بجاية»^(٢) بمقبرة من تربية الشيخ الزاهد أبي العباس بن مكنون»^(٣) . وحدد الدكتور سالم موقع هذه المقبرة في ربض المرية الشرقي خارج باب بجانة في بسيط من الأرض تجاه الطريق الذي كان يسلكه الداخلون إلى المرية من الباب المذكور، وقال إنها أنشئت بعد قيام ربض المصلى في أوائل القرن الخامس الهجري / أوائل القرن الحادي عشر الميلادي في عهد خيران العامري ، وإنها كانت المقبرة الرئيسية في المرية^(٤) . وذكرها تورييس بلباس وجعلها أكثر مقابر المرية شهرة^(٥) . وأضاف : عند مدخل المرية ، وبالتحديد قبيل الوصول إلى باب بجانة بقليل ، يلتفت نظرك على حافتي الطريق كثرة شواهد القبور ، التي عليها كتابات منقوشة على مرمر ناصع البياض ، والتي تميّزت بها المرية عن غيرها من مدن الأندلس^(٦) . وذكر الدكتور أبو الفضل أن المتحف الأهلي للآثار في مدريد يحتفظ اليوم بأحد هذه الشواهد وقد نقشت عليه كتابات بالخط الكوفي^(٧) .

قَيْسَارِيَّتُهَا :

بُنِيَتْ قَيْسَارِيَّةُ الْمَرِيَّةِ عَلَى شَاطِئِهَا قَرَبَ دَارِ الصَّنَاعَةِ ، وَكَانَ التُّجَّارُ يَقْصِدُونَهَا لِيُؤْمِنُوا فِيهَا عَلَى أَمْوَالِهِمْ . وَقَدْ أَنْفَرَدَ الْعُذْرِيُّ بِالْإِشَارَةِ إِلَى ذَلِكَ فَقَالَ : «وَدَارُ صِنَاعَتِهَا الْقَدِيمَةُ الْمَذْكُورَةُ (أَي دَارُ صِنَاعَةِ الْمَرِيَّةِ) قَبْلَ هَذَا قَدْ قُسِّمَتْ عَلَى قَسْمَيْنِ ؛ فَالْقِسْمُ الْوَاحِدُ فِيهِ الْمَرَاقِبُ الْحَرِيَّةُ وَالْآلَةُ وَالْعِدَّةُ ، وَالْقِسْمُ الثَّانِي فِيهِ الْقَيْسَارِيَّةُ . قَدْ رَتَبَ كُلُّ

(١) المصدر نفسه (ص ٦١٦) .

(٢) الصواب : «بجانة» بالنون ؛ لأن بجاية مدينة بالجزائر ، وقد نبّهنا إلى ذلك من قبل في هذا البحث .

(٣) الإحاطة بتحقيق عنان (ج ١ ص ٢٠٢) .

(٤) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٢٩ - ١٣٠ . وانظر أيضاً تاريخ مدينة المرية الأندلسية ص ١٩٨ . ١٩٩ .

(٥) Cementerios hispanomusulmanes, p. 177 .

(٦) Ibidem, p. 181 .

(٧) تاريخ مدينة المرية الأندلسية ص ١٩٩ .

صناعة فيها حسب ما يشكّل لها. قد أمن فيها التجار بأموالهم، وقصد إليها الناس من أقطارهم»^(١).

وحدّد الدكتور أبو الفضل موقعها في جنوب المرية^(٢). وميّز بين وظيفتها في المشرق ووظيفتها في الأندلس؛ ففي المشرق كانت مخزناً للمتاجر وإيواء للنزلاء من التجار، وفي الأندلس كانت سوقاً تجاريةً لخزن المتاجر وبيع السلع^(٣).

والقيسارية عبارة عن مجموعة أبنية عامّة تتخذُ شكل رواقٍ ذيِّرٍ مُسَقَّفٍ، ويتفرّع منها أَرْقَةٌ على جوانبها حوائِثٌ ومشاعِلُ عمالٍ ومخازنٌ وحتى منازل^(٤).

ويجدر بنا أن نشير إلى وصف ابن جبير لقيسارية مدينة الموصل، ففيه إفادة: «وبني أيضاً داخل البلد (أي الموصل) وفي سُوقِهِ قَيْسَارِيَّةٌ للتجار، كأنّها الخان العظيم، تُغَلَقُ عليها أبوابٌ حديدٌ، وتطيف بها دكاكينٌ وبيوتٌ، بعضها على بعض»^(٥).

حُمَّتُهَا الْعَجِيْبَةُ:

بني خيرانُ العامريُّ حُمَّةَ المرية العجيبة، وأكد ذلك ابن الخطيب بقوله: «وبني فيها (أي في المرية) انْحَمَّةُ العجيبة، وفي أيامه بلغت المدينة من العمارة والقوة ما هو مشهور»^(٦). ووصفها الجُميري وأسهب في وصفها، قائلاً: كانت هذه الحُمَّة العجيبة الشأن في رأس جبل شامخ يقع شرقي بَجَانة على بعد ثلاثة أميال منها، ولم يكن لها نظير في معمر الأَرْض إِتْقَانُ بِنَاء وسخانة ماء، وكان أهل الأسقام والعاهات يقصدونها من جميع النواحي، ويقيمون عليها حتى يشفوا من أمراضهم. وكان أهل المرية يرحلون إليها في فصل الربيع بنسائهم وأولادهم بأحتفال في المطاعم والمشارب والتوسّع في الإنفاق، وربّما بلغ المسكن في الشهر بها ثلاثة

(١) نصوص عن الأندلس ص ٨٦.

(٢) تاريخ مدينة المرية الأندلسية ص ١٦٩.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢٤.

(٤) انظر - Encyclopédie de l'Islam (I.V - p 873).

(٥) رحلة ابن جبير ص ٢١٠.

(٦) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٢). وانظر أيضاً La poésie andalouse, p. 142.

دنائير مرابطية وأقل وأكثر^(١). وأضاف: وبِجَوْفِيَّ مدينة بَجَّانة، أي في شمالها، حَمَّةٌ أخرى أغزر من الحَمَّة الأولى، إلاَّ أنَّ الأولى أنجع في الأسقام وأصلح للأبدان.^(٢) وأشار توريس بلباس إلى الحَمَّة العجيبة بقوله: تعرف هذه الحَمَّة اليوم بِأسم Sierra Alhamilla^(٣). وعَرَّفَ أبْنُ منظور الحَمَّةَ بِأَنَّها عَيْنُ ماء فيها ماء حارَّ يستشفى به الأَعْلَاء والمرَضَى^(٤).

١٠ - الأسواق والفنادق والمتاجر والحمامات:

ضاق الحديث عن هذه المرافق في المصادر التي بين أيدينا، ممَّا لم يفسح لنا المجال لنكوِّن فكرة عن تنظيمها وسير العمل فيها في عهد المعتصم ابن صمادح، والخدمات التي كان أصحابها يؤدّوها للسكان، والعائدات الماليَّة التي كانوا يجلبونها، والضريبة التي كانوا يقدّمونها لبيت مال الدولة، وما إلى هنالك من أمور. وكان أملنا كبيراً في العثور على معلومات قيِّمة من العذري، كونه الجغرافيُّ الوحيد المعاصر للمعتصم، لتصبَّ في خانة البحث، ولكنَّ العذري اكتفى بالإشارة إلى فنادق وحوانيت كان حَبَسَها زهير العامري على جامع ألمريَّة من جهاته الثلاث؛ القبلة والشرق والجَوْف (الشمال)^(٥) دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى دورة الحياة في هذه المرافق الهامَّة في عهد مليكه المعتصم.

وكان أبْنُ حوقل من قبله بقرن من الزمن قد أشار إلى أشتهار ألمريَّة بالأسواق والحمامات والخانات^(٦)، وأغلب الظنُّ أنَّه يشير إلى ألمريَّة في عهد عبد الرحمن الناصروآبْنه الحكم المستنصر. أمَّا المقرِّي الذي كان بعد العذري بخمسة قرون، فقد ذهب إلى أنَّ ألمريَّة أمتازت على غيرها من مدن الأندلس بعظمة متاجرها، وأنَّه كان بها من الحمامات والفنادق نحو الألف^(٧)، دون أن يحدّد الفترة الزمنيَّة التي

(١) الروض المعطار ص ٧٩ - ٨٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) Almeria Islamica, p. 414.

(٤) لسان العرب (حمم).

(٥) نصوص عن الأندلس ص ٨٣.

(٦) صورة الأرض ص ١١١.

(٧) نفح الطيب (ج ١ ص ١٦٣). نشير هنا إلى أنَّ المقرِّي أخذ معلوماته عن كتاب «الروض المعطار» =

يتحدّث عنها. ويضيف: توزّعت فنادق وحمّامات في الرّبض الغربي المسمّى برّبض الحوض^(١). وذهب سالم وتوريس بلباس إلى القول بأنّ أسواقاً وفنادق وحمّامات توزّعت حول ساحة المسجد الجامع بالمرية^(٢).

= للحميري ص ٥٣٨، وأنّ الحميري لم يحدّد بدوره الفترة الزمنية التي يتحدّث فيها عن مرافق المرية

(١) مع الطيب (ج ١ ص ١٦٣)

(٢) تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية ص ١٦٩، و Almeria Islamica, p. 430-436.

الخاتمة

هدفي من هذه الرسالة هو إبراز الصورة الحية التي كانت عليها مملكة المريّة في الميدانين التاريخي والحضاري. وقد توصلتُ إلى أن المريّة عبارة عن مرتفعات وحصون باستثناء الجهة الجنوبية الشرقية المحاذية للبحر المتوسط، وأنها مدينة عربية مستطيلة الشكل استحدثتها الخليفة عبدالرحمن الناصر في سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م، وأن اسمها مشتق من كلمة «رأى»، أو من كلمتين هما «مرآة البحر»، أو من فعل «مرى».

واستنتجتُ أن العرب المسلمين كانوا يقومون بدور جهادي كبير في الموقع القديم لمدينة المريّة، وأنهم ظلّوا يحتفظون بهذا الدور حتى عهد المعتصم ابن صمّاح حيث احتلت المريّة المركز الأول بين القواعد البحرية في الأندلس.

وتوصلتُ إلى أن خيران العامري هو أول من استقل بها (٤٠٥ - ٤١٩ هـ / ١٠١٤ - ١٠٢٨ م)، وأن الأمر بعده صار إلى زهير العامري (٤١٩ - ٤٢٩ هـ / ١٠٢٨ / ١٠٣٧ م)، ثم إلى المنصور عبد العزيز العامري (٤٢٩ - ٤٣٣ هـ / ١٠٣٧ - ١٠٤١ م)، ثم إلى مَعْن بن صمّاح (٤٣٣ - ٤٤٣ هـ / ١٠٤١ - ١٠٥١ م)، ثم إلى المعتصم ابن مَعْن بن صمّاح (٤٤٣ - ٤٨٤ هـ / ١٠٥١ - ١٠٩١ م) ثم إلى معز الدولة ابن المعتصم، الذي حكم ستة أشهر حيث تسقط المريّة في أيدي المرابطين، ثم تخضع من بعدهم للموحّدين، ثم تصبح في عهد بني نصر ولاية من ولايات مملكة غرناطة، ثم تسقط في أيدي القشتاليين الإسبان يوم الجمعة العاشر من محرّم سنة (٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م).

وكون المعتصم ابن صمّاح الشخصية التي يتمخّور حولها موضوع الرسالة،

توجَّب عليَّ أن أقدم نبذة عن حياته، فرأيتُ أنه كان حسن السيرة في رعيته وجنده، ورعاً عادلاً متسامحاً بين الناس، شاعراً فذاً بين شعراء عصره.

ورأيتُ أن صفاتٍ وعاداتٍ وتقاليد شعب مملكة المرية تنحصر بكثرة التدين، والبعد عن التعصب الديني، وكثرة النظافة، والبعد عن الإسراف والتبذير مع كرم النفس والجود، وحب الموسيقى والغناء واللهو والجد والهزل معاً. ووجدتُ مجتمع المرية يعاني من تناقض رهيب بين طبقة أرستقراطية تعيش حياة ترف ونعيم وأخرى فقيرة مُعْدمة تعيش في بؤس دائم، ورأيتُه خليطاً من عناصر عديدة وهويات عرقية لم تُفَقِّده الاندماج والعيش المشترك، بحيث كان كلُّ عنصر يتأثر بالآخر، ولكن كفة ميزان العرب في التأثير كانت هي الراجحة.

وفي المجال الاقتصادي استتجتُ أن إنتاج المرية الزراعي في عهد المعتصم ابن صمادح كان كبيراً رغم الجفاف الذي كان يسودها ورغم قلة أمطارها في فصل الشتاء، وأن خيراتها ما أُحِيطَ بها من أراضٍ خصبة امتدَّت مع امتداد مدنها وقراها كان أكبر، وأن أهم الحاصلات الزراعية هي الزيتون والأعناب والكتان. واستتجتُ أن المرية شهدت في عهد المعتصم تقدماً في مجال الصناعة أمتازت به على غيرها من مدن الأندلس، وأهم الصناعات التي شهدها كانت صناعة النسيج ولا سيما الحرير منه، وصناعة الرخام، وصناعة المعادن، وصناعة الزجاج، وصناعة السفن، وصناعة الفخار وصناعة الزيوت. وتوصلتُ إلى أن المرية شهدت نشاطاً تجارياً على المستويين الداخلي والخارجي، ساعدها على القيام بهذا الدور أهمية موقعها على البحر المتوسط ووجود قيسارية في دار الصنعة وكثرة خيراتها، وأنها كانت تصدر عبر مينائها الشهير الكثير من محاصيلها الزراعية ومُنتجاتها الصناعية، وتستورد بالمقابل جميع البضائع التي كانت تحتاجها.

وفي الميدان الثقافي رأيتُ أن المرية حظيت في عهد المعتصم ابن صمادح بقسط كبير من النشاط الأدبي واللغوي بحيث بلغت أوجها في تلك الفترة وذلك من خلال المجالس الأدبية واللغوية والعلمية التي كان يعقدها المعتصم ويرعاها بقصره.

وفي ميدان العمران كان بودي الحديث عن المنشآت الحربية والمدنية والدينية التي أقيمت في المرية ومدنها وقراها، كالكتائب، والزوايا، والأربطة، ومدارس التعليم، والمستشفيات، والمساجد، وماوي الأيتام والمشردين وأبناء السبيل، وغيرها

من معاهد العلم والأبينة التي كانت تُقدَّم فيها خدماتٌ للسكان، ومنازل الناس، ولكن المصادر التي تحدّثت عن المريّة ومليّكها المعتصم ابن صمادح لم تشر إلى ذلك، وجلّ ما ذكرته ينحصر في الحديث عن قصبة المريّة، وقصرها المعروف بالصُمادحية، ومسجدها الجامع، ومقابرها وأضرحتيها، وقيساريّتها، وحُمّتها العجيبة، وأسواقها وفنادقها ومتاجرها وحمّاماتها.

وهكذا حاولت في صفحات هذه الرسالة أن أرسم الصورة التي كانت عليها مملكة المريّة في عهد المعتصم ابن صمادح، علّني بذلك أكون قد وفّقت.

والله هو الموفّق والمُعِين

ثبت بأسماء المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

- ١ - الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال للأستاذ محمد عبدالله ع inan القاهرة، ١٩٥٦.
- ٢ - الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (١ - ٤). تحقيق الأستاذ محمد عبدالله ع inan. مكتبة الخانجي بالقاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ٧٣ - ١٩٧٧.
- ٣ - الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب. جزءان في مجلد واحد.
- ٤ - أخبار الغناء والمُغَنِّين في الأندلس (١١٣٨ - ٥٣٩ هـ) للدكتور إحسان عباس، مجلة الأبحاث، السنة ١٦، الجزء الأول، سنة ١٩٦٣.
- ٥ - أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من مُعْجَم السُّفَر للسُّلْفي. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت، ١٩٦٣.
- ٦ - أزهار الرياض في أخبار عياض للمُقَرِّي التُّلمَساني (١ - ٣). تحقيق الأساتذة مصطفى السُّقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، ١٩٤٠.
- ٧ - الأعلام للزركلي (١ - ٨). دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.
- ٨ - أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاختيلا من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية لابن الخطيب. القسم الثاني، تحقيق الأستاذ أ. ليفي بروفنسال. دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

- ٩ - أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط لابن الخطيب القسم الثالث، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتّاني . دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤ .
- ١٠ - الأفضليّات لابن الصيّرفي (١ - ٢) . نسخة مصورة عن مخطوطة محفوظة بمكتبة الجامعة الأميركية في بيروت تحت رقم MS 8927 s 27 a A .
- ١١ - أُنْدُلُسيّات للدكتور عبد الرحمن الحّجّي . دار الإرشاد . بيروت، ١٩٦٩ .
- ١٢ - بدائع البدائيه لعلي بن ظافر الأزدي . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة، ١٩٧٠ .
- ١٣ - بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبيّ . دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧ .
- ١٤ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي . دار المعرفة، بيروت .
- ١٥ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي (١ - ٤) . تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال والدكتور إحسان عباس . دار الثقافة، بيروت .
- ١٦ - تاج العروس للزبيدي . المطبعة الخيرية بمصر، ١٣٠٦ هـ .
- ١٧ - تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعي . الجزء الثالث . الطبعة الأولى، مصر، ١٩٤٠ .
- ١٨ - تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) للدكتور إحسان عباس . دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ .
- ١٩ - تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) للدكتور إحسان عباس . دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٤ .
- ٢٠ - تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطيّة . تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري . دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ٢١ - تاريخ الأندلس لابن الكردبوس . تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي . معهد

الدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٧١.

٢٢ - تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين للمؤرخ الألماني يوسف اشباخ (١ - ٣). ترجمة الأستاذ محمد عبدالله عنان. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ١٩٤٠ - ١٩٥٨.

٢٣ - تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم والدكتور أحمد مختار العبادي. دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩.

٢٤ - تاريخ التمدن الإسلامي جرجي زيدان (١ - ٢). دار مكتبة الحياة. بيروت.

٢٥ - تاريخ العرب بقلم الدكتور فيليب جتي والدكتور إدوارد جرجي والدكتور جبرائيل جبور. الطبعة الخامسة، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ١٩٧٤.

٢٦ - تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري للدكتور عبد العزيز الدوري. الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٤.

٢٧ - تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم. دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩.

٢٨ - تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ إنشائها حتى استيلاء المرابطين عليها للدكتور محمد أحمد أبو الفضل. تصدر الدكتور السيد عبد العزيز سالم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. الإسكندرية، ١٩٨١.

٢٩ - تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباخ. تعريب الأستاذ محمد عبدالله عنان. مؤسسة الخانجي، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨.

٣٠ - تاريخ الموسيقى العربية للأستاذ هنري جورج فارمر. ترجمة الدكتور حسين نصار. القاهرة ١٩٥٦.

٣١ - تنمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) لابن الوردي (١ - ٢). دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠.

٣٢ - تقويم البلدان لأبي الفداء. تحقيق رينود وماك كوكين دي سلان، باريس، ١٨٥٠. (يطلب من مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بمصر).

- ٣٣ - التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (١ - ٢). عني بنشره وصححه السيد عزت العطار الحسيني . مطبعة السعادة بمصر، ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .
- ٣٤ - تكملة المعاجم العربية لرينهارت دوزي نقله إلى العربية الدكتور محمد سليم النعيمي . وزارة الثقافة والفنون بالعراق .
- ٣٥ - جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس للحميدي . الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦ .
- ٣٦ - جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري . تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجّجي . دار الإرشاد، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٦٨ .
- ٣٧ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم . تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون . دار المعارف بمصر، ١٩٦٢ .
- ٣٨ - جيش التوشيح لابن الخطيب . تحقيق الأستاذ هلال ناجي . مطبعة المنار بتونس .
- ٣٩ - الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف للأستاذ ألبير مطلق . المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٩٦٧ .
- ٤٠ - حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون . ترجمة الأستاذ عادل زعيتر . دار إحياء التراث العربي . بيروت، ١٩٧٩ .
- ٤١ - حضارة العرب في الأندلس للأستاذ ليفي بروفنسال . ترجمة ذوقان قرقوط . منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت .
- ٤٢ - الحُلة السَّيراء لابن الأبار (١ - ٢) . تحقيق الدكتور حسين مؤنس . الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣ .
- ٤٣ - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية للأمير شبيب أرسلان (١ - ٣) . دار مكتبة الحياة، بيروت .
- ٤٤ - الحُلل المَوْشِيَّة في ذكر الأخبار المراكشية للسان الدين بن الخطيب . مطبعة التقدم الإسلامية بتونس، ١٣٢٩ هـ . وهناك طبعة الرباط (١٩٣٦) بتحقيق

- الأستاذ علوش، مصدرة بعبارة: «مجهول المؤلف»، وهي عبارة صحيحة لأنه لا يصحُّ أن يُنسبَ هذا الكتاب إلى ابن الخطيب لأسباب عدة، منها الصياغة والمضمون. ونحن اعتمدنا في رسالتنا طبعة تونس، لعدم توفر الطبعة الثانية.
- ٤٥ - خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الكاتب الأصفهاني (قسم شعراء المغرب والأندلس الجزء الثاني)، تحقيق الأستاذين عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم. دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٦٩.
- ٤٦ - خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الكاتب الأصفهاني (قسم شعراء المغرب والأندلس الجزء الثاني) حققه آذرنوش ونقحه وزاد عليه محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي، الدار التونسية للنشر، ١٩٧١.
- ٤٧ - خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الكاتب الأصفهاني (القسم الرابع، الجزء الثاني). تحقيق الأستاذين عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم. دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ١٩٦٩.
- ٤٨ - خزانة الأدب ولبّ لسان العرب لعبد القادر البغدادى (١ - ٤). القاهرة، ١٣٤٧ هجرية.
- ٤٩ - دائرة المعارف (١ - ١٤) بإدارة الدكتور فؤاد أفرام البستاني. بيروت، ١٩٥٦ - ١٩٨٣.
- ٥٠ - دائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني (١ - ١١) مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٦ - ١٩٠٠.
- ٥١ - دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية للأستاذ عمر رضا كحالة. المطبعة التعاونية بدمشق، ٩٧٣.
- ٥٢ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (١ - ٤). حيدر آباد.
- ٥٣ - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (وهو العصر الثاني من كتاب دولة الإسلام في الأندلس) للأستاذ محمد عبدالله عنان. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ١٩٦٠.
- ٥٤ - ديوان ابن الحداد الأندلسي، جمعه وحققه الدكتور يوسف طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

- ٥٥ - ديوان ابن حمديس . صحّحه وقّده له الدكتور إحسان عباس . دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٠ .
- ٥٦ - ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي . تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية . دمشق ٩٧٢ .
- ٥٧ - ديوان ابن خفاجة . تحقيق الدكتور مصطفى غازي . دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .
- ٥٨ - ديوان ابن خفاجة ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠ .
- ٥٩ - ديوان ابن درّاج القسطلّي . تحقيق الدكتور محمود علي مكي . منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ١٩٦١ .
- ٦٠ - ديوان أبي تمام . شرح الدكتور شاهين عطية . دار صعب . بيروت .
- ٦١ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشتريني (أربعة أقسام في ثمانية مجلدات) . تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ - ١٩٧٩ .
- ٦٢ - الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (١ - ٦) تحقيق الأستاذين محمد بن شريفة وإحسان عباس دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ .
- ٦٣ - رايات المبرزين لابن سعيد الأندلسي . تحقيق الدكتور إميليو غرسيه غومس مدريد، ١٩٤٢ .
- ٦٤ - رحلة ابن جبير . دار بيروت للطباعة والنشر . بيروت، ١٩٧٩ .
- ٦٥ - رسائل ابن حزم الأندلسي (١ - ٤) تحقيق الدكتور إحسان عباس . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت، ١٩٨٠ - ١٩٨٣ .
- ٦٦ - الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع سرد عام) للحميري . تحقيق الدكتور إحسان عباس . مؤسسة ناصر للثقافة . بيروت، ١٩٨٠ .
- ٦٧ - الزجل في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني، القاهرة، ١٩٥٧ .
- ٦٨ - الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق . مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٢ .
- ٦٩ - زرياب أبو الحسن علي بن نافع موسيقار الأندلس للدكتور محمود أحمد

- الحفى . الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة .
- ٧٠ - السفن الإسلامية على حروف المعجم لدرويش النخيلي . الإسكندرية ، ١٩٧٤ .
- ٧١ - سِيرُ أعلام النبلاء للذهبي (١ - ٢٣) . تحقيق مجموعة من الأساتذة . مؤسسة الرسالة . بيروت ، ١٩٨١ - ١٩٨٥ .
- ٧٢ - شمس العرب تسطع على الغرب للمستشرق زيغريد هونكه . ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي . دار الآفاق الجديدة . الطبعة السادسة ، بيروت ١٩٨١ .
- ٧٣ - صُبْحُ الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (١ - ١٤) . نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية . المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .
- ٧٤ - الصقالبة في إسبانيا ، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركته الشعبية للدكتور أحمد مختار العبادي . المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدير ، ١٩٥٣ .
- ٧٥ - الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (١ - ٢) . نشر وتحقيق السيد عزت العطار . القاهرة ، ١٩٥٥ .
- ٧٦ - صورة الأرض لابن حوقل . منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ٧٧ - صور من الأدب الأندلسي للدكتور مصطفى الشكعة . دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ .
- ٧٨ - طوق الحمامة في الألفة والآلاف لابن حزم تحقيق الأستاذ فاروق سعد . دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- ٧٩ - ظهر الإسلام للأستاذ أحمد أمين (١ - ٤) . الطبعة الخامسة ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٨٠ - العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (ثمانية مجلدات في أربعة عشر جزءاً) دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨١ .
- ٨١ - العقد الفريد لابن عبد ربه (١ - ٧) . شرح الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، ١٩٤٩ - ١٩٦٥ .

٨٢ - عقود الجمان لوفيات الأعيان للزركشي (الجزء الثالث). نسخة مصورة عن مخطوطة محفوظة بمكتبة الجامعة الأميركية في بيروت تحت رقم MS. 920. 02 Z 37 a A.

٨٣ - علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر للدكتور عبد القادر أحمد اليوسف. منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٩٦٩.

٨٤ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق (جزءان في مجلد). تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢.

٨٥ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة. تحقيق الدكتور نزار رضا. دار مكتبة الحياة. بيروت، ١٩٦٥.

٨٦ - فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية) للدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٩.

٨٧ - فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة للدكتور حكمة علي الأوسي. مكتبة النهضة. بغداد، ١٩٧١.

٨٨ - فضائل الأندلس وأهلها (ثلاث رسائل لابن حزم وابن سعيد والشقندي). نشر الدكتور صلاح الدين المنجد. بيروت، ١٩٦٨.

٨٩ - الفن الإسلامي في إسبانيا لمانويل جوميث مورينو. ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم ومراجعة الدكتور جمال محرز. الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٩٠ - الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق. دار الثقافة، بيروت.

٩١ - الفهرست لابن النديم. تحقيق الأستاذ رضا تجدد. طهران، ١٩٧١.

٩٢ - فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی (١ - ٥). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ - ١٩٧٤.

٩٣ - في التاريخ العباسي والأندلسي للدكتور أحمد مختار العبادي. دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧١.

- ٩٤ - القاموس المحيط للفيروز آبادي . مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦ .
- ٩٥ - قرآن كريم . دار الفكر . بيروت، ١٤٠٣ هـ .
- ٩٦ - قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم (١ - ٢) .
دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧١ - ١٩٧٢ .
- ٩٧ - قصة الأدب في الأندلس للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجة (١ - ٢) بيروت،
١٩٦٢ .
- ٩٨ - قضاة قرطبة للخُشَنِي . تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري . دار الكتاب اللبناني .
بيروت، ١٩٨٢ .
- ٩٩ - قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب (عن كُور الأندلس ومدنها بعد
الأربعمائة) نشرها الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات
العربية . المجلد الأول، الجزء الثاني . مطبعة مصر، ١٩٥٥ .
- ١٠٠ - قلائد العقيان في محاسن الأعيان لابن خاقان . القاهرة، ١٢٨٤ هـ .
- ١٠١ - الكامل في التاريخ لابن الأثير (١ - ١٣) . دار صادر، بيروت، ١٩٨٢ .
- ١٠٢ - كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي . تحقيق الأستاذ إسماعيل العربي .
منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع . الطبعة الأولى،
بيروت، ١٩٧٠ .
- ١٠٣ - الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة لابن الخطيب،
تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣ .
- ١٠٤ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (١ - ٢) . إستانبول،
١٩٤١ - ١٩٤٣ .
- ١٠٥ - كُناسه الدكان بعد انتقال السكان لابن الخطيب (حول العلاقات السياسية بين
مملكتي غرناطة والمغرب في القرن الثامن الهجري) . تحقيق الدكتور محمد
كمال شبانة . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٦٦ .
- ١٠٦ - لسان العرب لابن منظور (١ - ١٥) . دار صادر ، بيروت .
- ١٠٧ - اللوحة البدرية في الدولة النصرية لابن الخطيب . نشره الأستاذ محب الدين

- الخطيب. المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٤٧ هـ.
- ١٠٨ - مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول، ١٩٧٧.
- ١٠٩ - مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني، ١٩٧٩.
- ١١٠ - مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، أيار، حزيران، ١٩٨١.
- ١١١ - مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث عشر، العدد الثاني، ١٩٨٢.
- ١١٢ - مجمع الأمثال للميداني (١ - ٢). تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥.
- ١١٣ - المحمدون من الشعراء وأشعارهم لعلي بن يوسف القفطي. تحقيق الأستاذ حسن معمرى. جامعة باريس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٧٠.
- ١١٤ - محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني. مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.
- ١١٥ - مختار الصحاح للرازي. مؤسسة الرسالة، دار البصائر، بيروت، ١٩٨٥.
- ١١٦ - المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء (١ - ٤). الطبعة الأولى المطبعة الحسينية المصرية.
- ١١٧ - مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بني زيري بغرناطة. نشر وتحقيق إ. ليفي بروفنسال. دار المعارف بمصر، ١٩٥٥.
- ١١٨ - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين ابن فضل الله العمري (الجزء الحادي عشر). مخطوطة مصورة بالميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت تحت رقم Mic. - A - 80.
- ١١٩ - المسالك والممالك للإصطخري المعروف بالكرخي. تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦٠.
- ١٢٠ - مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس (مجموعة من رسائله). نشر وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي. مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨.
- ١٢ - المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري

والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي . دار العلم للجميع ،
بيروت ، ١٩٥٥ .

١٢٢ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملّح أهل الأندلس لابن خاقان . دراسة
وتحقيق الأستاذ محمد علي شوابكة . دار عمار ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،
١٩٨٣ .

١٢٣ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي . مطبعة السعادة
بمصر .

١٢٤ - معجم البلدان لياقوت الحموي (١ - ٥) . دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٨٤ .

١٢٥ - معجم ما استعجم للبكري (١ - ٤) تحقيق الأستاذ مصطفى السقا . دار عالم
الكتب . بيروت ١٩٨٣ .

١٢٦ - معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (١ - ٥) . مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٥٩ .

١٢٧ - المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدي لابن الأبار . دار
الكاتب العربي للطباعة والنشر . القاهرة ، ١٩٦٧ .

١٢٨ - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي (١ - ٢) تحقيق الدكتور شوقي
ضيف . دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ .

١٢٩ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس لابن حيان القرطبي (تتمة السفر الثاني ويؤرخ
من سنة ٢٣٢ - حتى ٢٦٧ هـ) تحقيق الدكتور محمود علي مكي . دار الكتاب
العربي . بيروت ، ١٩٧٣ .

١٣٠ - المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان القرطبي (ويؤرخ من سنة ٣٦٠
حتى ٣٦٤ هـ) . تحقيق الأستاذ عبد الرحمن الحجى . دار الثقافة ، بيروت ،
١٩٦٥ .

١٣١ - المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار . تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري .
دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٣ .

١٣٢ - الملل والنحل للشهرستاني (١ - ٢) . تحقيق الأستاذ محمد سيد كيلاني . دار
المعرفة . بيروت .

- ١٣٣ - ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام لدوزي. ترجمة الأستاذ كامل كيلاني. مطبعة الحلبي بمصر، ١٩٣٣.
- ١٣٤ - موسوعة المعرفة (موسوعة علمية) المجلد الأول. مطبعة داغر، لبنان،
- ١٣٥ - نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر. دراسة وتحقيق الأستاذ محمد رضوان الداية. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧.
- ١٣٦ - نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لأبي عبدالله محمد الأنصاري الدمشقي، المعروف بشيخ الربوة. مطبعة الأكاديمية الأمبرطورية بطربورغ. ١٨٦٥.
- ١٣٧ - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي (١ - ٢). دار عالم الكتاب، بيروت، ١٩٨٩.
- ١٣٨ - نصوص الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك لأحمد بن عمر العذري المعروف بابن الدلائي. تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني. مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية ١٩٦٥.
- ١٣٩ - نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب لابن الخطيب. تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، ومراجعة الدكتور عبد العزيز الأهواني. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.
- ١٤٠ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري (١ - ٨). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.
- ١٤١ - نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (١ - ٢١). مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٢٣ - ١٩٧٦.
- ١٤٢ - نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصيرين. مطبعة مصر، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٨.
- ١٤٣ - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون لإسماعيل باشا البغدادي (١ - ٢). إستانبول، ١٩٥١ - ١٩٥٥.
- ١٤٤ - الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١ - ٢٢)، إستانبول وقيسبادن، ١٩٣١ - ١٩٨٣

- ١٤٥ - وصف إفريقية والمغرب والأندلس . جزء من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري . نشره الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب . مطبعة النهضة بتونس ، ١٣٣٩ هـ .
- ١٣٦ - وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ لابن خَلَّكَان (١ - ٨) . تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٧ - ١٩٧٨ .
- ١٤٧ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي (١ - ٤) . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٩ .

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- 1 - Almeria Islámica: Leopoldo Torres Balbás. Al - Andalus, Vol. XXII. fasc. 2. Madrid-Granada, 1957.
- 2 - Ampliación y tamaño de varias mezquitas: Leopoldo Torres Balbás. Al-Andalus, Vol XXI, fasc. 2. Madrid-Granada, 1956.
- 3 - Cementerios hispanomusulmanes: Leopoldo Torres Balbas. Al-Andalus, Vol. XXII, fasc. 1. Madrid-Granada, 1957.
- 4 - El mihrab de la mezquita mayor de Almeria: Christian Ewert. Al-Andalus, Vol. XXXVI, fasc. 2. Madrid-Granada, 1971.
- 5 - Encyclopédie de L'Islam (1-5). Nouvelle édition. Leiden, 1960-1986.
- 6 - Gárnata al-Yahud: David Gonzalo Maeso. Universidad de Granada, 1963.
- 7 - Histoire de L'Espagne Musulmane (1-3): É. Lévi-Provençal. Paris-Leiden, 1950-1953.
- 8 - Historia de la Literatura arábigoespanola: Angle Conzales Palencia. 2ª Ed. Madrid. 1945.
- 9 - La mezquita mayor de Almeria: Leopoldo Torres Balbás. Al-Andalus, Vol. XVIII. fas. 2. Madrid-Granada, 1953.
- 10 - La poésie anadalouse en arabe classique au XI eme siècle: Henri Pérès. Paris. 1953.
- 11 - Los palacios del taifa almeriense al-Mu'tasim, en Cuadernos de la Alhambra (Vol. III): Luis Seco de Lucena. Madrid, 1967.
- 12 - Poemas Arábigoandaluces : Emilio Garcia Gómez. 4ª éd . Madrid. 1959.
- 13 - Viaje por España y Portugal (1494 - 1495): Jerónimo Munzer. Traduccion José Lopez Toro. Madrid. 1951.

فهرس المحتويات

اهداء	٣
المقدمة	٥

الباب الأول

دراسة جغرافية وتاريخية وسياسية لمملكة المريّة ونبذة

عن حياة مليكها المعتصم ابن صمادح	٩
----------------------------------	---

الفصل الأول:

الموقع الجغرافي لمدينة المريّة حاضرة المملكة	١١
١ - موقع المريّة الجغرافي	١١
٢ - أهمية موقع المريّة البحري	١٢
٣ - بناء مدينة المريّة	١٩
٤ - المريّة حاضرة المملكة	٢٤
٥ - أعمالها	٢٥

الفصل الثاني

مملكة المريّة في عهد استقلالها عن الخلافة	٢٧
لمحة عامة	٢٧
١ - المريّة مملكة مستقلة	٢٩
٢ - المعتصم ابن صمادح يتسلّم حكم المريّة	٣٤
٣ - سياسة المعتصم الخارجية وعلاقاته بملوك الطوائف	٣٥

- ٤ - ابن شبيب يتمرد على المعتصم في بدء تسلّمه الحكم ٣٩
- ٥ - معركة الزلاقة ودور المعتصم فيها ٤٠
- ٦ - معركة حصن ليّيط ودور المعتصم فيها ٤٤
- ٧ - الإطاحة بعرش المعتصم وعروش سائر ملوك الطوائف ٤٥
- ٨ - المريّة بعد المعتصم ٤٨

الفصل الثالث:

- سيرة المعتصم ابن صمّاح ملك المريّة ٥٣
- ١ - اسمه وكنيته وألقابه ٥٣
- ٢ - ولادته وأصله ٥٤
- ٣ - خصاله ٥٦
- ٤ - وفاته ومدة إمارته ٥٩

الباب الثاني

دراسة اجتماعيّة واقتصاديّة وثقافيّة وعمرانيّة لمملكة المريّة

- في عهد المعتصم ابن صمّاح ٦١

الفصل الأول:

- مجتمع المريّة في عهد المعتصم ابن صمّاح ٦٣
- أولاً: سكان مجتمع المريّة ٦٣
- ١ - العرب ٦٣
- ٢ - البربر ٦٧
- ٣ - الصقالبة ٦٨
- ٤ - المسالمة أو الأسالمة ٦٩
- ٥ - المستعربون ٧٠
- ٦ - اليهود ٧٢
- ثانياً: صفات أهل المريّة ٧٣
- ثالثاً: زي أهل المريّة ٧٥
- رابعاً: الموسيقى والغناء في المريّة ٧٧

٨٠	خامساً: نساء المريّة
٨٠	سادساً: طبقات مجتمع المريّة
٨١	أ - طبقة الخاصّة أو الأرستقراطية
٨٣	ب - الطبقة الوسطى
٨٤	ج - الطبقة الدنيا
٨٥	سابعاً: التقسيم الاجتماعي بمفهوم ابن الخطيب

الفصل الثاني:

٨٧	الحياة الاقتصادية في مملكة المريّة في عهد المعتصم ابن صمادح
٨٧	أولاً: الزراعة
٨٧	١ - الإنتاج الزراعي في المريّة
٩٠	٢ - محاصيل أعمال مملكة المريّة الزراعيّة
٩٢	ثانياً: الصناعة
٩٢	١ - صناعة النسيج
٩٧	٢ - صناعة الرخام
٩٨	٣ - صناعة المعادن
٩٩	٤ - صناعة الزجاج
٩٩	٥ - صناعة السفن
١٠٠	٦ - صناعة الخزف
١٠٠	٧ - صناعة الزيوت
١٠٠	ثالثاً: التجارة
١٠٠	١ - العوامل التي ساعدت على ازدهار التجارة
١٠١	٢ - نشاط حركة التصدير والاستيراد

الفصل الثالث:

الحياة الأدبية واللغوية والعلمية في مملكة المريّة في عهد المعتصم ابن

١٠٣	صمادح
١٠٣	لمحة عامّة
١٠٥	أولاً: النشاط الأدبي

أ - دور المعتصم في النشاط الأدبي	١٠٥
ب - دور أولاد المعتصم في النشاط الأدبي	١٠٨
ج - شعراء المروية في عهد المعتصم	١٠٩
د - الشعراء يشيدون بالمروية	١٢٠
ثانياً: النشاط اللغوي والنحوي	١٢٢
أ - العوامل التي ساعدت الحركة اللغوية والنحوية في المروية	١٢٢
ب - لغويون ونحويون المروية في عهد المعتصم	١٢٣
١ - أبو عبيد البكري	١٢٤
٢ - ابن الطراوة	١٢٥
٣ - ابن أبي الدوس	١٢٥
٤ - الأشكركي	١٢٦
٥ - ابن أخت غانم	١٢٦
ثالثاً: النشاط العلمي	١٢٧
١ - علوم الدين	١٢٧
٢ - علم الجغرافيا	١٢٨
٣ - علوم الطب	١٢٩
٤ - علم العروض	١٢٩
٥ - علم الفلسفة	١٣٠
٦ - علوم العدد والهندسة والكلام	١٣٠

الفصل الرابع:

منشآت المروية المعمارية في عهد المعتصم ابن صمادح	١٣١
١ - قصبتها	١٣٢
٢ - سورها	١٣٦
٣ - أبوابها	١٣٨
٤ - قصرها المعروف بالصمادحية	١٤٣
٥ - مسجدتها الجامع	١٤٨
٦ - دارها المخصصة للحكم	١٥٤

١٥٤	٧ - مقابرها وأضرحتها
١٥٦	٨ - قيساريته
١٥٧	٩ - حُمَّتها العجيبة
١٥٨	١٠ - أسواقها وفنادقها ومتاجرها وحماماتها
١٦١	الخاتمة
١٦٥	مصادر البحث ومراجعته
١٦٥	أولاً: المصادر والمراجع العربية
١٧٧	ثانياً: المراجع الأجنبية

الهدف من هذه الدراسة هو إبراز الصورة الحية التي كانت عليها
مملكة ألمرية في الميدانين التاريخي والحضاري. وقد توصلت المؤلفة في
هذه الدراسة إلى عدة استنتاجات تتعلق بمملكة ألمرية في ظل ملكها
المعتصم بن صمادح. بعض هذه الاستنتاجات تتعلق بوضع المملكة
الجغرافي، وبعضها يتعلق بوضعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي
والعمراني.

كما قدمت المؤلفة صورة وافية عن الشخصية التي يتمحور حولها
موضوع الدراسة، وهي شخصية المعتصم بن صمادح. فقدمت نبذة وافية
عن حياته وسيرته العادلة في رعيته وجنده ومواهبه المتعددة في المجالات
السياسية والعسكرية والأدبية.

يطلب من: مكتبة الوحدة العربية
الأحياء - الدار البيضاء